موسوعة التاريخ الإسلامي

العصر العباسي

خالد عزام



دار أسامة

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن عمان

هاتف: ٥٦٥٨٢٥٣- ٤٦٤٧٤٤٧ فاكس: ٥٦٥٨٢٥٤

ص.ب: ١٤١٧٨١، البيادر

٢٠٠٩ م

المقدمة

قامت الدولة العباسية على إثر دعاية واسعة النطاق، دامت حوالي ثلث قرن تقريباً، فضمت إلى صفوفها كل المعارضين للأمويين، وأول دعاية قامت في الدولة الإسلامية هي الدعاية العباسية. وقد تمكنت في النهاية من أن تؤدي الغرض المقصد منها هو إسقاط الدولة الأموية، وإقامة الدولة العباسية، أما تسميتها بالدعاية العباسية، فنسبة إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ جدّ هذه الأسرة العباسية التي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ العربي الإسلامي.

سلكت الخلافة العباسية نظام الوراثة في الحكم، وقد اعتمد العباسيون في تقوية مركزهم على قرابتهم من الرسول ﷺ كما اعتمدوا على علماء الدين، من الفقهاء والتقاة حتى جعلوا التعاون معهم ركناً أساسياً في سياستهم ذات الصبغة الدينية.

وقد اختار العباسيون العراق مركزاً لخلافتهم لدوافع سياسية واقتصادية وحضارية، وبرزت بغداد عاصمة للخلافة العباسية، وأصبحت رمزاً لقوتها وحاضرة الدنيا وأعظم المدن العربية الإسلامية.

غير أن سياسة العباسيين مهدت الطريق للقوى الأجنبية للسيطرة على الدولة (الفرس، الترك، البويهين، السلاجقة) فتغلغلت في أجهزة الدولة وبسطت سيطرتها على الخلافة وعملت على إضعاف الدولة العربية الإسلامية وانهيارها.

وفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م احتل هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسي مع ولده الأكبر وبعض خاصته. وظهرت وحشية المغول في قتل الآهلين وتدمير

جوانب المدينة الحضارية، وبذلك سقطت الخلافة العباســية فــي بغــداد بعــد خمسمائة وأربع وعشرين سنة من التواصل الحضاري العربي الإسلامي الــذي رفد الحضارة الإنسانية بوفر من العطاءات والإنجازات والقيم.

الباب الأول

الدعوة العباسية وقيام الخلافة العباسية
(١٢٨هـ ١٧٠هـ / ٧٤٥م ٧٨٦م)

الفصل الأول: التنظيمات السياسية السرية العباسية (١٠٠هـ ١٢٧هـ/ ٧١٨م ٧٤٤م)

الفصل الثاني: الثورة العباسية (١٢٨هـ ١٣٢هـ / ٧٤٥م ٧٤٩)

الفصل الثالث: موقف الخلافة العباسية اتجاه مناورات العناصر الفارسية في الدولة

الفصل الرابع: تثبيت سلطة الخلافة العباسية والقضاء على المناوئين

الفصل الخامس: : بناء العاصمة بغداد

الفصل السادس: السياسة الخارجية

الدعوة العباسية وقيام الخلافة العباسية

(١٢٨هـ ١٧٠هـ / ٧٤٥م ٧٤٤م)

الفصل الأول: التنظيمات السياسية السرية العباسية (١٠٠هـ ١٢٧هـ / ٧١٨م ٧٤٤م)

كان من بين الحركات المعارضة للحكم الأموي، حركة أنصار آل البيت (بني هاشم)، وكانوا يرون أن بني هاشم هم أحق الناس بالخلافة، وقد عبروا عن معارضتهم للحكم الأموي، بعدة حركات وثورات، منها ثورة الحسين بن علي ﷺ وحفيده زيد بن علي، وعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، ويلاحظ على هذه الحركات أنها كانت غير متفقة على زعامة واحدة، والذي يهمنا هو حركة الكيسانية (المختارية)، التي كانت تعتقد بزعامة محمد بن علي (ابن الحنفية) التي تفرعت إلى عدة فرق، وتميل هذه الحركة في مبادئها إلى الغلو والتطرف في الدين.

وبعد وفاة زعيمها محمد بن الحنفية تزعم الحركة ابنه أبو هاشم عبد الله، وبدأ يطلق على هذه الحركة (الهاشمية) أو (الهاشمية الخالصة) وكان أصحابه يعتقدون بأنه يحيي الموتى، وقد استطاع أبو هاشم أن ينظم أتباع ويتسلم منهم الخمس والهدايا، لكنه في الوقت نفسه استمر في زيارته للبلاط الأموي، وكان على علاقة طيبة بمحمد بن علي العباسي في الشام، وعند عودته من إحدى زياراته إلى الشام، وفي طريق عودته إلى الحجاز، أحس بمرض مفاجئ، مما اضطره إلى أن يعرج على منزل محمد بن علي العباسي في الحميمة (في الأردن حالياً)، ولتدهور حالته الصحية وإشرافه على الموت، اضطر إلى أن

يسلم زعامة الحركة السرية الهاشمية إلى محمد بن علي العباسي وبحضور مجموعة من أتباعه، وسلمه (الصحيفة الصفراء) التي فيها أسرار التنظيم، من أسماء الأتباع، وموعد الثورة، ومكانها، وفيها علم رايات خراسان السود، متى تكون، وكيف تكون، ومتى تقوم، ومتى زمنها وعلاماتها، وأي أحياء العرب أنصارهم، وأسماء رجال يقومون بذلك، وكيف صفتهم وصفة رجالهم وأتباعهم، وبذلك تحولت الحركة السرية الهاشمية إلى حركة عباسية خالصة بعد أن تزعمها محمد بن علي العباسي، الذي أصبح يلقب بـ(الإمام).

- التنظيم العباسي:

١- التنظيم السري في الكوفة:

يعد محمد بن علي العباسي قائد التنظيم السري العباسي، ومؤسسه الحقيقي، ويطلق عليه (الإمام)، وتذكر رواية تاريخية، أن التنظيم العباسي تأسس في بني مسلية. وكان رئيسهم سلحة بن بجير، إلا أنه توفي في طريقه إلى الحجاز فتولى رئاسة التنظيم أبو رباح ميسرة النبال فأمرهم الإمام العباسي محمد بن علي بالذهاب إلى الكوفة، على أن يستروا أمرهم، وأن يكتموا اسمه، ولا يظهروه إلا لمن يثقوا به، وكانت دعوتهم إلى (الرضا من آل محمد) فإذا سئلوا عن اسمه قالوا: أمرنا بكتمان اسمه حتى يظهر، وكان من أوائل من انتمى إلى هذا التنظيم: سلمة بن بجير، وسالم بن بجير (سالم الأعمى)، وأبو هاشم بكير بن ماهان، وحفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال)، ومنهم زياد الهمداني، ومعن الهمداني، وأبو عمرو الأزدي وإبراهيم الهمداني.

وبعد وفاة أبي رباح النبال، تولى رئاسة التنظيم سالم بن بجير، وتولى أمر المراسلة بين الإمام العباسي في الحميمة وبين التنظيم في الكوفة أبو هاشم

بكير بن ماهان، حيث قام بزيارة الإمام العباسي وأعطاه بعض الأموال التي أرسلها التنظيم في الكوفة وفي حدود عام ١٠٠هـ/٧١٨م بدأ التنظيم يتخذ أسلوباً جديداً، حيث أخذ يبث مبادئه في خراسان، بعد أن زود من قبل الإمام العباسي بأوامر محددة هي:

١- أن يكسب الأتباع الثقاة من أهل خراسان.

٢- أن يكون الشعار (للرضا من آل محمد).

٣- أن يندد بجور الأمويين.

٤- حذره من الانضمام إلى الثوار العلويين وأمرهم بالكف، ومن هنا سموا (الكفية).

٢- التنظيم السري في خراسان:

تألف أول تنظيم سري عباسي في خراسان من: يزيد بن الهنيد، وأبي عبيده بن السري المسلمي، وسليمان بن كثير الخزاعي، وبعد شهرين، انضم إليه مالك بن الهيثم الخزاعي وعمرو ابن أعين، وزياد بن صالح وطلحة بن رزيق وأبي النجم عمران بن إسماعيل ثم خالد بن إبراهيم الربعي - الشيباني، الذهلي، وعلاء بن الحريث وموسى بن كعب التميمي، (وعدة من خزاعة).

٣- نشاطات التنظيم العباسي:

عين الإمام العباسي أبا هاشم بكير بن ماهان مسؤولاً عن التنظيم في خراسان، ولسفره إلى السند لتصفية ميراثه من أخيه لذا عين الإمام زياد بن درهم الهمداني بدله، وأمره بالاتصال بسليمان بن كثير الخزاعي وبقية التنظيم في (مرو) على أن لا يعلن معارضته للحكم الأموي بحركة مسلحة، بل تبقى

المعارضة سرية، وحذره من كثرة مراسلته خوفاً من عيون الأمويين، وأشـار إلى ضرورة الاستمرار في رفع شعار (للرضا من آل محمد) دون أن يصـرح باسم زعيم (الإمام) التنظيم العباسي، والأهم من ذلك أمره أن ينزل فـي أهـل اليمن، ويتآلف ربيعة، ويبتعد عن مضر إلا في ثقاتهم، وأمره أن لا يكتفي ببث تلك الشعارات بين العرب فقط، وإنما طلب منه أن يتصل بالسكان المحليين، ومن هنا بدأ التوسع في جلب الأتباع إلى الحركة من غير العرب.

استعاد أبو هاشم بكير بن ماهان زعامة التنظيم في خراسان بعد عودته من السند، ووجد التنظيم قوياً، إلا أنه فوجئ بكتاب من الإمام العباسي، يذكرهم بمبادئ الدين الإسلامي، في وصية طويلة، وفي آخرها يتبرأ من خداش، لأنه ابتعد عن التمسك بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

كان عمار بن يزيد (خداش) أحد أعضاء التنظيم فـي (مـرو)، حيث استطاع أن يكسب أتباعاً جدداً بعد أن نادى بمبادئ خرمية متطرفة، يقول الطبري: (وأظهر دين الخرمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علي (العباسي). وبالرغم من أن التنظيم العباسي كان في الأساس يحمل بعض المبادئ المتطرفة (مـن هاشمية إلى عباسية)، إلا أن الجديد هنا، هو المناداة بمبادئ خرمية، وهي مزدكية متطورة ومتأثرة بالدين الإسلامي. لقد انكشف أمر خداش، وأعدم مـن قبل السلطة الأموية عام ١١٨هـ/٧٣٦م.

بعد حادثة خداش قام بكير بن ماهان بإعادة النظر في بنية التنظيم السري في خراسان، حيث شكل مجلس الإدارة التنظيم من اثني عشر نقيباً، كلهم مـن العرب سوى واحد كان مولى لقبيلة عربية، وهم:

من خزاعة : سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وزيـــاد بـــن صـــالح، وطلحة بن زريق.

من تميم: موسى بن كعب، وعيسى بن كعب، ولاهز بن قريظة، والقاسـم ابن مجاشع.

من طيء: قحطية بن شبيب.

من شيبان: خالد بن إبراهيم الذهلي.

من بجيلة: أسلم بن سلام.

مولى بن حنيفة: شبل بن طهمان.

وكان هناك نظراء النقباء، إذا مات رجل من النقباء صير مكانه رجل من النظراء، وكان هناك الدعاة، بلغ عددهم سبعين، ودعاة الدعـــاة وهـــم ســـبعة وثلاثون.

أما خارج مرو، فهناك نقباء ودعاة أيضاً في بقية مدن خراســـان: نســـا، وايبورد، وبلخ، ومرو الروذ، وخوارزم، وآمل. وقام بكير بن ماهان قبل سـفره بتعيين سليمان بن كثير الخزاعي رئيساً للنقباء ومشـــرفاً علـــى التنظيـــم فـــي خراسان.

سافر أبو هاشم بكير بن هامان ومعه بعض أعضـــاء التنظيـــم، ومعـــهم الأموال، إلى الحميمة عن طريق الكوفة، وقابلوا الإمام محمد العباسي، ودفعـــوا إليه الأموال، وأثناء هذه المقابلة أحس الإمام بمرضه الأخير، لذلك عين ابنـــه إبراهيم إماماً، وأوصاه بهم خيراً، وأكد على أن أبا هاشم بكير بن ما هان هـــو المسؤول الأول عن التنظيم في الكوفة، وعند وفاته يكون أبو ســـلمة الخـــلال

مكانه، ثم أوصاه ببني مسلية– الذين كانوا نواة التنظيم في الكوفة. وقد توفي محمد العباسي عام ١٢٤هـ/٧٤١م.

وقد عاد بكير بن هامان إلى خراسان، وأوصى التنظيم العباسي بعدم رفع السلاح مع يحيى بن زيد بن علي: (فلا يخرجن معه أحد منكم، ولا يسعى في شيء من أمره، فإنه مقتول، وقد نعاه الإمام إلى أهل بيته). وهذه الوصية لها ما يبررها، فمادام هناك تنظيم سري يعمل من أجل خلافة عباسية، فليس من المعقول أن يساند حركة تعمل من أجل خلافة علوية.

وفي عام ١٢٦هـ/٧٤٣م وجه إبراهيم الإمام من جديد إلى خراسان بكير ابن ماهان وبعث معه بالسيرة والوصية، ونعى الإمام العباسي محمد بن علي وأوصاهم وقرب لهم أمرهم،وأمرهم بطاعة أبي هاشم والقبول عنه فجمع ابن ماهان النقباء في مرو ومن بها من أعضاء التنظيم ودعاهم إلى إبراهيم فقبلوا منه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال، فقدم بها بكير بن ماهان على الإمام إبراهيم بن محمد.

عند عودة بكير بن ماهان إلى الكوفة سجن بسبب دين عليه، فتولى رئاسة التنظيم أبو سلمة الخلال. وكان زوج ابنة بكير، فأرسله إبراهيم الإمام إلى خراسان، وكان برفقته هذه المرة أبو مسلم الخراساني، ومعهما ثلاث رايات سود، تسلم أحدها أبو عون عبد الملك الأزدي في جرجان، وتسلم الثانية سليمان ابن كثير الخزاعي في مرو، وأرسل الثالثة إلى ما وراء النهر مع مجاشع الأنصاري وقيل عمرو المرادي.

لقد استغل التنظيم العباسي التنبؤات والملاحم الشعبية، فأشاع أحاديث عن اللباس الأسود، والرايات السود، وأنها ستظهر من المشرق، وأنها منتصرة لا محالة، ولم يكتف التنظيم العباسي بذلك، بل طرح شعارات عديدة متنوعة لكي

يكسب كل الكتل المتذمرة من الحكم الأموي، وخاطب كل فئة باللغة التي تفهمها، ومن الممكن تلمس تلك الشعارات من الكتل والجماعات التي انضمت تحت لواء التنظيم العباسي والتي أيدت الثورة العباسية بعد ذلك، على أن الشعار الرئيسي الذي رفعه الثوار العباسيون كان (للرضا من آل محمد) يوضح إلى حد كبير أن العباسيين قد توجهوا بالدرجة الأساس نحو المسلمين – من عرب وغير عرب – هذا إذا تذكرنا أن التنظيم العباسي هو في الأساس متطور عن الحركة الهاشمية – المختارية، وهذا يشعرنا بأن التنظيم العباسي كان يميل إلى التطرف والغلو في بعض مبادئه، ثم رأينا ما طرحه (خداش) من مبادئ خرمية إباحية ثم ما قام من بعده أبو مسلم في الاتجاه نفسه. على أننا يجب أن نحذر من المبالغات الكثيرة في رواياتنا التاريخية – وتبعها مؤرخون محدثون – عن كثرة انضمام الموالي (المسلمون من غير العرب) والفرس بشكل عام إلى التنظيم العباسي أملاً في التخلص من الحكم الأموي العربي وتغير أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة. ولو كان انضمام الموالي والفرس إلى التنظيم العباسي، وتأييدهم الثورة العباسية بهذا الشكل الواسع، لاستغلت مدن بلاد فارس فرصة الثورة لتنتفض عن بكرة أبيها ضد الأمويين، بل إن الروايات التاريخية تثبت عكس ذلك.

ونلاحظ تأييد النبلاء الفرس – نبلاء القرى – للدعوة العباسية وكان سبب تذمرهم يعود إلى فقدانهم امتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية بعد التنظيمات المالية التي وضعها نصر بن سيار.

على أن أهم الكتل التي قادت الثورة نحو الانتصار هم عرب خراسان، الذين فقدوا امتيازاتهم بصفتهم أعضاء في الكتلة العربية الحاكمة. والذين تأثروا

أيضاً بكونهم خاضعين الأرستقراطية الفارسية غير المسلمة (الدهاقين)، فهؤلاء العرب المستقرون في خراسان كانوا هم سند الثورة.

وقد استغل التنظيم العباسي في خراسان تذمر المقاتلة العرب أيضاً، الذين كانت لهم أسباب عديدة للتذمر، أهمها تذمرهم من سياسة التجمير الأموية التي تقضي بإبقائهم على الحدود شتاءً وعدم السماح لهم بالرجوع إلى عوائلهم، وتذمرهم أيضاً من السياسة الأموية التي كانت تقطع رواتبهم أحياناً، أو تسلبهم فيئهم وغنيمتهم، أو تقطع نسبة أكبر مما تستحقه من هذه الغنائم.

الفصل الثاني: الثورة العباسية (١٢٨هـ - ١٣٢هـ / ٧٤٥م ٧٤٩م)

أولاً: وضع الخلافة الأموية في الشام

بويع الوليد بن يزيد عام ١٢٥هـ/٧٤٢م بناء على وصية مسبقة من أبيه يزيد بن عبد الملك، وقد دخلت الدولة الأموية في مرحلة جديد بسبب ما واجهته من مصاعب نتيجة انقسام البيت الأموي بالدرجة الأساس، وكان لسلوك الخليفة الوليد وسياسته، الأثر الأكبر في تصدع البيت الحاكم، فقد انغمس باللهو والعبث، فضلاً عن سوء سياسته اتجاه القبائل العربية، فتعصب للقيسية على اليمانية، مما أثار حفيظة خصومه من البيت الأموي، فتزعم المعارضة يزيد بن عبد الملك ومعه اليمانية فسيطر على دمشق وهاجم مقر الخليفة ثم قتله عام ١٢٦هـ/ ٧٤٣م. وبذلك تسلم الخلافة يزيد بن الوليد. ولاعتماده على اليمانية في الإطاحة بالخليفة السابق لذلك فإن نصر بن سيار الوالي الأموي في خراسان رفض الاعتراف به، إلا أن يزيداً استطاع في النهاية أن يحصل على الاعتراف بخلافته من الأقاليم التي رفضت بيعته وهي خراسان وحمص وفلسطين وإفريقية، وقد توفي الوليد بعد مرور ستة أشهر على خلافته فتولى بعده أخوه إبراهيم لكنه لم يحصل على التأييد، وأدى إلى ظهور مروان بن محمد على الساحة السياسية، فاستغل قتل الوليد بن يزيد، واعتمد على تأييد القبائل القيسية، وطالب بالخلافة وتحرك بقواته نحو دمشق، واشتبك مع قوات إبراهيم لكنه سرعان ما قضى عليها ومن ثم سيطر على دمشق وأعلن نفسه خليفة عام ١٢٧هـ/٧٤٤م.

يعد مروان بن محمد من أجدر الخلفاء الأمويين الأواخر، إلا أن الظروف في الشام والأقاليم الأخرى لم تسر في صالحه، حيث امتد الصراع الدموي إلى حمص وفلسطين، فثارت اليمانية ضده في الوقت الذي كان مؤيداً من المضرية، وحدثت الاضطرابات في أقاليم العراق والجزيرة وكذلك في خراسان.

ثانياً: تطورات الثورة العباسية

اتخذت الحركة العباسية السرية مساراً جديداً بعد الاضطرابات التي حصلت في الشام والأقاليم، وبدأ التهيؤ للثورة_ ففي رواية أن بكير بن ماهان قال لأبي سلمة الخلال قبل وفاته: (شمر في أمرك فقد فتح الله البلاء على بني أمية)_ فانتشر أعضاء التنظيم في خراسان (فتحركت الدعوة: يدعو اليماني من الشيعة اليماني، والربعي الربعي والمضري المضري، حتى كثر من استجاب لهم.

ذهب أبو سلمة الخلال ومعه خادمه أبو مسلم الخراساني إلى جرجان والتقى التنظيم العباسي، وأمرهم بالاستعداد للثورة، ثم تنقل في مدن خراسان، وفي مرو وجد التنظيم العباسي فيها قد كسب أتباعاً جدداً، ثم أقر سليمان بن كثير الخزاعي مسؤولاً عن التنظيم العباسي السري.

لقد طلب سليمان بن كثير الخزاعي من إبراهيم الإمام عن طريق أبي سلمة الخلال إرسال من يمثل البيت العباسي، فأرسل إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني ممثلاً له وأرسل معه بعض التوصيات، وأمره بعدم مخالفة سليمان الخزاعي وسليمان يومئذ صاحبهم والمنظور إليه منهم.

لقد استغل التنظيم العباسي الخلافات بين الوالي الأموي نصر بن سيار وأحد شيوخ قبائل الأزد اليمانية علي بن جديع الكرماني الأزدي، واستطاع

التنظيم من كسب الأخير ومعه أتباعه من الأزد وربيعة ومضر. وعندما قتـــل التحق جيشه العربي بالتنظيم العباسي، فقوي أمر التنظيم وأصبحت لـــه قـــوة جديدة ضاربة من العرب اليمانية.

وقد تحرك أبو مسلم بسرعة مستغلاً الظروف الجديدة فعين بعض النقبـاء العباسيين ببعض المناصب الإدارية والعسكرية، إلا أن إبراهيم الإمام عين مـــن قبله مباشرة قحطبة بن شبيب الطائي قائداً للجيش العباســـي المواجـــه للقـــوات الأموية، الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالقوات الأموية في جرجان، لكـــن أهـــل جرجان قاموا بالثورة، مما اضطر قحطبة إلى احتلال المدينة بالقوة، علــــى أن المعركة المهمة كانت قرب أصفهان بين جيش الثورة بقيادة قحطبـــة الطـــائي والجيش الأموي بقيادة عامر بن ضبارة التي انتهت بانتصار الجيش العباســـي، وبعدها احتل الجيش العباسي نهاوند بعد حصار شديد، ومن ثم وصل الجيـــش العباسي العراق، وقد تجنب قحطبة الطائي القوات الأموية المعسكرة في جـــولاء واستطاع عبور دجلة ومن ثم الفرات باتجاه الكوفة، وبالغرب من الفلوجة كانت المعركة مع الجيش الأموي الذي كان بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة الفـــزاري انتهت بمقتل القائد العباسي قحطبة الطائي وانهزام ابن هبيرة نحو واسط. لكـــن الحسن بن قحطبة تسلم القيادة العسكرية بدلاً من والده.

ثالثاً: أبو العباس والقضاء على الخلافة الأموية

واجهت الثورة العباسية انتكاسة، وهي القبض على قائد الثورة إبراهيـــم الإمام ومقتله بعد ذلك على يد الخليفة الأموي مروان بن محمد. وعندما أحـــس إبراهيم الإمام أن الخليفة مروان سوف يقتله وأنه لا مفر لـــه منـــه. أوصـــى بالإمامة من بعده إلى أخيه أبي العباس وأمره أن يسير هو وأهـــل بيتـــه مـــن

الحميمة إلى الكوفة. بعد أن أوصاهم بالسمع والطاعة لأبي العباس وقد بعث إليه بالوصية مع سابق الخوارزمي مولاه. ويوصيه بالقيام بالدولة، والجد والحركة وأن لا يكون له بعد الحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الكوفة، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة.

ومن أجل تنفيذ وصية أخيه سار أبو العباس ومن معه من أهل بيته، من الحميمة إلى الكوفة، بعد أن أطلعهم على حقيقة الأمر، فبينما كان أبو العباس سائراً في طريقه قابله عمه داود بن علي وابنه موسى بن داود. وهما متوجهان من العراق إلى الحميمة، فسأله داود عن سبب مسيرة، فأخرة بسببه، وأعلمه بمناصرة أهل خراسان له وأنه يريد الوثوب بالكوفة، فقال له داود: يا أبا العباس تثب بالكوفة ومروان شيخ بني آمية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة. مطل على أهل العراق، وابن هبيرة شيخ العرب في جلة العرب بالعراق؟ فقال له أبو العباس: يا عماه من أحب الحياة ذل، وتمثل بقول الأعشى:

فما ميتة أن متها غير عاجز بعار، إذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود إلى ابنه موسى، فقال: أي بني، صدق ابن عمك ارجع بنا معه نحيا أعزاء أو نموت كراماً، فعطفا ركابهما معه. ثم سار أبو العباس ومن معه حتى قدموا الكوفة في صفر سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وقد كان لهم بها أحد كبار أنصار الدعوة العباسية وهو سلمة الخلال فعندما وصلوا الكوفة، حاول أبو سلمة أن ينكر قدومهم بحجة أن الوقت غير مناسب، وقال: خاطروا بأنفسهم وعجلوا، فليقيموا بقصر مقاتل - وهو على مرحلتين من الكوفة - حتى ننظر في أمرنا. لقد جاء بنو العباس إلى أبي سلمة لينصرهم ويقف إلى جانبهم إلا أنهم رأوا منه عكس ما كانوا يتوقعون، فخافوا أن يقيموا في تلك الدار وكتبوا

إليه يستأذنونه بدخول الكوفة، لأنهم في هذا المكان لا يأمنون على أنفسهم من أن تغير عليهم جيوش الشام، ولهذا فقد أذن لهم أبو سلمة وعلى كره منه، وأنزلهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود وهو حي باليمن. كتم أمرهم نحوا من أربعين ليلة عن جميع القواد وأنصار الدعوة العباسية.

ولقد حاول أبو سلمة أن ينتهز فرصة اختفاء أبي العباس ومن معه في الكوفة، ليعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، إلا أن محاولته هذه فشلت في النهاية، وذلك بفضل جهود ومساعي الدعاة والقادة الخراسانيين الذين أحبطوا مؤامرته، وقابلوا أبا العباس وبايعوه بالخلافة، ونتيجة لذلك فقد تأخرت البيعة لأبي العباس في الكوفة المدة التي أخفى فيها سلمة أبا العباس أي أكثر من شهر.

١- البيعة الخاصة:

ذكرنا سابقاً أن أبا سلمة الخلال أخفى أبا العباس وأهل بيته عن أنصاره والقادة الخراسانيين، فقد أدى ذلك العمل إلى ارتياب الخراسانيين من تصرفاته، فقالوا: يا أبا سلمة مالك دعونا وما أنت لنا بإمام. وحين سأل أبو الجهم بن عطية عن أبي العباس، كان أبو سلمة يقول: ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد. ولكن أبا سلمة لم يفلح في النهاية، وذلك بفضل جهود ومساعي الدعاة الخراسانيين، الذين قابلوا أبا العباس وبايعوه وأخرجوه من المكان الذي أخفي فيه.

ولتوضيح ذلك هناك رواية أجمع عليها المؤرخون القدامى، وهي أن أحد الخراسانيين وهو محمد بن إبراهيم الحميري ويكنى أبا حميد السمرقندي كان قد خرج إلى الكناسة – وهي محل بالكوفة – فبينما هو في الطريق لقي سابقاً

الخوارزمي، فسأله عن الإمام، فقال له أن مروان قتله، ويقصد بذلك إبراهيم الإمام، وأوصى بالإمامة من بعده لأخيه أبي العباس، وهو الآن في الكوفة ومعه أهل بيته، فطلب منه أبو حميد أن يأخذه إليه، فاعتذر سابق الخوارزمي عن ذلك قبل أن يأخذ رأي أبي العباس، وقال، ولما حان الموعد المحدد التقيا، فسار سابق بأبي حميد إلى المكان الذي يقيم فيه أبو العباس وأهل بيته، فدخل أبو حميد عليهم، وعزاهم بإبراهيم الإمام، وسألهم عن ابن الحارثية فأشاروا إلى أبي العباس، فبايعه بالخلافة.

وهناك رواية يتفق فيها الطبري والمسعودي وابن خلدون، تقول أنه لما دخل أبو حميد سأل عن الخليفة، فقال له داود بن علي: هذا إمامكم، وأشار إلى أبي العباس، فسلم عليه بالخلافة، بعد ذلك رجع أبو حميد إلى مكانه وأخبر أبا جهم بن عطية بمكانهم، ثم أنه أخبره بسوء معاملة أبي سلمة لهم، وكان يقتصد في نفقاتهم، إلى حد أنه لم يعطهم مائة الدينار التي كانوا قد طلبوها منه لكي يعطوها أجراً للجمال عن الجمال التي حملتهم، فسار أبو حميد وأبو الجهم إلى باقي الدعاة أو القادة الخراسانيين وأخبرهم بذلك فأرسلوا إليهم مائتي دينار بدل المائة. وعلى إثر ذلك اجتمع أبو الحميد بن ربعي وسلمة بن محمد، وعبد الله ابن بسام وغيرهم، فجاءوا إلى الكوفة ودخلوا على أبي العباس وأهل بيته وقالوا: أيكم ابن الحارثية؟ فأشاروا إلى أبي العباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في أخيه إبراهيم، ثم رجع أبو جهم بن عطية وموسى بن كعب وخلفوا الباقين عند الإمام، بعد أن اتخذوا إجراءات أمنية مشددة ضد أبي سلمة إذ أوصى أبو الجهم أبا حميد قائلاً له: إن أتاكم أبو سلمة فلا يدخل إلا وحده، ولما جاء أبو سلمة منعوه من الدخول ومعه أحد فقبل يد أبي العباس وقدميه، واعتذر له ولما بدأ يعتذر رأى أبو العباس أن من حسن السياسة أن يقطع اعتذار أبي

سلمة، فقال له: عذرناك يا أبا سلمة، غير مفند، وحقك لدينا معظم وسابقتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين.

إن إخراج أبي العباس من الموضع الذي كان مختبئاً فيه ثم إعلان خلافته في الكوفة لا يمكن أن يكون صدفة كما يرى أحد الباحثين، بل يعتقد أن ذلك كله بمبادرة من قادة الدعوة العباسية العرب الذي وصلوا الكوفة، ولهذا فهناك احتمالان الأول هو أن يكون أبو العباس وأهل بيته قد أخبروا بعض قادة الدعوة بقرب انتقالهم من الحميمة إلى الكوفة، فلما أبطأ عليهم خبر ظهورهم فيها، أوعزوا بالبحث عنهم، والاحتمال الثاني وهو الأقرب إلى الظن، أن العباسيين حين سمعوا رأي أبي سلمة بضرورة الاختفاء حتى يتجلى الموقف، أرسلوا بذلك الخبر إلى بعض كبار الدعاة، فأسرعوا بقطع الطريق عليه، ومنعه من فعل ما أراد. والرأي الأخير هو الأقرب إلى القبول، حيث أخرج أبو العباس وبويع بالخلافة.

٢- البيعة العامة:

خرج أبو العباس في اليوم التالي لبيعته الخاصة، فتلقى البيعة العامة من الناس، وبويع أبو العباس بالخلافة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م بالكوفة، وقد اختلفت المصادر في تاريخ بيعته، إلا أن المرجح أنها كانت في يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وذلك لأن أغلب روايات المؤرخين القدامى تشير إلى هذا التاريخ.

وقيل أن أبا العباس خرج ليلة الجمعة لابساً السواد، فصلى صلاة المغرب في مسجد بني أود، وفي هذه الليلة ظهر أبو سلمة في مسجد الكوفة وكان لابساً

السواد، وأعلن ترشيح أبي العباس إلى الخلافة وطلب من الناس مبايعته. ففـــي رواية ابن اعثم الكوفي أن أبا سلمة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وخطـب في الناس وأوصاهم أن يأتوا إلى المسجد لبيعة أبي العباس.

ولما أصبح الناس في يوم الجمعة كان القواد والناس قد اصطفوا بسلاحهم منتظرين خروج أبي العباس، وقد حضروا له الملابس السوداء التـــي يلبســـها وأتوه بالدواب التي يركبها هو وأهل بيته، وبالسلاح الذي يحمله، وساروا إلـــى المسجد الجامع، وأقبل أبو سلمة ودخل المسجد وكان لابساً الســـــواد، وصعـد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً فصلى عليه، وعلى آله الطيبين، ثـــم أرسل إلى أبي العباس فدعاه.

فركب أبو العباس برذونا أبلق، وركب معه أهل بيته فدخلوا دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد وصلى بالناس، ثم صعد المنبر، حيـــن بويـــع بالخلافـــة، ووقف في أعلاه وصعد عمه داود بن علي فوقف دونه، وكان أول عمل قام بـه فأحبه فيه الناس هو أنه خطب على المنبر قائماً، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً، فناداه الناس: يا ابن عم رسول الله أحييت سنة رسول الله ﷺ، وقد خطب أبـــو العباس خطبة سياسية بليغة فقال: الحمد الله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمـة وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام بـــه، والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بـــها وأهلـــها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته.. وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعتـه.. ووضعنا من الإسلام وأهله بالوضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابـاً يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القـــرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(١) وقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(٢) وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٣) وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾(٤) فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم. وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا ما كان فاسداً.. فتح الله ذلك منه ومنحه لمحمد ﷺ. فلما قبضه الله إليه، قام بذلك أمر الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاوروا فيها، واستأثروا بها، وظلوا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى أسفوه، فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض.

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٤١.

بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

وقد كان أبو العباس موعوكاً فاشتد عليه الوعك فجلس على المنبر، وخطب عمه داود بن علي، خطاباً بليغاً، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان فصيحاً بليغاً، وأنه كان من أفصح بني العباس.

وعندما خطب داود بن علي قال: الحمد لله شكراً شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ .. أيها الناس، إنا والله أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم.. ولقد كانت أموركم ترمضنا .. ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ، تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان..

فعج الناس له بالدعاء، ثم قال: يا أهل الكوفة، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون.. ودالكم على أهل الشام. ونقل إليكم السلطان، وعز السلطان، وعز الإسلام.. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبي العباس، فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام، والحمد لله رب العالمين ما أبلانا وأولانا.

وبعد إكمال الخطبتين نزل أبو العباس وداود أمامه حتى دخل قصر الإمارة، وأجلس أخاه أبا جعفر لأخذ البيعة على الناس، ثم صلى بهم صلاة العصر ثم صلاة المغرب.

إن المهمة التي أسندها أبو العباس لأخيه أبي جعفر وهي أخذ البيعة على الناس في المسجد، تدل على مقام أبي جعفر، إذ أن إسناد أبي العباس هذا الأمر الخطير والمهم لأخيه دون غيره. يوضح لنا بلا شك مقدار الثقة والآمال الكبيرة التي يعلقها على أخيه في سياسة الدولة القادمة.

ويبدو أن عدداً من وفود الأمصار والأقاليم بدأت تفد على بلاط أبي العباس للتهنئة، فقد أرسل إليه عمه عبد الله بن علي وفداً من شيوخ أهل الشام، فحلفوا لأبي العباس أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة، ولا أهل بيت يرثونه إلا بني أمية حتى وليتم أنتم، كما وصل وفد من أهل نجران وقفوا في طريق أبي العباس بعد مبايعته في الكوفة، فألقوا فيه الريحان ونثروا عليه وهو منصرف إلى منزله في المسجد، فأعجب أبو العباس بهذا العمل، ولا بد أن وفوداً أخرى عديدة وصلت للتهنئة والبيعة كما هي العادة.

٣ـ معركة الزاب ونهاية الأمويين:

بعدما بويع أبو العباس بالخلافة، كان أول عمل مهم واجهه هو السعي إلى القضاء على الخليفة الأموي مروان بن محمد وقواته المرابطة في موقع استراتيجي عند الزاب.

فقد كان لابد من القضاء على كل نفوذ الأمويين إذا أريد للدولة الجديدة البقاء، وبالقضاء على الخليفة الأموي يتم الثأر لبني هاشم الذين أساء الأمويون إلى بعضهم، خاصة أن ذلك كان أحد شعارات الدعوة العباسية المعلنة.

لقد أرسل القائد العباسي قحطبة بن شبيب الطائي جيشاً يقوده أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور. وكان بها عبد الله بن مروان -ابن الخليفة الأموي مروان بن محمد- وعلى مقدمة جيش عبد الله بن مروان عثمان ابن سفيان، فعندما وصل الجيش العباسي إلى شهرزور، جرت معركة حاسمة في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣١هـ/١٠ آب ٧٤٩م بين أبي عون وعبد الله بن مروان، وعلى إثر هذه المعركة انهزم عد الله بن مروان وتراجع نحو شمالي العراق، وقتل عثمان بن سفيان في المعركة، وأقام أبو عون في شهرزور، ومعنى ذلك أن فرقة من جيش العباسيين بقيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي بقيت متمركزة على الطف الجنوبي لنهر الزاب الأعلى، حيث تخندقت هناك تنتظر الأوامر.

وبعد موقعة شهرزور أحس مروان بن محمد بالخطر، فأعد للأمر عدته، حيث سار من حران واتجه نحو الموصل بهدف لقاء أبي عون، حتى نزل بالقرب من نهر الزاب الكبير وفي موقع حصين، وقد حفر له خندقاً هناك، وبهذا يكون مروان قد تمركز على الضفة الشمالية من نهر الزاب الكبير في موقع استراتيجي مثلث يحميه من جهتين نهر دجلة والزاب الأعلى، أما الضلع الثالث فكان محمياً بخندق طويل.

تدارك الخليفة أبو العباس الموقف حيث عين عمه عبد الله بن علي العباسي قائداً أعلى للجيش العباسي الذي وجهه لينضم إلى قوات أبي عون المرابطة في شهرزور، خاصة بعد أن أدرك حاجة أبي عون إلى من ينجده.

إن إرسال أبي العباس عمه عبد الله بن علي يدل على مدى إدراكه لخطر وجود مروان في موقع استراتيجي قوي لا يكون مواجهاً له فحسب بل متسلطاً

عليه بحيث يحتمل أن ينقض عليه في أية لحظة، ثم إن أبـا العبـاس استشـار بعض صحابته ورجال دولته وأهل بيته، حول من يذهب لمحاربة مروان، وبعد مداولات تردد فيها العديد من العباسيين في تحمل هذه المسؤولية، قال الخليفـة: من يسير إلى مروان من أهل بيتي؟ فقال عبد الله بن علي: أنا، فقال: سر علـى بركة الله، فسار عبد الله بن علي إلى أن وصل إلى أبي عون عبد الملـك بـن يزيد الأزدي فتحول أبو عون عن سرادقه وخلاه وما فيه، وبذلك أصبح عبد الله ابن علي قائداً للجيش.

وفي ٢جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ/١٥كانون الثاني ٧٥٠م، بدأ الصـدام المسلح بين الجيشين، فقد عبرت فرقة من الجيش العباسي بقيـادة عيينـة بـن موسى في خمسة آلاف مقاتل، واشتبكوا مع جيش مروان حتى المسـاء حيث عادت الفرقة إلى قواعدها، ولما كان الصباح التالي عقد مروان جسراً على نهر الزاب، وقاد جيشه لغرض عبور الجسر فعبر مروان إلى جهة عبـد الله بـن علي، وفي رواية أنه أثناء عبور مروان للجسر ركب فرسه الأشقر، الذي كـان يسمى (أشقر مروان) وكان يرجز ويقول مفتخراً بشجاعته وأنه لم يخسر معركة قط.

رائعـة تحمـل شـيخاً رائعـاً   مجربـا قـد شـهد الوقائعـا

ويرى الدكتور فاروق عمر أنه بعبور مروان إلى الساحل الأيسـر مـن الزاب الكبير يكون قد ارتكب خطأً استراتيجياً فقد فيه مروان سيطرته والموقـع الحصين الذي كان معسكراً فيه، وقد استمرت المعركة عشرة أيام، خسر فيـها مروان المعركة النهائية وانسحب باتجاه الموصل فالشام وعبـد الله بـن علـي يتبعه، ولم تستجب لمروان بن محمد الكثير من قبائل الشام مما اضطـره إلـى

الانسحاب مع أنصاره باتجاه فلسطين ثم مصر وابن علي العباسي يتبعه. وفـي قرية بوصير في مصر تم القبض على مروان وقتل وأرسل رأسه إلى الخليفـة العباسي، وبمقتل مروان انتهت الدولة الأموية.

الفصل الثالث: موقف الخلافة العباسية تجاه مناورات العناصر الفارسية في الدولة

أولاً: نفوذ خالد بن برمك

ينسب خالد بن برمك إلى البرامكة، وهم أسرة من بلاد فارس من مدينة بلخ ينسبون إلى جدهم برمك، ولم يكن برمك اسماً لشخص، وإنما هو لقب أطلق على جد هذه الأسرة توارثوه فيما بينهم، إذ أن هذا اللقب يعني رئيس أو كبير سدنة معبد النوبهار الذي كان في بلخ، ويظهر هذا من قول المسعودي في حديثه عن النو بهار، وكان الموكل بسدانته يدعى اليرموك، وهي سمة عامة لكل من يلي سدانته. ومن أجل ذلك سميت البرامكة، لأن خالد بن برمك من ولد من كان على هذا البيت.

وفي رواية يؤكد المقدسي أن البرامكة كانوا من أهل بيوتات بلخ ممن يتولون البهار وبيت النار فقيل لهم البرامكة على معنى أنهم سدنة البيت وحجابه، ويؤيده ابن خلكان في ذلك بقوله، اشتراه برمك وبنوه بسدانته.

ويرى بعض المؤرخين أن معبد النوربهار كان بيتاً من بيوت النار، إلا أن هناك ثمة من يرى أن النوبهار لم يكن من بيوت النار، وإنما هو معبد بوذي وهو الأرجح، وهنا يمكن القول أنه على الرغم من أن دين البرامكة كان بوذياً، إلا أن أصلهم من خراسان من بلاد فارس.

إن الروايات التي تشير إلى أن جد البرامكة الذي لقب بـ(برمك) كان من مجوس بلخ، تبدو ضعيفة، لأنها تعطي بعداً لا يستند على روايات موثوقة عن أصل البرامكة، ومن سياق هذه الروايات يبدو أثر الوضع غالباً عليها، وهي

على أحسن الاحتمالات روايات فارسية شعوبية لا يؤخذ بها، لأنها أشيعت بين الناس بعد سيطرة البرامكة على السلطة، لتأكيد دور الفرس وأثرهم في سياسة العباسيين.

تحدد بعض المصادر مولد خالد بن برمك عام ٩٠هـ/٧٠٨م، وقد جرت محاولة لربط خالد البرمكي بنسب عربي، حيث ذكرت رواية، أن قتيبة بن مسلم الباهلي أقام على بلخ لأن بعضها كان منتقماً عليه فحارب أهله، فكان ممن سبي امرأة برمك، أبي خالد بن برمك، وكان برمك على النوبهار فصارت لعبد الله أخي قتيبة، فوقع عليها ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة، فأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم: إني قد علقت منك، وعند وفاة عبد الله أوصى أن يلحق به ما في بطنها، وردت إلى برمك، وأن ولد عبد الله بن مسلم جاءوا أيام المهدي حين قدم إلى الري إلى خالد، فأرادوا أن يلحقوه بهم فمنعهم مسلم بن قتيبة من ذلك.

إن هذه الرواية تبدو موضوعة ولا يمكن الأخذ بها، ذلك أن العديد من الموالي الطموحين حاولوا الانتساب إلى العروبة لزيادة فرص نجاحهم أو ارتقائهم في الدولة والمجتمع، فهي ظاهرة تتكرر كثيراً في تلك الحقبة، ثم إن سبي امرأة خالد حصل في سنة ٨٦هـ/٧٠٥م. وأن عبد الله أخا قتيبة أخذها عنده، ثم ردت إلى زوجها في اليوم التالي، فلا بد أن تكون ولادة خالد بن برمك ٨٧هـ/٧٠٦م، بينما تذكر غالبية المصادر أن خالداً ولد في سنة ٩٠هـ/، وهذه الرواية على كل حال تدل على قوة العروبة وأهمية الانتساب إليها، ولكنها لا تعني أن الدولة كانت تتبع سياسة التمايز بين العرب والموالي أو عناصر المجتمع الأخرى.

وقد وصف خالد البرمكي بالجود ولا بأس والعقل، ولم يصل ولده إلى ما امتاز به من صفات، كما وصفه أغلب المؤرخين بالكرم، وفي رواية ما رأيت مثل خالد بن برمك بلاغته أعرابية، وطاعته أعجمية، وآدابه عراقية، وفصاحته شامية، وكتابته سوادية، ورغم أن الرواة قد بالغوا في تصوير خالد بن برمك وأبرزوا قابلياته بسبب سلطته، فإنه لا شك كان يتمتع بقدرات إدارية ومالية لفتت إليه نظر الخليفة أبي العباس.

- دوره السياسي وموقف الخليفة:

كان خالد بن برمك أحد نظراء النقباء، من دعاة بني العباس، حيث ارتبط بالدعوة العباسية منذ بدايتها، واشترك في العمل مع الدعاة العباسيين، يقول ابن عساكر أن خالداً كان متصلاً بمحمد بن علي ثم إبراهيم الإمام بعده، وكان عند ظهور أبي مسلم من رجاله البارزين حيث أرسله لفتح طوس بعد هرب نصر ابن سيار آخر الولاة الأمويين في خراسان من مرو.

وظهر أنه كان إدارياً قديراً وذا خبرة في الأمور المالية، فيذكر الجهشياري أن خالداً كان في عسكر قحطبة بن شبيب يتقلد خراج ما افتتحه قحطبة من الكور، كما أنه تولى تقسيم الغنائم في عسكر قحطبة الطائي، وأنه عهد إليه بتنظيم الخراج في خراسان، إضافة إلى أن قحطبة استفاد من مشورته أثناء الحرب ضد بني أمية، وذلك لما كان يتمتع به خالد من خبرة وتجربة.

إن أول من اتصل بالعباسيين من البرامكة هو خالد بن برمك، فقد اتفق المؤرخون على أنه لما عقدت البيعة لأبي العباس، كان خالد أحد الذين ذهبوا إلى أبي العباس ليبايعوه بالخلافة، فرأى أبو العباس فيه فصاحة توهم سامعه أنه

من العرب فسأله من الرجل؟ قال له: مولاك خالد بن برمك، وقص عليه قصته، وقال: أنا كما قال الكميت بن زيد:

فمـــالي إلا آل أحمـــد شـــــيعة ومالي إلا مشعب الحق مشــــعب

فأعجب به أبو العباس وأقره على ما كان يتقلد من أمر الغنائم، قلده بعـــد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند، وذلك لتميز خالد في الإدارة المالية منذ عـــهد الدعوة العباسية.

وقد اشترك خالد البرمكي أيضاً في الحرب ضد الأمويين بعد الإعـــــلان عن تأسيس الدولة العباسية، فقد كان خالد البرمكي من جملة القواد الذين أرسلوا لمحاربة ابن هبيرة في واسط.

كما تحمل خالد مسؤوليات الوزير رغم أنه لم يسم وزيراً، ويقـــول ابـــن الطقطقي عن خالد: وكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً، حيث رفـــض خالد بعد مصرع أبي سلمة الخلال أن يلقب بالوزير، مع أنه خلفه فـــي مـــهام منصبه، إضافة إلى جميع المهمات الأخرى التي كان يقوم بها.

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن خالد بن برمك تميز بكفايتــــه فـــي المسؤوليات التي تسلمها، بحيث نال ثقة الخليفة أبي العباس وغدا من خاصتـــه، فقد أحله أبو العباس من نفسه محل التكريم، وقد دأب خالد على أن يظهر أمـــام أبي العباس بمظهر الإخلاص والتواضع ولهذا كان أبو العباس شـــديد الرضـــا عنه، ولا تشير الروايات التاريخية إلى سنة تسلمه الوزارة.

لقد وصف خالد بكونه حسن التدبير يصرف الأمور بحكمة وروية، ثم إنه كان حازم الرأي بعيد النظر مخلصاً للخليفة، متفانياً في خدمته، ففي رواية شكا الخليفة إليه يوماً أنه يخشى نفوذ أبي مسلم الخراساني، فإن له في نفوس الجنـــد منزلة عظيمة يهابونه ويخشونه ويأتمرون بأمره وينتهون عند نهيه، فلم تغـــوب

الحيلة عن ذهن خالد بن برمك، ولم يعز عليه أن يستشير على الخليفة برأي فيه تشكيك للجند في أبي مسلم، وحط لمكانه، وخض لشوكته وتوهين لقوته، وبمعنى آخر أشار عليه برأي ظاهره تقوية جيش أبي مسلم وباطنه تحطيم مركزه، وكان رأي خالد أن يأمر أبا مسلم بعرض جيشه، وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان، ففعل أبو مسلم ذلك، من غير أن يفطن للأمر، وجلس للعرض في أول يوم،وأسقط جنداً كثيراً، ليسوا من أهل خراسان، ثم جلس في اليوم الثاني، وفعل ما فعل في اليوم الأول، ثم جلس في اليوم الثالث، فقام إليه رجل فقال: علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث؟ فأجابه أبو مسلم: أسقط من لم يكن من أهل خراسان، قال: فابدأ بنفسك، فإنك من أهل أصبهان، وقد دخلت في أهل خراسان فوثب أبو مسلم عن مجلسه، وقال: هذا أمر أحكم بليل وحسبك من شر سماعه، وفطن لما أريد به، وبلغ الخبر أبا العباس فسره، ومن ذلك يتبين أن أبا مسلم تنبه في اللحظة الأخيرة التي خطط لها خالد لإضعاف ولاء الجند له ومن ثم السعي إلى إسقاطه.

ويظهر أن العلاقة كانت قوية بين أبي العباس وخالد بن برمك، كما أن أبا العباس كان يعتمد على خالد في الأمور الإدارية، نظراً لما تمتع به خالد من فطنة ودهاء وخبرة، ولكن خالد البرمكي لم يتعد نفوذه أو يتجاوز صلاحياته لتطغي على صلاحيات الخليفة أبي العباس أو تتعارض معها.

ثانياً: خيانة أبي سلمة الخلال

هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني، مولى لقبيلة السبيع بن همدان، أو لبني الحارث بن كعب من العراق، وقد اختلفت الروايات بشأن لقبه، هناك من يقول أنه يعود إلى خلل السيوف ومنهم من يقول أنه ينسب إلى حارة الخلاليين بالكوفة؛ لأنه كان يسكن فيها.

١- دوره السياسي:

كان لأبي سلمة دور مهم في الدعوة العباسية، وقد جاءت علاقته بالدعوة عن طريق كبير دعاة العباسيين بالكوفة بكير بن ماهان، حيث كان أبو سلمة نسيباً له (أي زوج ابنته)، فعندما مرض بكير وحضرته الوفاة أوصى أن يكون أبو سلمة نائباً على ما كان يقوم به من أمر الدعوة، وكان ذلك سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م، حيث كتب لإبراهيم بن محمد الملقب (بالإمام) زعيم الدعوة بذلك وزكاه له وأثنى عليه، فوافق إبراهيم على ذلك، وكتب إلى أبي سلمة يعلمه ويأمره بما يريد من أمر الدعوة وكذلك أنبأ شيعته بخراسان بأنه قد أسند أمرهم إليه، فمضى أبو سلمة إلى خراسان فصدقوه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع لديهم من نفقات الشيعة وخمس الموالي، ومن هنا بدأت رحلته مع الدعوة، وبدأ نشاطه السياسي يزداد من خلال إنفاقه الكثير من أمواله الخاصة، من أجل الدعوة العباسية ورجالها، وتنقله المستمر بين الكوفة وخراسان، وذلك من أجل الدعوة لبيعة إبراهيم الإمام، والإشراف على تطورات الدعوة العباسية، يقول ابن خلكان: كان أبو سلمة ذا يسار ويعالج الصرف بالكوفة وأنفق أموالاً كثيرة في إقامة دولة بني العباس وسار إلى خراسان وكان يدعو لبيعة إبراهيم الإمام. وقد بقي نشاطه في خراسان إلى سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، ثم سلم الأمر إلى أبي مسلم الخراساني بناء على أمر زعيم الدعوة إبراهيم الإمام.

وعندما انتصرت الدعوة العباسية، ودخل الحسن وحميد ابنا قحطبة بن شبيب على رأس الجيش العباسي مدينة الكوفة يوم ١١محرم سنة ١٣٢هـ/ أيلول ٧٤٩م بعد هزيمة ابن هبيرة، أظهروا أبا سلمة وسلموا إليه الرياسة وسموه وزير آل محمد، وأظهر الإمامة الهاشمية، ولم يسم الخليفة، وقد عسكر أبو سلمة بحمام أعين، وأقام بها.

٢- خيانة الخلال للدولة العباسية:

ذكرنا سابقاً إقدام أبي سلمة الخلال على كتم أمر أبي العباس وتأخير إعلان بيعته بين الناس، وكيف إن قادة الدعوة العباسية ارتابوا من تصرفاته، حيث حاول في الوقت نفسه تحويل مسار الثورة إلى اتجاه مضاد، ويدل على ذلك قوله: أظن قد مات الإمام الذي كان يؤتمر له، ويفهم من ذلك أنه عزم على نقض ولائه للعباسيين.

لقد خان أبو سلمة الخلال الثورة العباسية، وذلك حين أراد أن يبايع للعلويين حيث راسل ثلاث شخصيات من كبار العلويين عارضاً الخلافة لأحد منهم، وهم الإمام جعفر بن محمد (الصادق)، وعبد الله بن الحسن المحض، وعمر بن علي بن الحسن، وكان أبو سلمة الخلال قد أمر رسوله بأن يقابل أولاً جعفر الصادق، ويعطيه الرسالة الخاصة به فإن قبلها أعدم الرسالتين الأخريين.. وإلا ذهب إلى الثاني فالثالث.

أما جعفر الصادق فإنه رفض ذلك العرض رفضاً قاطعاً، حيث قال وما أنا وأبو سلمة هو شيعة لغيري، وقام بإحراق الرسالة فور وصولها إليه وتمثل بقول الكميت بن زيد:

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤنا ويا حطباً في غير حبلك تحطب

أما عبد الله بن الحسن فقد قبل العرض، ولكنه تردد قليلاً، حيث توجه إلى جعفر بمن محمد (الصادق) ليأخذ رأيه، فحذره جعفر من عاقبة ذلك، وقال له: ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم! هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك. ثم أخبره أن أبا سلمة مخدوع مقتول، وأن هذا الأمر لا يتم لكم فإن أبا هاشم أخبرهم بأنه سيكون في ولد العباس، وأن هذه الدولة ما هي لأحد من

ولد أبي طالب، وفي هذه الروايات دعاية عباسية واضحة، ولكنها إن صحت فإنها تدل على معرفة جعفر الصادق بنشاطات العباسيين السرية خاصة بعد اجتماع بني هاشم في الأبواء.

وفي رواية لليعقوبي أن عبد الله بن الحسن ذهب إلى الإمام جعفر الصادق وأخبره بأنه سيكلف ابنه للقيام بالأمر، ولكن الإمام جعفر نهاه عن ذلك، وقال له: "أيها الشيخ لا تسفك دم ابنك، فإني أخاف أن يكون المقتول بأحجار الزيت". ولكن عبد الله بن الحسن لم يقتنع بما ذكره الإمام جعفر الصادق، وعد ذلك من ضروب الحسد، ثم اجتمع بأهل بيته وقال لهم: أنا شيخ كبير وابني محمد أولى بهذا الأمر فأوصاهم بمبايعة ابنه والدعوة له، أما المرشح الثالث عمر بن علي بن الحسن، فلم يذهب الرسول إليه بسبب الرد المقنع نوعاً ما والذي حصل عليه من عبد الله بن الحسن.

ولابد من الإشارة أن رسول أبي سلمة حمل موقف عبد الله بن الحسن إلى أبي سلمة، ولكن بعد فوات الأوان فقد كان التنظيم العباسي قوياً، إذ أن الدعاة اكتشفوا مكان اختفاء أبي العباس وأعلنوا بيعته بين الناس، مما اضطر الخلال إلى الاعتراف بالأمر الواقع والبيعة لأبي العباس، وقد اعتذر الخلال من أبي العباس -كما ذكرنا سابقاً- وقبل اعتذاره.

وبهذا فشلت محاولة الخلال، ولقد اختلف المؤرخون الرواد فيما بينهم في تفسير هذه المحاولة فمنهم من يقول أنه أراد أن يجعل الأمر شورى بين بني هاشم من عباسيين وعلويين، ولكنه عدل عن ذلك وقال: أخاف أن لا يتفقوا.

وتؤكد روايات تاريخية أخرى أن أبا سلمة كان عازماً على نقل الخلافة إلى العلويين، وخطط لذلك بأن أخر إظهار الخليفة العباسي أو البيعة له، ويذكر البلاذري: أن أبا سلمة أراد أن يعد لها إلى ولد فاطمة. ويعضد هذا الرأي ما

قاله اليعقوبي: أن أبا سلمة إنما أخفى أبا العباس وأهل بيته ودبر أن يصير الأمر إلى بني علي بن أبي طالب.

ويتفق عدد من المؤرخين أن الخلال أراد نقل الخلافة إلى العلويين عندما بلغه نبأ مقتل إبراهيم الإمام، فيقول الجهشياري: وكان لما صح عنده موت إبراهيم الإمام لقي رجالاً من شيعة علي ﷺ فناظرهم في نقل الأمر إلى ولد علي، وهذا يعني أن ولاءه كان لإبراهيم الإمام بالذات.

يمكن القول أن السبب الرئيسي الذي دفع الخلال إلى الانحراف هو طموحه السياسي ورغبته في الاحتفاظ بموقع قوي في الدولة الجديدة جعله يخطط لترشيح خليفة علوي ضعيف يختاره بنفسه، فيكون أبو سلمة المدبر الفعلي للدولة، وليس للخليفة غير الاسم فقط.

ويرى الدكتور فاروق عمر أن ولاء الخلال كان لإبراهيم الإمام بالذات وعلاقته كانت وطيدة بشخصه، ولهذا لما سمع بمقتله على يد مروان آخر الخلفاء الأمويين، أراد أن يجعل الخلافة علوية إذ أنه أدرك أن تسلم أبي العباس للسلطة ربما سيحد من نفوذه القوي في العراق، والذي أخذ يتعاظم بعد نجاح الدعوة العباسية، ويبدو أنه أراد بذلك العمل أن يكون صاحب فضل على العلويين الذين كانوا يرون أن الخلافة من حقهم، وأن العباسيين سلبوهم ذلك الحق.

ويرى مؤرخ حديث آخر أن أبا سلمة في مؤامرته هذه يدخل في عداد الشعوبيين، فقد كانت عملية الخلال هذه مؤامرة أراد بها إيقاع الفتنة بين العلويين والعباسيين في الوقت الذي كانت فيه جيوش العباسيين لا تزال في حرب مع جيوش الأمويين فتتمكن القوات الفارسية من الانقضاض على الجيوش العربية المتنازعة وتقضي عليها فيعود الملك للفرس، ويؤيد هذا الرأي

الدكتور فاروق عمر حيث يعد خيانة الخلال أول مؤامرة فارسية تواجه الخلافة العباسية وهي لم تعلن بعد وهذا ما يؤكد أن أبا سلمة الخلال لم يستطع التخلص من العقدة الفارسية والتي ظهرت بصورة واضحة ومكشوفة في تصرفه هذا.

أما عن أسباب فشل محاولة الخلال، فيمكن القول أن هذه المحاولة التي عدها بعضهم دسيسة لجس النبض أولاً، ولتردد الشخصيات العلوية بالمغامرة والجرأة في الوقت المناسب التي تتطلبها السياسة ثانياً ولقوة الدعاة العباسيين وجهودهم في التحري عن الخليفة ثالثاً، إضافة إلى ذلك فإن العلويين لم يكن لهم من قوة التنظيم وكثرة الأنصار ما يمهد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة.

إن الخليفة أبا العباس لم يقض على أبي سلمة حال كشف خيانته ولعل ذلك يعود إلى أن أبا العباس كان قد أيقن أنه لم يكن من الممكن القضاء على الخلال في حينه لسعة نفوذه وسطوته السياسية؛ لذلك أبقاه وزيراً حتى تحين الفرصة المناسبة للتخلص منه، كما أنه كان يتمتع بهيبة كبيرة بين أنصار الدعوة العباسية.

لقد كانت مدة انفراد الخلال بالسلطة الفعلية إلى أن بويع أبو العباس شهرين ونصف، قام خلالها بإجراءات زادت من استياء أبي العباس عليه، فقد استأثر أبو سلمة بالسلطة، وقام بتعيين القواد والعمال دون الرجوع إلى الخليفة، فعين أبا الجهم على ديوان الجند وأبا غانم عبد الحميد الربعي على الشرطة وعبيد الله بن بسام على الحرس، وعمروية الزيات على حجابته، والمغيرة بن الريان على الخراج، كما أنه فرق عماله على السهل والجبل، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ وترد إليه وبعث إلى فارس عمالاً من قبله.

إضافة إلى ذلك فإن منصب الخلال بصفته وزيراً لآل محمد لم يكن مديناً به لأبي العباس مما حدا بالخلال إلى الشعور بأنه ليس للخلافة أي فضل في

تبوئه هذا المنصب مما جعله يشعر بالاعتداد بنفسه، قال ابن قتيبة: وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين ويظهر من هذا النص أيضاً أن أبا سلمة الخلال كان يفتخر أمام الخليفة بقدرته وقوته ونفوذه، كما أنه كان ينفذ الأمور بمفرده دون مشاورة أبي العباس، ففي رواية أنه كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة، كل هذه الأمور جعلت الخليفة يخاف من نفوذه الذي أصبح يتعاظم يوماً بعد يوم، فكان من اللازم قتله والتخلص من خطره.

٣- مقتل الخلال:

بالرغم من أن الخليفة أبا العباس قبل اعتذار الخلال، لكنه في حقيقة الأمر لم يغفر له ما فعله كما أثبتت الأحداث فيما بعد، فقد أمهله دون أن يهمله.

تؤكد روايات تاريخية أن أبا مسلم الخراساني هو الذي أشار على الخليفة بضرورة التخلص من الخلال، فيشير المسعودي أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس كتاباً يشير فيه عليه بقتل أبي سلمة، ويقول فيه: قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل، وكان رد أبي العباس في حينه: ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي لا سيما مثل أبي سلمة، وهو صاحب الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح إمامه، وجاهد عدوه.

لقد كان أبو العباس بارعاً في رده على أبي مسلم، ولعله يريد أن يعرف أبا مسلم أنه ليس من شأنه أن ينتقم ممن أخلص للدعوة العباسية وبذل جهده للقيام بنصرتها، وأنفق ثروته العريضة من أجل الدعوة ونجاحها، في وقت كان فيه العباسيون في قلة من الأنصار والأعوان، ويبدو أن الخليفة برده هذا لم ينس أن أبا سلمة كان له أنصار يغضبون له، وقد يثورون من أجله.

ويشير المسعودي إلى أن أبا مسلم عندما رأى أن أبا العباس لم يستجب لطلبه، كتب إلى أبي جعفر أخي أبي العباس، وإلى داود بن علي عمه، وطلب منهما أن يقابلا أبا العباس وأن يشيروا عليه بضرورة التخلص من أبي سلمة؛ لأنه أصبح خطراً على الخلافة والدولة معاً، أما أبو العباس فإنه رفض ذلك بقوله: ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه، وصالح أيامه، بزلة كانت فيه، وهي خطرة من خطرات الشيطان وغفلة من غفلات الإنسان. ويبدو أن الخليفة أراد التريث في قتل أبي سلمة، أما رأي أبي جعفر المنصور وعمه داود بن علي فكان الإسراع بتنفيذ الأمر، إذ أشارا على أبي العباس بذلك، ولكنه رفض الطلب معللاً رفضه بأنه قد يكون ما أشار به أبو مسلم خدعة سياسية، القصد منها تأليب قلوب الناس عليه، وأعلن الخليفة لأصحابه بأنه يرغب أن يكون قتل أبي سلمة على يد أبي مسلم نفسه، ويؤيد هذا ما ورد من قول اليعقوبي، وكره أبو العباس أن يوحش أبا مسلم بقتله أو يوجد سبيلاً إلى الاحتجاج به عليه.

كما عزم الخليفة على اتخاذ خطوة سياسة بارعة الهدف، فقد أراد أن يستوثق من أن أبا مسلم لم يكن له دخل فيما فعله أبو سلمة، ففي رواية تاريخية أن جماعة كانوا يسمرون عند الخليفة، وقد ذكروا أموراً كثيرة، منها أمر انحراف الخلال، فقال أحدهم: "ما يدريكم لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم". فلم يتحكم أحد من الحاضرين، فقال الخليفة: لئن كان هذا عن رأي أبي مسلم أنا ليعرض بلاء إلا أن يدفعه الله عنا". وقد شاور الخليفة أخاه الأمير أبا جعفر عبد الله بن محمد، فقال له: ما ترى؟ فقال أبو جعفر: الرأي رأيك، فقال أبو العباس: "ليس منا أحد أخص بأبي مسلم منك فاخرج إليه حتى تعلم ما رأيه، فليس يخفى عليك، فلو قد لقيته، فإن كان عن رأيه أخذنا لأنفسنا، وإن لم

يكن عن رأيه طابت أنفسنا". ويظهر من ذلك أن أبا العباس لم يجد أفضل من أخيه أبي جعفر ليوجه لحل هذه المشكلة، فاستدعاه وشاوره في الأمر.

وفي رواية للبلاذري تشير إلى أن أبا جعفر المنصور قال: دعاني أبو العباس فذاكرني أمر أبي سلمة، فقال: ما أدري لعل الذي كان منه عن رأي أبي مسلم ومالها غيرك، أخرج إلى أبي مسلم مهنئاً بما وهب الله لنا وينجح سعيه فيما قام به من أمرنا وخذ البيعة عليه وأعلمه بما كان من أمر أبي سلمة واعرف رأيه، وعرفه الذي نحن عليه من شكره ومعرفة حقه، من ذلك يظهر أن أبا العباس كان قد سند لأخيه أبي جعفر مهمتين الأولى أخذ البيعة على أبي مسلم ومن معه، والثانية لقاءه والتعرف على رأيه في قضية انحراف أبي سلمة الخلال وذلك ليضمن ولاءه أولاً، وليكشف في كوامن نفسه وليتعرف على موقفه ثانياً.

وحين استعد أبو جعفر للسفر إلى خراسان أرسل معه أبو العباس كتاباً لأبي مسلم جاء فيه: "أنه لم يزل عن رأي أمير المؤمنين وأهل بيته إلا إحسان إلى المحسن والتجاوز عن المسيء، ما لم يفسد دينار وأن أمير المؤمنين قد وهب جرم حفص بن سليمان لك، وترك إساءة إحسانك إن أحببت ذلك". ويبدو أن باطن الكتاب كان حث أبي مسلم على قتل أبي سلمة، وفي رواية أخرى أن أبا العباس شرح في الكتاب الذي أرسله إلى أبي مسلم ما جرى من أبي سلمة من سوء التصرف، ومن محاولته تأخير البيعة لأبي العباس وذلك من أجل صرف الخلافة للعلويين، ويقول البلاذري: "كتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه الذي كان من تدبيره في صرف الأمر عنه ونكث بيعة الإمام".

وفي أثناء رحلة أبي جعفر إلى خراسان، وجد أنه كلما مر بمدينة أحسن حاكم تلك المدينة استقباله، وجهزه سريعاً وودعه ليوصل رحلته إلى أبي مسلم

فازدادت شكوكه واشتد به الخوف ورأى أنه من الواجب أخذ الحيطة والحذر، فحين وصل أبو جعفر إلى الري طلب منه واليها أن لا يبقى في المدينة بأمر أبي مسلم وعليه أن يسرع للوصول إلى مرو، ولما وصل نيسابور، طلب منه واليها نفس الطلب مبرراً ذلك بأنه مكان غير آمن لكثرة الخوارج في الإقليم، فلما كان على نحو فرسخين من مدينة مرو، حيث يقيم أبو مسلم خرج أبو مسلم للقائه ومعه الكثير من أهل خراسان، ويقول المنصور: فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ، حتى قبل يدي، فقلت: أركب، فركب فدخل مرو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ويبدو من ذلك أن المنصور عاوده الخوف والحذر مرة أخرى، وفي اليوم الرابع ذهب أبو مسلم إلى الدار التي يقيم فيها أبو جعفر، وسأله: ما أقدمك؟ فأخبره، فقال: فعلها أبو سلمة أنا أكفيكموه.

ويشير ابن أعثم الكوفي إلى المحاورة التي جرت بين أبي جعفر وأبي مسلم، فيقول: "قال أبو جعفر لأبي مسلم: إنك اليوم منا بالمكان الذي علمت وإنا نشكو إليك أبا سلمة حفص بن سليمان فإنه قد شمخ بأنفه على أمير المؤمنين حتى أنه ما بعد الخلافة بشيء وأنه يعترض علينا اعتراضاً يجل عن الوصف، ولا والله ما يمنع أمير المؤمنين من الإساءة والوقوف عليه إلا عصبتك.. فتغير وجه أبي مسلم عند سماعه لهذا الكلام ثم قال: ما أنا أذنت لأمير المؤمنين، ولك فيه فاصنعا ما أحببتما فإنما أنا عبد من عبيد أمير المؤمنين، وأهل خراسان سامعون عبيد السمع والطاعة.

ومن الجدير بالذكر أن أبا مسلم لما وصله كتاب الخليفة أبي العباس أجابه بكتاب يشير عليه فيه بقتل أبي سلمة، وقد جاء في الكتاب: "إن كان رأيك منه ريب فاضرب عنقه".

ونتيجة لما أشار به أبو مسلم على أبي العباس، نجد أم عم الخليفة داود ابن علي قد تراجع عن موقفه السابق، وقام بتوجيه النصح والإرشاد إلى الخليفة أبي العباس حيث قال له: "لا تتول قتله فتخبث نفس أبي مسلم ويحتج بذلك عليك، ولكن أكتب إليه فليوجه من يقتله". ويبدو أن الخليفة أبا العباس سمع نصيحة عمه له وأخذ بها، ففي رواية للبلاذري تشير إلى أن أبا العباس كتب لأبي مسلم: "أنت أولى بالحكم فيه فابعث إليه من يقتله". ونتيجة لذلك وجه أبو مسلم مرار بن أنس الضبي لقتل أبي سلمة. وقد وصل مرار قبل ثلاثة أيام من قتله لأبي سلمة. أما أبو العباس فقد اتخذ خلال هذه المدة خطوة بارعة، حيث أرسل مناديا" ينادي بالكوفة: "إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة". ويبدو أن أبا العباس أراد أن يظهر للناس رضاه عن أبي سلمة واطمئنانه إليه حتى لا يتهم بقتله حين يقتل، وحتى لا يغضب أنصاره فيتخذوا من قتله سبباً لوقوفهم من أبي العباس موقفاً عدائياً في وقت هو في أشد الحاجة إلى الاستقرار، ثم دعاه قبل مقتله بيوم، فخلع عليه، وكان يسمر عنده، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله، وقد كمن له مرار بن أنس على طريقه، وقد كان من مرار جماعة من أصحابه فقتلوه، وكان ذلك في رجب سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م.

ثالثاً: مناورات أبي مسلم الخراساني لتوسيع سلطته

لقد اختلفت الروايات التاريخية فيما بينها حول أصل ومنشأ أبي مسلم الخراساني فعلى الرغم من الدور الذي قام به أبو مسلم في الدعوة العباسية إلا أن هذه الشخصية ظلت غامضة، أما أصله فقد اختلفت المصادر فيما بينها حول ما إذا كان عبد أو مولى ولكن أغلبها يشير إلى أنه من أصل فارسي، وهو الأرجح . فقد ولد في قرية قرب أصبهان من أب فارسي وأم جارية فارسية،

وأن بعض المصادر تحدد تاريخ مولده في سنة ١٠٠هـ/٧١٨م، وقيل سنة ١٠١هـ/٧١٩م.

انتقل مع أمه من أصبهان إلى قرية (خطرنية) وهي قرية من قرى الكوفة في أول شبابه، حيث صادفت أن سجن بعض العجليين في سجن الكوفة بتهمة ما، وعمل على خدمة آل العجلي في السجن، وهناك التقى لأول مرة مجموعة من نقباء بني العباس عندما زاروا آل العجلي في السجن فأعجب به الدعاة العباسيون واسترعى انتباههم لما رأوا فيه من كفاية وأدب وفطنة، وقد مال هو إليهم أيضاً فكسبوه إلى دعوتهم. وأخذوه معهم وأهدوه إلى زعيم الدعوة العباسية إبراهيم الإمام، فأعجب بذكائه وقدراته فأصبح مولى له فاستمر أبو مسلم في معية إبراهيم وبدت مقدرته حتى أن إبراهيم كان يقول عنه هذا عضلة من العضل.

وفي رواية أن إبراهيم الإمام هو الذي سماه بعبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم، أما عن نسبه أبي مسلم الخراساني فقد اختلف فيه أيضاً فقيل من أصبهان وقيل من خراسان، وقيل من العرب، وقد ادعى هو أنه عربي ورتب لنفسه نسباً، وذلك عندما قوي أمره ادعى أنه ابن سليط بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أي نسب نفسه إلى آل البيت العباسي، ولكن ادعاءه هذا جاء متأخراً.

ويرى العبادي أن أبا مسلم أصطنع لنفسه هذا الأصل العربي لغرض خطير في نفسه، فقد صار يملك من القوة والنفوذ في خراسان ما يمكنه من تحقيق أطماعه في السلطة، ولعله يستطيع أن يتبوأ أعلى المناصب ولكن كانت تنقصه الشرعية في الحكم لتحقيق مآربه، إذ لا يتأتى ذلك إلا أن يكون من آل البيت.

لقد لقب أبو مسلم نفسه بالخراساني، ويبدو أن هذا تدبير من إبراهيم الإمام، حيث سماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه (أبو مسلم) لدلالة على إسلامية الدعوة، ويذكر أن أبا مسلم لقب نفسه بالخراساني نسبة إلى خراسان كلها، ولم ينسب نفسه إلى قبيلة أو عشيرة أو مدينة كما هو الأسلوب الجاري آنذاك، وذلك أن الثورة مثل فيها أبو مسلم الإمام إبراهيم هي ثورة إسلامية لكل أهل خراسان عربها ومواليها.

١- دورة السياسي وعلاقته بالخليفة أبي العباس:

كان أول اتصال لأبي مسلم بالدعوة العباسية حين أصبح مولى لإبراهيم الإمام وبدأ يحمل كتبه إلى كبير الدعاة العباسيين، ماهان بن كثير في خراسان، وقد كانت هذه المرحلة الأولى.

أما عن المرحلة الثانية فقد برز فيها أبو مسلم قائداً عسكرياً، وذلك عندما قام إبراهيم الإمام بإرساله ممثلاً عنه إلى الشيعة العباسية بخراسان، وأوصى شيوخ الدعوة هناك به خيراً، فتمكن بالتعاون مع النقباء العرب من السيطرة على الوضع في وقت قصير وقلب موازين القوى في المنطقة لصالح الثورة العباسية.

إن أبا مسلم الخراساني كان من جملة رجالات الدعوة العباسية الذين اعتمد عليهم الخليفة أبو العباس في توطيد حكمه، ولم ينكر الخليفة أبو العباس الدور الذي قام به أبو مسلم في الدعوة العباسية، وفي تأسيس الدولة العباسية، فقد قربه إليه وأعطاه ثقته، ويبدو وأن من الأسباب التي كانت وراء ذلك هو اعتراف أبي العباس بفضل أبي مسلم الخراساني عندما استعان به للتخلص من

أبي سلمة الخلال الذي حاول قبل بيعة أبي العباس بالخلافة نقل الخلافة إلى العلويين.

والسبب الآخر والأهم هو النفوذ الكبير الذي تمتع به أبو مسلم في خراسان قبيل بيعة أبي العباس بالخلافة وبعدها، فقد التف حوله الكثير من أهل خراسان فصارت له سلطة وكلمة مطاعة بينهم، فأصبح أبو العباس يحسب له ألف حساب إذ أنه بقي الرجل القوي الوحيد لاسيما بعد أن تخلص أبو مسلم من منافسه القوي أبي سلمة الخلال، ومنافسيه الأقوياء من العرب في خراسان وهم كثرة، وبهذا الصدد تشير الروايات أن أبا مسلم كان معتداً بشجاعته وقوته.

لقد أصبح أبو مسلم الخراساني أقوى شخصية سياسية في خراسان بل في بلاد فارس، وحين عينه الخليفة أبو العباس والياً على خراسان كان هذا التعيين بمثابة اعتراف بأمر واقع، فيلاحظ أن أبا العباس قام بتوزيع الولايات المختلفة على أقاربه، ولم يول أحداً غيرهم سوى أبي مسلم الخراساني فقد ولاه خراسان، وهذا طبعاً يفسر المركز القوي الذي أصبح فيه أبو مسلم.

ويرى الجومرد أن أبا مسلم شعر منذ بداية الأمر بضعف الخليفة أبي العباس اتجاه قوته، وبضخامة شخصيته عنده، فراح بدهائه ومكره يندفع نحو إتمام ما كان يحلم به، من أن خراسان داره وفي حوزته، فقد اغرق أبو مسلم عاصمة الخلافة بجنده وأحاط الخليفة بحرس من عنده، وملأ قصره بالعيون والأرصاد حتى بات أبو العباس يشعر أنه يستظل بسلطان أبي مسلم، وأنه لابد من استشارته بكل ما يصنع، ومشى على هذه السياسة حقبة من خلافته.

لقد كان أخو الخليفة أبو جعفر عبد الله بن محمد غير راض عن تصرفات أبي مسلم الخراساني، حيث أن أبا جعفر كان أكثر العباسيين حذراً من أبي مسلم وتوجساً منه، وأن أسباب ذلك تعود قبل كل شيء إلى خوفه من أن

يتمرد عليهم ويخرج عن طاعتهم، وفي رواية أن أبا جعفر سأل سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي عن رأيه في أبي مسلم؟ فأجاب سلم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٥] . فقال أبو جعفر: "حسبك الله أبا أمية، لقد أودعتها إذناً واعية".

لقد كان أبو مسلم يتدخل في شؤون الدولة، إذ أن أغلب المؤرخين يتفقون على أن أبا الجهم بن عطية الباهلي كان عيناً لأبي مسلم في البلاط ينقل إليه جميع ما يجري، يقول ابن قتيبة: "وكان أبو الجهم بن عطية عين أبي مسلم على أبي العباس فكان يكتب إليه بالأخبار، وكان أبو العباس لا يقطع أمراً دون رأي أبي مسلم". ويؤيده في ذلك الطبري، وأشار اليعقوبي إلى ذلك بقوله: "وكان الغالب عليه أبو جهم بن عطية". أما الجهشياري فيقول: "وكان أبو الجهم بن عطية ينوب عن أبي مسلم يحضره أبو العباس ويخلفه". ومن هذه الروايات يظهر أن أبا الجهم كان ينقل جميع ما يجري في قصر الخلافة إلى أبي مسلم.

وتبدو قوة أبي مسلم في أنه لجأ إلى التخلص من الرجال الكبار، حتى تبقى له السيطرة وحده، فقد تخلص أولاً من أبي سلمة الخلال الذي كان أول وزير لأبي العباس، ثم أشار على أبي العباس بقتل يزيد بن عمر بن هبيرة، فقد كتب إلى أبي العباس يقول: "إنه قل طريق سهل تلقى فيه حجارة إلا ضر ذلك بأهله، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة".

٢- توسع سلطة أبي مسلم ونفوذه في خراسان:

لقد كان على أبي مسلم الخراساني أن يثمن الثقة التي وضعها فيه الخليفة، ولكنه على العكس استغل ذلك وبدأت العقدة الفارسية تظهر في تصرفاته

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

وسياساته اتجاه رؤوس العرب وكبار الدعوة في خراسان أولاً، واتجاه الخلافة العباسية في بغداد ثانياً.

فعندما عينه الخليفة أبو العباس على خراسان عمل على التخلص من جميع منافسيه من الدعاة وشيوخ القبائل ومنهم سليمان بن كثير الخزاعي، الذي كان وراء كل عمل مثمر قامت به المنظمة السرية الهاشمية في خراسان، وقد كان الصراع قد نشب بينه وبين أبي مسلم قديماً ولذلك كان لابد أن تظهر الحزازات مرة ثانية بعد نجاح الثورة حيث أن ولاية خراسان لا تحتمل بقاء الاثنين معاً.

لقد برر أبو مسلم قتله سليمان بن كثير بأنه كان يشك في نوايا سليمان وبتآمره ضد السلطة، وأنه قتله مستنداً بذلك على أوامر إبراهيم الإمام له، إذ قال له (أي لسليمان): أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، قال: فإني قد اتهمتك، قال: ناشدك الله، قال: لا تنشدني الله، فأنت منطوٍ على غش الإمام، ويبدو من ذلك أن أبا مسلم اتخذ من وصية إبراهيم الإمام له ذريعة للتخلص من منافسيه.

وفي رواية أخرى للبلاذري، أن سليمان بن كثير اتصل بأبي جعفر عبد الله بن محمد حين قدومه خراسان واتفق معه على التخلص من أبي مسلم، إذ قال سليمان لأبي جعفر: "إنما كنا نحب إتمام أمركم وقد تم بحمد الله ونعته، فإذا شئتم قلبناها عليه".

ويمكن القول أنه هناك احتمالين حول سبب مقتل سليمان بن كثير: الأول يعود إلى العداوة الدفينة بين سليمان وأبي مسلم وتذمر سليمان من نفوذ أبي مسلم إضافة إلى أن سليمان كان ينافس أبا مسلم في الزعامة على خراسان لقدمه في الدعوة ولسلطته على القبائل اليمانية والربعية خاصة، والثاني ربما

يعود إلى أن سليمان كان قد استصغر من شأن أبي مسلم لما وفد إلى خراسان، وذلك حين اجتمع بالكفية، إذ قال لهم: حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا (يعني أبا مسلم) فأجرى فيه الماء). فوصل الخبر إلى أبي مسلم، وقد صادف أن شهد عليه نفر من الناس، بأنه أخذ عنقود عنب أسود وقال: "اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسقني دمه". وهذا ما يؤكد تنافس الرجلين، وإن أبا مسلم أراد أن يكون الرجل الوحيد القوي في خراسان الذي ليس له منافس. أما الدكتور فاروق عمر فيرى بأنه ربما انتهز سليمان فرصة زيارة أبي جعفر فتشاور معه في أمر التخلص من أبي سليمان، ثم أنه ربما عرف أبو جعفر من سليمان مدى النفوذ والسلطان الذي أصبح فيه أبو مسلم وقتله لعدد من الدعاة العباسيين فحاولا أن يتداركا الأمر حرصاً منهم على سلامة الخلافة العباسية.

ولابد من الإشارة إلى أن أبا مسلم قتل سليمان الخزاعي دون أخذ موافقة الخليفة أبي العباس والأمير أبي جعفر الذي كان موجوداً في خراسان مما أدى إلى غضبه الشديد عليه، ولكنه كتم ذلك، وهذا يدل على اعتداد أبي مسلم بمركزه وقوة نفوذه بحيث لم يعد يهتم برأي الخليفة أبي العباس بالعراق، فقد اكتفى بأن كتب إلى الخليفة يعلمه بقتله سليمان فلم يجبه على كتابه. مما يدل على غضب الخليفة أبي العباس وعدم رضاه عن أبي مسلم.

٣- الاضطرابات السياسية في خراسان وموقف أبي مسلم:

لقد واجه أبو مسلم حركات عديدة بعضها كانت من تدبير السلطة المركزية والخليفة للقضاء عليه والتخلص من نفوذه المتعاظم، وبعضها كانت تمردات ضد سياسته التعسفية أو ضد الخلافة ككل.

ومن هذه التمردات تمرد شريك بن شيخ المهري عام ١٣٣هـ/٧٥٠م. وهو أحد الدعاة العباسيين، وقد بدأ حركته في مدينة بخارى – أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها – ناقماً على سياسة أبي مسلم الخراساني القائمة على البطش والشدة والعنف، رافعاً شعار: "ما على هذا اتبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق". وقد انضم إليه عدد كبير من العناصر المستاءة، ولهذا أرسل أبو مسلم الخراساني القائد الخراساني زياد بن صالح لقتال شريك فتمكن من القضاء على حركته وقتله.

كما أعلن منصور بن جمهور حركته وعصيانه على الخليفة أبي العباس وممثله أبي مسلم الخراساني، وذلك لأن أبا مسلم قام بإرسال والياً على السند، على الرغم من أن الخليفة أبا العباس كان قد عين منصور بن جمهور والياً عليها، لذلك أرسل الخليفة العباسي سنة ١٣٤هـ/٧٥١م القائد موسى بن كعب التميمي إلى السند في ١٢ ألف مقاتل، لقتال منصور بن جمهور، فاستطاع أن يقضي على حركة منصور الذي انهزم هو وقسم من أتباعه فمات عطشاً في الصحراء.

لقد استغل الخليفة أبو العباس القائد الخراساني زياد بن صالح الخزاعي، الذي ارتفع نجمه بعد قضائه على حركة شريك المهري للعمل ضد أبي مسلم، وقد شجعه على ذلك التنافس الذي بدأ يدب بين أبي مسلم وزياد.

لذلك يمكن القول أن تمرد زياد بن صالح على أبي مسلم أمر قد دبر في البلاط العباسي لاغتيال أبي مسلم، وذلك حين أرسل الخليفة أبو العباس سباع بن النعمان الأزدي، وأمره باغتيال أبي مسلم إذا سنحت له الفرصة، وفي الوقت نفسه حرض الخليفة زياد بن صالح الخزاعي على إعلان حركته ضد أبي

مسلم، وأرسل له عهده بولاية ما وراء النهر بيد سباع الأزدي فامتثل زياد لهذا الأمر.

وفي سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م تمرد زياد بن صالح الخزاعي في بلاد ما وراء النهر ضد أبي مسلم. ورفع شعار: "إنما بايعنا على إقامة العدل وإحياء السنن وهذا جائر ظالم يسير سير الجبابرة، وإنه مخالف له قد أفسد عليه قلوب أهل خراسان".

ولكن حركته هذه فشلت بعد أن انحاز جماعة من قواده إلى أبي مسلم نتيجة لذلك هرب زياد الخزاعي حتى وصل إلى دهقان بخارى، الذي استطاع أن يقتل زياداً، وقد سلم رأسه إلى أبي مسلم، ولما علم الخليفة بفشل هذه المحاولة، أرسل إلى أبي مسلم مهنئاً بانتصاره على المتمردين ونجاحه في تثبيت نفوذ السلطان العباسي.

وعندما قتل أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي، تمرد عيسى بن ماهان، الذي كان من الأصدقاء المخلصين لزياد الخزاعي، ورفع صوته أمام الناس قائلاً: "إن أمير المؤمنين قد أعظم قتل زياد، وذم أبا مسلم وأنكر فعله وقال: إنه قتل رجلاً ذا قدم وبلاء حسن في دولتنا وبرئ منه، وقد عهد إلي بعهدي على خراسان.

ويظهر من ذلك أن عيسى بن ماهان كان يهدف من قوله تحريض النلس على أبي مسلم، ثم ادعى أمام الناس أن الخليفة أبا العباس عينه والياً على خراسان بدل أبي مسلم، لذلك تمكن أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلي وبأمر من أبي مسلم أن يقتل عيسى بن ماهان.

وعندما سمع الخليفة أبو العباس بخبر مقتل عيسى بن ماهان استعظم ذلك العمل، وطلب من أبي مسلم قتل خالد الذهلي، ولكن أبا مسلم أرسل جواباً للخليفة يدل على فطنة وذكاء ودهاء، فلم يتخذ أي إجراء بحق خالد الذهلي.

لقد خرج أبو مسلم الخراساني من الأزمة مع الخليفة أبي العباس سلمياً ونجح في قهر جميع منافسين له داخل خراسان، أو الذين أرسلتهم الخلافة للحد من نفوذه والتخلص منه، ولهذا فقد انفسح له المجال لفرض سيطرته ونفوذه على خراسان بأجمعها، وأصبح الشخص الوحيد القوي في خراسان والذي أصبح فيما بعد شوكة في عين الخلافة العباسية.

٤- تدابير الخليفة أبي العباس للحد من اتساع نفوذ أبي مسلم الخراساني:

لقد توطدت سلطة أبي مسلم في خراسان بعد أن تخلص من جميع الشخصيات القوية والطموحة في خراسان وأقاليم للشرق الإسلامي بحيث أصبح زعيم خراسان دون منازع وازدادت سلطاته اتساعاً فامتدت إلى أقاليم بلاد فارس الأخرى حيث اعتقد أن تعيين الولاة من اختصاصه وليس من اختصاص الخليفة، فقد كان له عمال على فارس والمناطق المجاورة، ثم إنه كان يأمر الولاة الذين يرسلهم بطرد الولاة الذين عينهم الخليفة أبو العباس، فقد أرسل أبو مسلم سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على فارس، وأمره بالقبض على جميع الولاة الذين عينهم أبو سلمة سابقاً، وعمل على قتلهم.

ثم أن أبا مسلم رفض الإذعان لأمر الخليفة حين وجه عمه عيسى بن علي سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م والياً على فارس، إذ أوصى محمد بن الأشعث بقتل والي الخليفة، إلا أن محمداً تحرج من ذلك واكتفى بعزل عيسى بن علي، وأخذ

منه يميناً وهو "أن لا يعلو منبراً ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد". وأخبر عيسى الخليفة بذلك، ولم يستطع الخليفة عمل شيء، وأمر عمه بالمقام عنده، فأقام.

وقد تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني إلى درجة كبيرة، مما أدى إلى التصادم بين سلطة الخليفة ونفوذ أبي مسلم الخراساني، والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن الخليفة عين منصور بن جمهور والياً على السند سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، فقام أبو مسلم بإرسال المغلس العبدي والياً على السند وطخارستان، وهذا يدل على مدى اعتداد أبي مسلم بقوته ونفوذه بإرساله والياً اختاره بنفسه مكان الوالي الذي عينه الخليفة، ودون أخذ موافقة الخليفة.

وقد كانت النتيجة أن تقاتل منصور بن جمهور مع المغلس العبدي، فاستطاع منصور قتل المغلس العبدي، ثم أعلن حركته على الخليفة وأبي مسلم -كما ذكرنا سابقاً- من ذلك يلاحظ أن أبا مسلم كان يحاول أن يكون صاحب النفوذ الأوحد في بلاد فارس.

لقد كان أخو الخليفة حازماً تجاه تلك المرونة التي اتبعها أخوه في التعامل مع أبي مسلم، ففي أثناء زيارة أبي جعفر لخراسان رأى ما فعل أبو مسلم بكبار الدعاة العباسيين، ومنهم الشيخ سليمان بن كثير وابنه محمد لمجرد الشك، ودون أخذ موافقة الخليفة وأخيه أبي جعفر الذي كان في خراسان.

لقد أثارت هذه الحادثة مرارة شديدة في نفس أبي جعفر على أبي مسلم وتبدو المرارة التي تركتها تصرفات أبي مسلم واضحة في نفس أبي جعفر من خلال قوله لأخيه أبي العباس حين رجوعه من خراسان: "لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً، فاحتل لقتله قبل أن يفسد أمرك، فلقد رأيته، وكأنه لا أحد فوقه، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه".

من ذلك يظهر أن المنافسة بين أبي جعفر وأبي مسلم بلغت أوج عظمتها، من خلال إلحاح أبي جعفر على أخيه الخليفة بضرورة التخلص من أبي مسلم، لكن طلبه هذا لم يلق استجابة كافية من الخليفة، ويبدو أن الخليفة رفض قتل أبي مسلم خوفاً من الخراسانيين أنصار أبي مسلم.

وفي عام ١٣٤هـ/٧٥١م خرج أبو مسلم بجيش كبير لغزو سمرقند، وقد أرسل جيشاً بقيادة أبي داود خالد بن إبراهيم وكان من فرسان العرب في خراسان، فقام بغزو ناحية كش، وقد استولى على الذخائر والتحف الصينية المرصعة بالذهب، وقد قدم بها إلى أبي مسلم بسمرقند، أما أبو مسلم فإنه بدوره اختزن هذه الغنائم عنده، ولم يرسل شيئاً منها إلى بيت مال المسلمين، ثم ذهب أبو مسلم إلى مرو بعد أن قتل عدداً من أهل الصغد وأهل بخارى، ثم استخلف زياد بن صالح الخزاعي على تلك البلاد، ورجع أبو داود إلى بلخ، ويرى الجومرد أن أبا جعفر لما علم بهذا الحادث استغله لإثارة الخليفة أبي العباس، وقد نجح في ذلك، إذ ملأ سمعه قبل هذا من أعماله وشروره على الدولة إن طال به المدى، كما ذكرنا سابقاً، ويضيف الجومرد ويقول: لأول مرة نرى الخليفة أبا العباس يعمل ضد أبي مسلم، وقد دبر الخليفة أبو العباس مؤامرة لاغتيال أبي مسلم سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م باتباع الحيلة، ولكن فشلت تلك المؤامرة.

وبمرور الأيام بدأ أبو مسلم يزداد في خراسان سلطاناً وجاهاً، وكلما توطد سلطانه بخراسان زاد تحسب العباسيين منه، يقول الجهشياري: "فثقلت وطأة أبي مسلم على أبي العباس،وكثر خلافه إياه ورده لأمره"، لذا فقد حاول الخليفة أبو العباس التضييق على أبي مسلم والحد من نفوذه وتقليل سلطانه، حيث اتفق مع أبي الجهم بن عطية وقال له: أكتب إليه، وأشر عليه بالاستئذان

في القدوم علينا لتجديد العهد بنا"، فكتب إليه أبو جهم بذلك، فقبل رأيه، وكتب مستأذناً، فمنعه أبو العباس وقال له: خراسان لا تحتمل مفارقتك لها، وخروجك عنها، وتركه شهراً ثم قال لأبي جهم: أعد الكتاب بمثل ذلك فأعاده فكتب أبو مسلم مستأذناً، فمنعه،وفي المرة الثالثة أذن له ويبدو أن هذه المناورة جرت لجس نبض أبي مسلم ومعرفة ولائه وإحساسه اتجاه الخلافة وفيما إذا كان راغباً بزيارة العراق مقر الخليفة أم عازفاً عن ذلك متوجساً منه.

ويرى شلبي أن رفض أبي العباس لرغبة أبي مسلم مرتين كان المقصود به بعث الطمأنينة في نفس أبي مسلم، وجعله يحس بالرضا عنه وعن سيرته بخراسان وعدم حرص الخليفة على إبعاده عنها، وقد أدت هذه الخطة فعلاً إلى زرع الثقة والأمان في نفس أبي مسلم اتجاه الخليفة أبي العباس وأبعدت عنه المخاوف والشكوك، إذ كتب فعلاً إلى الخليفة أبي العباس بأنه سيمر على العراق وهو في طريقه إلى الحج في تلك السنة.

ففي سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م أراد أبو مسلم الحج، فطلب من الخليفة أبي العباس الإذن له بالقدوم للحج، فأذن له أبو العباس بذلك، ولكن يبدو أن الخليفة لم يأمن جانب أبي مسلم وتحركاته، إذ تدارك الموقف واحتاط للأمر، فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم بأن بجلب معه ٥٠٠ من الجند، فأجابه أبو مسلمة: "أني قد وترت الناس ولست أمن على نفسي". فلذلك أضطر الخليفة أبو العباس أن يجبه، فرد عليه: "أقبل في ألف فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يحتمل المعسكر"، ولكن من ذلك لم يطع أبو مسلم أوامر الخليفة وهذا طبعاً يدل على اعتداده بقوته وسطوته، إذ جاء في ٨٠٠٠ من الجند ووزعهم على الطريق بين نيسابور والري، وعندما وصل أبو مسلم العراق كان معه ١٠٠٠ من الجند ومعه الأموال والخزائن، فأمر الخليفة أبو العباس قواده وسائر الناس أن يتلقوه

وأن يحسنوا استقباله، أما أبو العباس فإنه بدوره أكرمه غاية الإكرام، ويبدو أن الخليفة أبا العباس حدد لأبي مسلم عدد الجند الذين يقدم بهم ليقلل من جلال موكبه، وعندما دخل أبو مسلم على أبي العباس طلب منه الإذن بالحج فأجابه أبو العباس: "لولا أن أخي أبا جعفر قد عزم على الحج لوليتك الموسم"، ويبدو أن أبا مسلم غضب لذلك إذ همس قائلاً: "أما وجد أبو جعفر سنة يحج فيها إلا هذه السنة التي حججت فيه". ثم إن أبا مسلم عد هذا العمل امتهاناً لقدره، متناسياً مكانة أبي جعفر باعتباره ولياً للعهد.

هناك احتمالان للإجراء الذي قام به أبو العباس ضد أبي مسلم، الأول أن أبا جعفر عندما سمع بأن أبا مسلم سيحج هذه السنة طلب من أخيه أن يكون هو الأمير على الحج لتلك السنة، وذلك لموقف أبي جعفر المعادي من أبي مسلم وللمنافسة الحادة بين هاتين الشخصيتين حيث كانت المنافسة بين الاثنين تدور في الخفاء وهي منحصرة في البلاط العباسي فقط، والاحتمال الثاني حينما استأذن أبو مسلم أبا العباس في القدوم عليه للحج وأذن له، أدرك أنه من الطبيعي أن يكون أبو مسلم أمير الحج في ذلك العام، ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف لأن إمارة الحج كانت شرفاً لمن يتولاها، ويبدو أن هذا الرأي أرجح، خاصة أن أبا العباس رأى أن إمارة الحج ستؤدي حتماً إلى رفع نفوذ أبي مسلم ومكانته بين الناس أكثر من السابق، فندب أخاه أبا جعفر ليكون أميراً على الحج.

ويبدو أن زيارة أبي مسلم للبلاط العباسي وهو في طريقه إلى مكة كانت لغرض ما في نفس أبي مسلم، إذ أنه كما يؤكد الدكتور فاروق عمر أراد أن يظهر قوة نفوذه لرجال البلاط والخليفة، وإلا فليس من المعقول أن أبا مسلم فشل في إدراكه لحراجة الموقف السياسي، وعلاقته بالسلطة المركزية آنذاك.

ولابد من الإشارة إلى أن أبا جعفر -كما ذكرنا سابقاً- قام بتحريض أخيه الخليفة أبي العباس ولمرات عديدة ضد أبي مسلم، وأشار عليه بضرورة التخلص منه فقد عده خطراً على الخلافة العباسية، وقد وجد أبو جعفر هذه المرة ومن خلال زيارة أبي مسلم للبلاط العباسي أن الفرصة أصبحت مناسبة للتخلص من منافس خطير، إذ أنه أصبح الرجل الوحيد القوي في الدولة آنذاك والذي يخشى نفوذه.

فقام أبو جعفر بتحريض أخيه أبي العباس على ضرورة قتل أبي مسلم والتخلص منه، فقال أبو جعفر لأخيه العباس: "يا أمير المؤمنين أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة". ولكن أبا العباس ذكر أبا جعفر بجهود أبي مسلم في الدعوة وفي تأسيس الدولة، وما كان يتمتع به من نفوذ في نفوس أهل خراسان، حيث قال: "يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه"، فقال أبو جعفر: "إن كان بدولتنا والله لو بقيت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة". فسأله أبو العباس إذن كيف السبيل إلى قتله فأجابه: "إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك وخلت فتغفلته فضربت من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه"، قال أبو العباس: "فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم". قال: "ليؤول ذلك كله إلى ما تريد، ولو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا". قال أبو العباس: "عزمت عليك ألا كففت عن هذا". قال: "أخاف والله، إن لم تتغده اليوم يتعشاك غداً". قال: "فدونكه، أنت أعلم".

لقد كادت عملية اغتيال أبي مسلم أن تتم، لو لا أن الخليفة أبا العباس عدل عن تنفيذ فكرة قتل أبي مسلم في اللحظة الأخيرة، إذ أوعز إلى أخيه بترك الفكرة وعدم تنفيذها.

ويذكر الدكتور العاني بأن رأي الخليفة أبا العباس أصوب من رأي أخيه أبي جعفر في هذه المسألة إذ ساوره إحساس بإرجاء قتل أبي مسلم إلى ظرف أكثر ملاءمة من الظرف الذي هو فيه، إذ رأى ببعد نظره أن التسرع في هذا الموضوع بالذات في ذلك الظرف الحرج قد يترتب عليه من القلاقل ما يعرض أمن الدولة وسلامتها للخطر، ويبدو أن الخليفة أبا العباس كان جريئاً في موقفه هذا لأن الدولة في بدايتها وبحاجة إلى من يؤازرها في ذلك الظرف العصيب.

الفصل الرابع: تثبيت سلطة الخلافة العباسية والقضاء على المناوئين

أولاً: تمرد الراوندية

بعد تأسيس الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ/٧٤٩م أعلن الخليفة أبو العباس في خطبته التي ألقاها في الكوفة أن الدولة سوف تسير على كتاب الله وسنة رسوله، كما هاجم الغلو والتطرف في العقيدة من أية جهة كان ناعتاً إياه بالسبئية إذ قال: "وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس". فكان أول رد فعل هو تمرد الرواندية فرقة ظهرت على هامش الدعوة العباسية في بلاد فارس والعراق، واشتد نشاطها، وكان أخطر أساليبهم للتسلل هو ترويج المعتقدات الفارسية القائلة بانتقال الروح من شخص لآخر، مدعين أن الروح الإلهية حلت في عدة أشخاص وانتقلت أخيراً إلى أبي مسلم الخراساني.

لقد انقسمت الراوندية إلى عدة فرق وسميت بمسميات عديدة -منهم من استمر في ولائه وطاعته للعباسيين وهؤلاء هم (العباسية)، ومنهم من تحرك ضد العباسيين ونقلوا ولاءهم لغيرهم، من هؤلاء فرقة ظهرت في خراسان في أوائل عهد الخليفة أبي العباس، إلا أن أبا مسلم الخراساني استطاع القضاء على حركتهم.

وهناك خبر ذكره الطبري يدل على أن جماعة من الراوندية وقفت إلى جانب زياد بن صالح الذي خرج عن طاعة الخليفة أبي العباس سنة

١٣٥هـ/٧٥٢م، مما دفع أبو مسلم الخراساني الذي كان يهدف إلى تثبيت مكانته في الدولة العباسية إلى تتبعهم وقتلهم.

ومن فرق الراوندية، فرقة (الرواندية الخلص) الذين كانوا من أوائل من انضموا إلى الدعوة العباسية، إذ انقسمت هذه الفرقة بعد وفاة الخليفة أبي العباس إلى ثلاث فرق:

١- فرقة اعتقدت بإمامة أبي العباس ثم أبي جعفر وبعده المهدي.

٢- فرقة نقلت الإمامة من أبي العباس إلى أبي مسلم وانقسمت هذه الفرقة إلى شعبتين:

أ- **الأبو مسلمية:** وهؤلاء أكدوا أن أبا مسلم لم يمت وأنه حي تجسدت فيه روح الإله، وأنه نبي زرادشت وزعموا أنه سوف يعود إلى الحياة الدنيا.

ب- **الرزامية:** نسبة إلى زعيمهم رزام بن سابق، اعتقد هؤلاء بموت أبي مسلم، وأفرطوا في موالاته، ونسبوا إليه المعجزات والخوارق.

٣- الفرقة التي أسسها عبد الله الراوندي وتعد أخطر فرق الراوندية، وهؤلاء جعلوا أبا جعفر المنصور إلهاً وأن أبا مسلم نبيه، وزعموا أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور.

وبعد وفاة الخليفة أبي العباس استمر الراوندية الغلاة في نشاطهم وراء الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور، إذ تفرعت من فرق الراوندية الحركات الدينية السياسية التي انتشرت خلال العصر العباسي الأول في بلاد فارس والتي سميت بالخرمية، إلا أن السلطة العباسية استطاعت أن تسحقها وتتخلص من خطرها.

ثانياً: تصفية عبد الله بن علي العباسي

يعد عبد الله بن علي من أبرز الشخصيات العسكرية والسياسية، فقد تولى قيادة الجيش العباسي الذي انتصر على مروان بن محمد في معركة الزاب وجاء تعيينه والياً على الشام بسبب قيامه بتشتيت الجبهة الأموية في الشام من جهة ولملاحقته مروان بعد انهزامه من الجهة الأخرى، فضلاً عن قيامه بتثبيت حكم العباسيين في بلاد الشام طيلة السنوات الأولى من الحكم العباسي، فهو الذي قام بتصفية الأمويين وأتباعهم في الشام، لذلك فليس من المستغرب أن يكون عبد الله بن علي طموحاً في الوقت الذي يشرف على جيش خراساني قوي ومعه قواد يؤيدوه رغبة أو رهبة، فما إن وصلته الأخبار عن موت الخليفة أبي العباس عام ١٣٦هـ/٧٥٣م وتعيين أبي جعفر المنصور بدله، امتعض وأعلن نفسه خليفة، وادعى بأن أبا العباس كان وعده بالخلافة حين أرسله لتعقب مروان بن محمد والقضاء عليه.

ولابد من الإشارة بأن الروايات التاريخية لا تؤيد ادعاءه، وإنما اتخذ ذلك مبرراً لتحقيق طموحاته الشخصية، في حين أن أغلب العباسيين عبروا عن مخاوفهم من طموحاته.

لقد استغل أهل الشام والجزيرة التصدع الذي حدث في البيت العباسي، لذلك بادروا إلى تأييد حركة عبد الله العباسي بقوة وحماس بالرغم من أنه مارس ضد الشاميين صنوفاً من الحزم والشدة عند تعقبه مروان بن محمد، ولعل السبب في تأييدهم لحركته أنهم كانوا يأملون في استرجاع امتيازاتهم التي فقدوها بانتقال مركز الحكم إلى العراق من جهة، وانتقاماً من الدولة الجديدة وقادتها من الجهة الأخرى، ثم إن عبد الله بن علي رحب بتأييد أهل الشام،

ويقول ابن قتيبة: "قرب عبد الله بن علي موالي بني أمية وأطمعهم". فأخذ في تعيين قادتهم بمناصب إدارية كعثمان بن سراقة الأزدي الذي عينه والياً على دمشق، وزفر بن عاصم المهلبي عينه والياً على قنسرين، والحكم بن ضبعان عينه والياً على فلسطين.

لجأ الخليفة أبو جعفر المنصور إلى اتخاذ تدابير سريعة وحاسمة لمواجهة حركة عمه عبد الله بن علي فخرج بجيشه خارج الأنبار حيث عسكر في دير الجاثليق وأرسل قوات عسكرية إلى كل من قرقيسيت وهيت، للتصدي لأي قوة عسكرية يرسلها عمه عبد الله بن علي، وأخيراً عين أبا مسلم قائداً عاماً للجيش العباسي لمواجهة الحركة، إن هذا الاختبار كان موفقاً لكون الخليفة قد رغب في إبعاد أبي مسلم عن خراسان مصدر قوته أيضاً.

استمرت الحرب سجالاً بين الطرفين لمدة أربعة أشهر، استطاع أبو مسلم كسب مجموعة كبيرة من الجند الخراساني الذين كانوا مع عبد الله بن علي، وبعد معركة نصيبين انهزم الجيش الشامي وهرب عبد الله بن علي واتجه مع أهل بيته ومواليه إلى البصرة عن طريق مكة، والتجأ عند أخيه سليمان بن علي والي البصرة، وبعد فترة من الزمن تمكن الخليفة المنصور من قتل عمه.

ثالثاً: تصفية أبي مسلم الخراساني

ذكرنا سابقاً بأن أبا جعفر المنصور حاول إقناع أخيه الخليفة أبي العباس بالتخلص من أبي مسلم عدة مرات إلا أنها باءت بالفشل.

وقد لعبت الكراهية بين أبي جعفر المنصور وأبي مسلم دوراً في التخلص منه، فضلاً عن ذلك تأخره في إعطاء البيعة لأبي جعفر بعد وفاة أبي العباس، وهما في طريق الحج، ثم في ظهور نوايا خطرة اتجاه المنصور، وذلك عندما

عرض على ولي العهد الثاني عيسى بن موسى أن يتعاونا على تنحية الخليفة الجديد.

وبعد القضاء على تمرد عبد الله بن علي نوى أبو مسلم الرحيل إلى خراسان، ولكن الخليفة عاجله بإرسال عدة وفود تحثه على مقابلة الخليفة قبل السفر كما أنه أرسل جوائز إلى قادة الجيش بمناسبة الانتصار وطلب من أبي مسلم مقابلته لأمر هام لم يذكره، وهنا كتب أبو مسلم للخليفة رسالة قال فيها: "إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حربون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطي النفس إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي".

إن هذه اللحظة الحاسمة من العلاقة بين الخليفة وأبي مسلم الخراساني شهدت سلسلة جديدة من المناورات السياسية التي ضمنها رسائل متبادلة بينهما، ويلفت النظر هنا رسالة جديدة أرسلها أبو مسلم الخراساني إلى الخليفة وهي رسالة غريبة في نصها ولكنها قوية السند، وفيها يهاجم أبو مسلم إبراهيم الإمام أخا الخليفة ومفجر الدعوة العباسية ويصفه بالتطرف والانحراف عن الإسلام طمعاً في الدنيا ومكاسبها!! وأنه أباح القتل بالشك في سبيل إنجاح الدعوة العباسية.

ويرى الدكتور فاروق عمر أنه لمن الصعب تصور أبي مسلم الخراساني وهو يكتب مثل هذه الرسالة مخاطباً المنصور ثم يسمح لنفسه بعدها بمقابلة الخليفة، ولعل هذه الرسالة من صنع اليد الشعوبية الفارسية أو أعداء العباسيين الأخريين الذين عبثوا بالتاريخ العباسي وشوهوه ولكن إذا كانت هذه الرسالة

صحيحة استناداً إلى قوة إسنادها (رواياتها) فهي تظهر أبا مسلم في حالة نفسية وعصبية لا يحسد عليها خاصة وأنه كان معتزاً بنفسه وبأعماله ولذلك اندفع إلى كتابة هذه الرسالة وهو في حالة شديدة من الغضب.

ولكن الخليفة ظل رابط الجأش مسيطراً على أعصابه حذراً في اتخاذ المواقف، لئلاّ يجعل أبا مسلم يفلت من قبضته، وقد استطاع في نهاية المطاف، باستغلاله عيسى بن موسى ولي العهد واحد أصدقاء أبي مسلم أن يقنع هذا الأخير بضرورة مقابلة الخليفة.

ولم يجد أبو مسلم الخراساني طريقاً آخر إلا الطريق الذي يوصله إلى الخليفة خاصة بعد أن سد الخليفة في وجهه طريق خراسان بتعيينه والياً جديداً عليها هو خالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني وأحد الدعاة العباسيين الذين لهم سجل حافل أثناء الثورة الذي أرسل رسالة إلى أبي مسلم الخراساني يذكره بأن الطاعة خير من المعصية ويحذره من العودة إلى خراسان دون موافقة الخليفة.

وهكذا كان لابد لأبي مسلم الخراساني أن يقابل الخليفة في المدائن لقد كانت المقابلة الأولى بين الخليفة وأبي مسلم ودية وقصيرة، أما في المقابلة الثانية فكان الخليفة قد هيأ رئيس الحرس عثمان بن نهيك مع جماعة من الحرس لقتل أبي مسلم بعد أن يأمرهم بذلك، أما ما حدث في المقابلة الأخيرة فيختلف المؤرخون فيه، ، أن التهمة الرئيسية التي وجهت لأبي مسلم الخراساني هي قتله الدعاة العباسيين في خراسان أمثال سليمان بن كثير الخزاعي والعرب الموالين للثورة أمثال أفلح بن مالك الفزاري وعلي بن جديع الكرماني حيث قال له المنصور: "لقد قتلت نظراء قحطبة الطائي". كما أنه جابهه بالسؤال المحرج الذي يرقى إلى درجة التمرد على السلطة وهو: "لماذا قررت السير إلى خراسان دون استئذاننا بذلك".

ولم يكن هناك جواب لأبي مسلم الخراساني سوى أن يذكر الخليفة بخدماته فأجابه الخليفة بأن العباسيين بما لهم من مكانة وكفاءة أوصلوا الثورة إلى النجاح وليس لأبي مسلم شيء ولو ذهبت مكانه أمه (جارية)لقامت بما قام به في خراسان.

ويرى الدكتور فاروق عمر بأن قتل أبي مسلم الخراساني كان بسبب تعاظم نفوذه وطموحاته الخطرة في خراسان والمشرق الإسلامي وتمرده على أوامر الخليفة العباسي بالبقاء في الشام ولذلك قال له الخليفة "لقد ارتقيت مرتقياً صعباً".

وحين اعتورت السيوف أبا مسلم الخراساني قال للخليفة: "استبقني لعدوك"، فقال لهم المنصور: "وأي عدو أعدى لي منك"!! وبموت أبي مسلم الخراساني قطع الخليفة رأس الخيانة ويدها التي لو استطالت لهددت كيان الخلافة وسلطتها وخاصة في الأقاليم الشرقية، وقد عبر الخليفة عن رأيه هذا حين أجاب عيسى بن موسى الذي فوجئ بقتل أبي مسلم بقوله: " وهل كان لك سلطان مع أبي مسلم".

كما أن المنصور خطب في الناس بعد مقتل أبي مسلم موضحاً خطره والأسباب التي دعت إلى التخلص منه فقال: "أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في إثر يده أو فلتات لسانه، إنا لن نبخسكم حقوقكم، إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه".

رابعاً: الحركات المجوسية العنصرية

حاول التنظيم العباسي في خراسان أن يكسب أتباعاً من سكان الأقاليم الشرقية، قبل الثورة، مستغلين الوضع المتردي الذي كان يعيشه هؤلاء، فأحيوا فيهم أمالاً كبيرة إن هم أيدوا الثورة، وبذلك ظهرت من جديد في تلك الأقاليم بعض تعاليم الديانات المجوسية (الزرادشتية والمانوية والمزدكية) متلبسة بثوب إسلامي أحياناً، أو بعبارة أخرى إن تلك التعاليم متطورة عن تلك الديانات بعد تأثرها ببعض تعاليم الدين الإسلامي وبعد نجاح الثورة وتأسيس الدولة وإعلان تمسك العباسيين بالدين الإسلامي، وعملهم بالكتاب والسنة، واعتمادهم على العناصر العربية، قامت تلك العناصر الفارسية بحركات ضد الحكم العباسي محاولة منها لإعادة مجدهم الغابر، وإنهاء الحكم العربي في تلك الأقاليم على أنه يجب أن نشير إلى أن الخطر الحقيقي الذي هدد العباسيين في أيامهم الأولى كان متأتياً من جهة المشرق.

وسنتكلم عن تلك الحركات حسب الأصل الذي تطورت عنه.

١ـ الحركات الزرادشتية:

أـ حركة بها فريد (١٢٩هـ-١٣١هـ/٧٤٧م-٧٤٩م)

تعد حركة بها فريد أقدم الحركات الدينية السياسية التي ظهرت في خراسان في أواخر عصر الأمويين، وأثناء استفحال الدعوة العباسية هناك، واستمرت بعد تأسيس الدولة العباسية، وصاحب هذه الحركة رجل يقال له بها فريد بن فردردينان، من قرية روى من أبرشهر وكان مجوسياً زردشتياً يصلي الصلوات الخمس بلا سجود، متياسراً عن القبلة وتكهن.

وتشير رواية تاريخية أنه قبل أن يعلن عن نفسه ذهب إلى الصين، وبعد عودته منها جلب معه قميصاً أخضر ناعماً دقيق الصنع، وعند وصوله إلى بلده في خراسان صعد ليلاً إلى قبة أحد المعابد دون أن يراه أحد، فرآه في الفجر أحد الفلاحين ثم تجمع الناس حوله فزعم أنه قدم من السماء حيث شاهد الجنة والنار، وأن الله قد منحه هذا القميص الغريب الذي كان في الجنة.

تحرك بها فريد في نيسابور قبل إعلان الثورة العباسية في رمضان ١٢٩هـ/٧٤٧م ولم تقف قيادة الدعوة العباسية ضده بل على العكس استفادت منه أول الأمر باعتباره عاملاً جديداً يزيد من إضعاف الأمويين في خراسان.

- تعاليمه:

لقد ادعى بها فريد النبوة كما أظهر كتاباً باللغة الفارسية زعم أنه أوحي به إليه، ودعا إلى نوع معدل من الزرادشتية المجوسية، وبشر بأنه خليفة زراداشت الذي اعترف به أنه نبي، إلا أنه رفض بعض تعاليم الزرادشتية وأدخل بعض التعديلات الأساسية في ديانة زردشت مما ينسجم مع مبادئ الإسلام وتعاليمه، ومن تعاليمه الجديدة ما يذكر من أنه أمر أصحابه بترك الزمزمة عند الطعام، وبترك شرب الخمور وأكل الميتة ونطاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ، وهذه الأمور ليست محرمة في التعاليم الزردشتية، وقد أخذ تحريمها من تعاليم الإسلام، ولكنه أمر أتباعه بالسجود إلى عين الشمس على ركبة واحدة.

وفرض بها فريد على أصحابه سبع صلوات منها: صلاة في توحيد الله، بينما الزراديشتية دين ثنوي، وثانيها في خلق السماوات والأرض، وثالثها في

خلق الحيوان وأسباب عيشه ، ورابعها للموت، وخامسها للبعث والحساب، وسادسها لموطن الجنة والنار، وسابعها لتمجيد أهل الجنة.

ومن تعاليمه الأخرى أنه حدد مهر المرأة بأربعمائة درهم، آخذاً بنظر الاعتبار الأوضاع المالية في خراسان، ومستغلاً ذلك لزيادة شعبية حركته، وأمر أتباعه بالامتناع عن ذبح الحيوان حتى يبلغوا سناً معيناً، وأمرهم أن يعطي كل منهم سُبع ما لديه من مال لتصرف على الأعمال العامة مثل تعمير الطرق وإصلاح القناطر لخير الجماعة.

كما أن بهافريد قال بحلول الروح، وكان من الداعين إلى (مذهب الرجعة)، وربما كان أهم مبادئه ومغزاه أن الإنسان لا يموت وإنما يختفي في مكان ما، وأنه إذا مات سيعود إلى هذه الدنيا قبل يوم الدين، وربما كان بها فريد قد أخذ مبدأ الرجعة من بعض الفرق الإسلامية المتطرفة (الغلاة).

- إخماد حركته:

لابد أن نشير إلى غموض المصادر حول نهاية حركة بهافريد، ولكن الأرجح أنه قضي عليها في خلافة أبي العباس، على حد قول بعض المؤرخين المحدثين.

فقد قاوم المجوس حركة بهافريد، وعدوه منشقاً، واجتمع الموابذة والهرابذة (رجال الدين المجوس) إلى أبي مسلم في نيسابور وشكوا إليه أنه بهافريد قد أفسد دين الإسلام ودينهم، فأرسل أبو مسلم شبيب بن داح وعبد الله ابن سعيد فعرضا عليه الإسلام، وأسلم وسود، ثم لم يقبل إسلامه لتكهنه فقتل.

ولكن تعاليم بهافريد انتشرت في خراسان خاصة بعد مصرع أبي مسلم الخراساني، حيث يشير ابن النديم نقلاً عن الصوالي إلى استمرار مذهب بهافريد إلى القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ولعل ثبات البهافريدية على معتقداتهم يعود بعضه إلى اعتقادهم بحتمية رجوع بهافريد، حيث يشير الشهرستاني بأن أتباعه زعموا أنه صعد إلى السماء على حصان، وأنه سوف يعود إلى الأرض لينتقم من أعدائه.

ويمكن القول أن الدوافع وراء حركة بهافريد كان سياسياً أكثر منه دينياً، لأنه طمع بسياسته التوفيقية بين المجوسية الزرادشتية والإسلام في أن يضم إلى حركته المجوس إضافة إلى الموالي الفرس الذين لم يكن قد مضى على إسلامهم وقت طويل وصولاً إلى تحطيم السيادة العربية والدولة العربية الإسلامية.

ب- حركة إسحاق الترك (١٣٧هـ-١٤٠هـ/٧٥٥م-٧٥٨م)

بالرغم من قلة المعلومات عن الحركة، إلا أن ابن النديم أشار إلى ملامح من تعاليمه وحركته، فقد كان أمياً وأحد أعضاء التنظيم السري العباسي في بادئ الأمر، إلا أنه بعد تصفية أبي مسلم هرب إلى بلاد ما وراء النهر وأعلن حركته، وقد اعتبر أبا مسلم منقذاً منتظراً، وأشار ابن النديم في رواية أخرى إلى أنه ادعى النبوة وأرسله زرادشت، وزعم لأتباعه أن زرادشت حي لم يمت، وسيخرج لإقامة دينه، لكن من المستغرب أنه استطاع أن يجمع حوله (المبيضة) وهم خرمية ما وراء النهر، وهذا يدل على أن الحركات الفارسية كانت تستغل أية فرصة للنيل من الحكم العربي، هذا وقد استطاع والي خراسان خالد بن إبراهيم الشيباني من إخماد حركة إسحاق الترك، وتم القبض عليه وقتله، وتفرق أتباعه.

جـ حركة استاذيس (١٥٠هـ/٧٦٧م):

أشار الشهرستاني إلى أن السيسانية (نسبة إلى استاذيس) والبهافيردية صنف واحد متفرعان عن الزرادشتية، ويظهر أن تعاليم استاذيس كانت استمراراً لتعاليم بهافيرد، ويشير اليعقوبي إلى أنه ادعى النبوة وتصفه رواية أخرى بأنه رجل من الكفرة.

أعلن استاذيس حركته في خراسان عام ١٥٠هـ/٧٦٧م، وانضم إليه أتباع كثيرون، من أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها، واستطاع أن يستولي على مدن كثيرة مستغلاً عدم وجود قوات حكومية كبيرة من جهة ولاضطراب خراسان إبان تلك الفترة من الجهة الأخرى، واستطاع بعد ذلك من أن يهزم القوات العباسية في مرو الروذ ويقتل القائد العباسي، وقتل أيضاً بعض القواد العرب أرسلهم الخليفة المنصور.

أرسل الخليفة المنصور وعلى وجه السرعة القائد خازم بن خزيمة التميمي ومعه (١٢) ألف مقاتل، وبعد أن أعاد تنظيم القوات المنهزمة واختيار ستة آلاف مقاتل منهم حيث ضمهم إلى قواته، وبعد استعدادات كبيرة للقوات العباسية أصبحت في وضع الهجوم بدل الدفاع استطاعت بالتالي من إلحاق الهزيمة بقوات استاذيس الذي هرب ومعه قسم من قواته، واعتصم بأحد الجبال الحصينة، لوصول إمدادات عسكرية جديدة قام القائد العربي خازم التميمي بضرب الحصار على استاذيس وفي النهاية استسلم ثم قتل في بغداد بأمر من الخليفة المنصور.

٢ـ الحركات المزدكية:

أ ـ حركة سنباذ (١٣٧هـ/٧٥٥م):

وصفه المسعودي بأنه خرمي، أما الطبري فقد عده مجوسياً، في حين عده نظام الملك مزدكياً، على أننا يجب أن نذكر بأن ليس هناك تناقضاً في هذه الآراء، ذلك أن المزدكية هي إحدى مذاهب المجوسية الثلاثة (الزرادشتية، والمزدكية، والمانوية)، على حين أن الخرمية هي مزدكية متطورة في العصر الإسلامي، ولذلك فإن سنباذ بشر بآراء مجوسية ومزدكية وخرمية متطورة ومتأثرة ببعض تعاليم الدين الإسلامي، ولعله كان يرغب في ضم أكبر قدر ممكن من الأتباع حيث استعمل سنباذ مع كل جماعة انضمت إليه اللغة التي تفهمها تلك الجماعة، رافعاً شعارات تستهويها، ونظراً لتعلق الخراسانية بأبي مسلم، لذلك استغل سنباذ مقتله، فأعلن حركته في نيسابور مدعياً بأن أبا مسلم لم يمت، وبشر أتباعه من الفرس بنهاية السلطة العربية، وأعلن أنه يريد هدم الكعبة، وكتب إلى ملك الديلم: أنه قد انقضى ملك العرب، فاستجابت له جموع غفيرة من سكان قومس والري والجبال التي كانت مهد الخرمية، ولقب بـ(فيروزا صبهبذ) أي القائد المنتصر.

وحين تحرك سنباذ باتجاه همدان اضطر الخليفة المنصور إلى تجهيز حملة مستعجلة بقيادة جهوربن مرار العجلي، وكان تعداد المقاتلة (١٠) آلاف رجل ثم تبعها تعزيزات جديدة، وقد انضم إلى الجيش العباسي العرب المسلمون الذين كانوا مستقرين في منطقة الجبال بقيادة عمر بن العلاء، وربما انضم إلى هؤلاء المتطوعة بعض الموالي من سكان الجبال والري، والتقى الجيشان في (موقعة جرجبنان) بين الري وهمدان، وقد أظهر عمر بن علاء شجاعة فائقة

في المعركة مما أدى إلى هرب سنباذ والتجائه إلى أصبهبذ طبرستان، إلا أن ابن عم أصبهبذ طبرستان استطاع قتله.

بـ حركة المقنع (١٥٩هـ-١٦٣هـ/٧٧٦م-٧٧٩م):

يذكر المقنع تحت أسماء مختلفة منها هاشم وحكيم وعطاء، عاش في إحدى قرى مرو، اشتغل في تنظيف الصوف وغسله، لكن ظروفه تحسنت بعد أيام الدولة العباسية، حين عين أبوه موظفاً في خراسان فاهتم والده بتثقيفه وتربيته، وقد انتقل المقنع بين مرو وبلخ لتحصيل العلم.

وفي أثناء ولاية أبي مسلم، أصبح المقنع أحد الرؤساء في الجيش، ومن أتباع أبي مسلم، وقد انضم إلى فرقة الرزامية، وفي ولاية عبد الجبار الأزدي انتقل لخدمة هذا الوالي الجديد، ووافقه في إعلان تمرده ضد العباسيين، ثم أسر هاشم وجيء به إلى بغداد، ثم أطلق سراحه بعد فترة من الزمن.

أما في بداية أمره فقد ذهب إلى خراسان ، وأخذ يدعو الناس له، فاتخذ القناع، لكي يستر عيوبه، فهو أعور، قصير، دميم الوجه، وقيل أن القناع كان من الذهب أو الحرير الأخضر، وقد قدس المقنع نفسه، ولجأ إلى استعمال السحر، فكان يظهر للناس قمراً في بئر، ولما فشل أمره تبين أن في أسفل البئر زئبق وكان عوام الناس يتعجبون منه، وما هو إلا استخدام الطرق الهندسية وانعكاس الضوء.

كما كان يمتنع عن الظهور للناس بحجة أن نور وجهه سيحرقهم، ولما ألحوا على ذلك، جمع مجموعة من النساء، وأمسكن المرايا لكي تعكس أشعة الشمس عن ظهوره، كما أنه أكد على الحلول والتناسخ وادعى أنه روح الإله حلت به بعد أبي مسلم، ودعا الناس إلى ترك الفرائض كالصوم والصلاة

والحج، وقال للناس أن الدين هو معرفة الإمام فقط، كما أباح النساء، ودعا الناس إلى التوجه إلى مكان وجوده في صلاتهم، كما يقول ذلك ابن الأثير ـ أما أهم تعاليم المقنع فهي:

١- ادعى المقنع الألوهية، حتى أنه رفض أية صفة غيرها.

٢- نادى المقنع بالحلول والتناسخ، فقال: إن الله خلق آدم من صورته ثم في صورة نوع، ثم في صورة إبراهيم، ثم موسى، وعيسى، ومحمد ثم في صورة أبي مسلم ثم إليه، وطلب من أتباعه أن يسجدوا له.

٣- ادعى المقنع بأنه بعد وفاته سيعود إلى هذه الأرض، ويملأها عدلاً.

٤- قدس المقنع أبا مسلم وعده أفضل من الرسل.

٥- أسقط الفرائض من صوم وصلاة وزكاة، وحرم على أتباعه القول بوجود حلال أو حرام.

٦- طبق المقنع تعاليم مزدك على أتباعه، وخاصة ما يخص إباحة النساء والأموال.

٧- أعطى المقنع الحق لأتباعه بقتل كل من يخالفهم.

ونتيجة لدعواته هذه فقد انضمت إليه المبيضة من أتباع أبي مسلم في بلاد ما وراء النهر، وقد أشار إلى هذا ابن الأثير إذ قال: "وظهرت المبيضة ببخارى والصفد معاونين له".

وانتشرت حركة المقنع في منطقة كش منذ سنة ١٥٩هـ/٧٧٦م، وانضم إليه بنيان بن طغشادة أمير بخارى.

أخذ المقنع بعد أن كثر أتباعه بمهاجمة القرى وقطع الطرق فاضطر الوالي العباسي حميد الطائي إلى اعتقاله، ثم هرب إلى بلاد ما وراء النهر، واعتصم بحصن سنام، وقد باءت جميع الحملات الإسلامية التي أرسلت للقضاء عليه بالفشل، ومن هذه الحملات -حملة جبريل بن يحيى، ويزيد بن يحي، ومعاذ بن مسلم، وسعيد الحرشي- ولم يتمكن أحد من القضاء عليه سوى سعيد الحرشي الذي أسند إليه الخليفة المهدي مهمة القضاء على المقنع فحاصره. ويذكر البغدادي أن سعيد الحرشي قد جهد من أجل القضاء عليه فاستخدم من الحديد والخشب مائتي سلم، ليضعها على عرض خندق ليعبر عليها رجاله، واستدعى من مولتان الهند عشرة آلاف جلد جاموس وحشاها رملاً وكبس بها خندق المقنع، وبعد هذا الحصار الطويل اضطر أصحاب المقنع إلى التسليم، لكن المقنع ظل حتى النهاية رافضاً للصلح أو النزول بأمان، ويقال بأنه أعد لأصحابه شراباً مسموماً وسقاهم منه، وأخبرهم أنه سيختفي ويعود إليهم بعد مدة، وألقى النحاس والقطران في التنور، وألقى نفسه فيه وانتهت حركته سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م.

٣- الزنادقة:

الزندقة هي إحدى الحركات الفارسية التي تسترت بالإسلام كغطاء لتحركاتها، وحاولت هدمه من الداخل، وتسمى الزندقة بالشعوبية أيضاً، وكانت الزندقة تتخذ الديانات الفارسية أساساً لها في مهاجمة عقيدة المسلمين وآدابهم وتراثهم وتاريخهم المجيد، وقد أشار الجاحظ إلى هذا فقال: "إنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض

أهله، وإن أبغض تلك اللغة، أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تتنقل بـــه حتى ينسلخ من الإسلام، إذا كانت العرب هي التي جاءت به".

وأخذ الزنادقة والشعوبيون في إعلان معتقداتهم علانية، وظهرت آراؤهـم وشاعت بين الناس، وخاصة في زمن الخليفة المهدي الذي كان عـــهده، عـــهد هدوء واستقرار سياسي، وأخذوا يطرحون آراءهم دون خوف أو وجل.

لهذا برز الخليفة المهدي لمحاربة هذه الحركة، سيما وقد عـــرف العـــدل وحسن الخلق،ومحاولة تمجيد الدين الإسلامي، يضاف إلى ذلك أن الهدوء الـذي تميز به عصره ساعده على تتبع هذه الحركة، فقد جد الخليفة المهدي في تتبعهم منذ سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م، وأنشأ ديواناً خاصاً لهم، عرف بديـــوان الزنادقـــة، وعين عليه مسؤولين من بينهم عمر الكلوذي، وعبد الجبار، ومحمد بن عيســى ابن حمدوية، هذا في العاصمة ، أما في مراكز الأقاليم فكان عريف الزنادقة هو الذي يشرف عليهم، ويعاونه المحتسبون ورجال الشرطة.

وكانت الطريقة التي يحاكم بها الزنادقة هي القبض عليـــهم، بعـــد أقـــل تهمة_ فيطلب إليهم الخليفة أو من يخوله من القضاة أن يرجعوا عن الزندقة إذا اعترفوا بها، فيطلق سراحهم إذا رجعوا، وهذه العملية تسمى الاستتابة، ولكـــي يتأكد القاضي أنهم رجعوا فعلاً عن الزندقة، كانوا يطلبون من المتهم أن يبصـق على صورة ماني، وأن يذبح طائراً، لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان.

وقد خول الخليفة المهدي مسؤول ديوان الزنادقة، أو عريـــف الزنادقـــة سلطات واسعة جداً منها قتل كل من يدان بهذه التهمة، وجعل للزنادقـــة ســـجناً خاصاً سمي (بسجن الزنادقة) خصوصاً بعد أن أخذوا يعلنـــون عـــن آرائـــهم واعتقاداتهم علنية ويشير الطبري إلى هذا فيقول: "واســـتمر المـــهدي يطـــارد

الزنادقة، ففي حملته سنة ١٦٣هـ إلى بلاد الروم قتل جماعة من الزنادقة في حلب وأحرق كتبهم.

ويتضح مفهوم الزندقة بصورة شاملة عند الخليفة المهدي،عندما: "قال لموسى الهادي يوما، وقد تقدم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه، وأمر بصلبه، يا أبي أن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة، يعني أصحاب ماني، فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة الإثنين، أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله الذي لا شريك له".

كما أمر الخليفة المهدي الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب والرد عليهم، واستمرت المطاردة للزنادقة في عهد الخليفتين موسى الهادي ، وهارون الرشيد، وقد استثنى الخليفة الرشيد في العفو الذي أصدره ضد المعارضين له، الزنادقة، وعدم شمولهم به، وذلك في سنة ١٧٠هـ،٧٨٦م.

ولم تقتصر مقاومة الزندقة على الدولة فقط ، إذ لعب العلماء والمحدثون والمتحكمون دوراً في الرد على الزنادقة وتفنيد آرائهم ومزاعمهم، ومنهم -أبو محمد هشام بن الحكم (ت ١٩٩هـ/٨١٤م) كتاب الرد على الزنادقة والرد على أصحاب الاثنين، وأبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، كتاب الرد على أصحاب التناسخ، وأحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ/٧٨٠-٨٥٥م) كتاب الرد على الزنادقة والجهمية، وأبو الربيع محمد بن الليث الخطيب كتاب

الرد على الزنادقة، وأبو عثمان الرقي رسالة للرد على الملحدين وأصحاب الاثنين – فضلاً عن عدد كبير من الكتب مما لا يتسع المجال لذكرها.

أما أسباب إعلان الحرب على الزنادقة فتعود إلى سببين: أولهما –السبب الديني– وهو أن اتباع هذه الديانات أخذوا يحاربون الدين الإسلامي ومجابهته، وثانيهما –السبب السياسي– فقد كان أغلب الزنادقة من الفرس، وقد اعتقدوا أن السلطة محصورة في العرب، وأنهم خاضعون لهم، بينما يريد الزنادقة أن تكون الدولة فارسية بكل مظاهرها، فسعوا لقلب نظام الحكم، الذي يستند إلى الدين، فأشاعوا نشر الديانات الفارسية القديمة، لأنه أساس الخلافة ديني، ولأن اتحاد الدين بالسياسة وتناصرهما كان ركن الدولة العباسية، فالزندقة بإضعافهما الدين الإسلامي تضعف من سلطان الخليفة، وتهدم أساس الدولة، وتفسخ مقومات المجتمع.

خامساً: الحركات الموالية للأمويين

كان إقليم الشام يتمتع بامتيازات كثيرة إبان الحكم الأموي سواء كانت اقتصادية أو سياسية، فقد كان الإقليم الأول بنظر الخلفاء الأمويين، وكانت مصالح أهل الشام مفضلة على مصالح بقية الأقاليم، كما كانت لوجهة نظرهم أهمية وتأثير، وعند انتقال الحكم إلى العباسيين، أصبح العراق الإقليم الأول فكان من الطبيعي أن يشعر الشاميون بخيبة أمل وأصبحوا موضع شك وريبة خصوصاً بعد أن أغلقت أغلب المدن الشامية الأبواب بوجه الولاة العباسيين فكانت هناك حركات سياسية صدقة قام بها شيوخ القبائل العربية من المؤيدين للأمويين وإن كانوا على النقيض من سياسة مروان الأخير.

ويلاحظ أنه بعد زوال حكم الخليفة مروان الأخير ظهرت آمـال جديـدة لدى أهل الشام، وهذه المرة ليست سياسة صرفة، وإنما سياسة دينيـة، فكـانت على شكل تنبؤات تتعلق بفكرة المنقذ المنتظر وهو السفياني المنتظر، منقذ أهـل الشام من العباسيين، إن هذه الفكرة في الحقيقة ظهرت أول مرة بعد وفاة معاوية الثانية حيث سيطر على الحكم الفرع المرواني من الأمويين لكنها ظهرت فـي هذه الفترة بين القبائل الكلبية- اليمانية التي أقصاها مروان الأخير عن المساهمة في الحكم ومجيء العباسيين إلى الخلافة.

وفيما يلي أهم الحركات السياسية وكذلك السياسة الدينية:

١ـ حركة حبيب بن مرة المري(١٣٢هـ/٧٤٩م):

كان حبيب المري أحد قواد الخليفة الأموي مروان بن محمد وفرسـانه، وما أن نجحت الثورة العباسية حتى خشي علـى نفسـه وعشـيرته، فـأعلن معارضته للحكم الجديد، واتخذ الشعار الأبيـض المعـارض للسـواد شـعار العباسيين، وقد أيدته قبائل قيس بالبقاء مـن أهـل البثنيـة وحـوران وعنـد محاصرتهم من قبل عبد الله بن علي أول والي على الشام قامت حركة أخـرى بقيادة أبي الورد، فاضطر الوالي العباسي إلى عقد هدنة مع حبيب المري.

٢ـ حركة أبي الورد مجزأة بن كوثر الكلابي:

على إثر هزيمة الخليفة الأموي مروان ومقتله، حدثـت حركـة أخـرى سياسية دينية في قنسرين وحلب سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م. و هي حركة أبي الـورد مجزأة بن كوثر الكلابي وأبي محمد السفياني، فقد بيض أبو الورد مـن أهـل قنسرين وخرج عن طاعة الخليفة أبي العباس.

وهناك رواية اتفق عليها المؤرخون الرواد حول أسباب هـــذه الحركــة فيعزون ذلك إلى أن أحد قواد عبد الله بن علي أساء التعامل مع ولد مسلمة بـــن عبد الملك الذين كانوا مجاورين له، فأثار هذا العمل حمية أبي الورد فخرج إليه وقتله. فسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فإنها اتخذت تبريراً لحركة أبـــي الورد الذي شعر بخيبة أمل كبيرة بزوال سلطان الدولة الأموية التــــي رعتـه وأحبته.

ومن الجدير بالذكر أن الأمر تفاقم على العباسيين إذا انضم عرب حمص وكلبيو وتدمر إلى حركة أهل قنسرين بزعامة أبي الورد، بعد أن نجحــوا فـــي الانضمام إلى أبي محمد السفياني، وقد كان عددهم حوالي (٤٠) ألفاً، إذ أعلنــوا أن أبا محمد زياد بن عبد الله هو السفياني المنتظر الذي سينقذ أهل الشام مـــن محنتهم التي وقعوا فيها وقالوا: هو السفياني الذي يذكر.

وتؤكد روايات تاريخية إلى أنه حدث اتفاق بين أبي محمد السفياني وأبـــي الورد الكلابي على تكوين جبهة واحدة، فقد كان أبو الورد هو المتولـــي لأمـــر العسكر المدبر له وصاحب القتال والوقائع، بينما كان أبو محمد السفياني مقـــدم الجيش وصاحبه.

وكانت النتيجة أن خرج عبد الله بن علي إلى مرج الأخرم بعد أن انضـــم إليه أخوه عبد الصمد بن علي ومجموعة أخرى من القواد منهم حميد بن قحطبة فاقتتلوا في مرج الأخرم في آخر ذي الحجة سنة ١٣٢هـــ، حيث قتل أبو الورد، أما بالنسبة إلى أبي محمد السفياني فقد انسحب مع أتباعه من بني كلـــب إلـــى تدمر، ثم هرب إلى الحجاز وبقي فيها إلى أيام الخليفة أبو جعفـــر المنصـــور فأدرك هناك وقتل.

٣- حركات الجزيرة الفراتية:

ساد بلاد الجزيرة جو من عدم الاستقرار على إثر انهزام القوات الأموية بعد معركة الزاب، وقد شجعت حركة أبي الورد وأبي محمد السفياني القبائل العربية في الجزيرة للتحرك ضد العباسيين فحاصروا حامية حران المكونة من ثلاثة آلاف جندي، وجاءهم التأييد من محمد بن مسلمة بن عبد الملك، ونظراً لعدم وجود قيادة للحركة لذلك كان حصارهم غير مجد فاضطروا إلى تنصيب إسحاق بن مسلم العقيلي –وهو أحد شيوخ القبائل– رئيساً لهم، فأعاد الحصار على حران من جديد لكن الخليفة أبا العباس أرسل تعزيزات جديدة بقيادة أخيه أبي جعفر المنصور من واسط الذي وجد الحركة شملت الرقة وقرقيسيا والرهة، فلم يستطيع اقتحام تلك المدن، وفي الوقت نفسه لم يستطع إسحاق العقيلي من اقتحام حران لذلك رحل بقواته الرها عام ١٣٣هـ/٧٥٠م وانضم إليه أخوه بكار بن مسلم فأرسله إلى دارا وماردين، مما شجع قبائل ربيعه مع شيخها بريكة بالانضمام إليه، لكن سرعان ما اصطدموا بالجيش العباسي، فكانت المعركة التي انتهت بمقتل بريكة وانهزم بكار إلى أخيه في الرها، فحاصر الأمير أبو جعفر الرها، عند ذلك أرسل الخليفة أبو العباس عمه عبد الله بن علي والي الشام إلى سماسياط لمواجهة قوات إسحاق، فعسكر بإزائها في الجانب الآخر من نهر الفرات، وفي الوقت نفسه وصل الأمير أبو جعفر إلى سمسياط، وتمت محاصرة قوات إسحاق لمدة سبعة أشهر، وفي النهاية طلب إسحاق العقيلي الأمان، وبذلك انتهت حركات الجزيرة الموالية للأمويين ضد الحكم العباسي.

سادساً: حركات العلويين:

١- حركة محمد بن عبد الله الحسني في الحجاز:

عندما ظفر العباسيون بالخلافة استمر العلويون في موقفهم المعارض الذي كانوا قد اتخذوه أيام الأمويين، لأنهم عدوا أنفسهم أحق بالخلافة من العباسيين، وأنهم أي العباسيين سلبوهم حقاً كان حسب اعتقادهم لهم، فبدأوا دور معارضة جديدة وشاقة ضد العباسيين.

إلا أن العلويين لم يكونوا متحدين في جبهة واحدة تنظم معارضتهم فقد كانوا فرعين الفرع الحسني ويتزعمه عبد الله بن الحسن الذي كان أشد العلويين عداوة للعباسيين، ثم الفرع الحسيني الذي تزعمه جعفر الصادق الذي كان مسالماً لا يتدخل في السياسة بل انشغل بالفقه والمسائل الدينية.

أما العباسيون فقد بدأوا ينظرون للعلويين نظرة شك وتحسب باعتبارهم مصدر خطر على الدولة الجديدة، ويتأتى خطرهم من ناحيتين الأولى معارضتهم الذاتية للعباسيين، والثانية أنهم أصبحوا رمزاً وملجأً لكل المعارضين، والمتذمرين سواء كانوا يؤمنون بالقضية العلوية أم لم يكونوا ممن يؤمنون بها.

ولابد من الإشارة هنا إلى (مؤتمر الأبواء) الذي عقده الهاشميون من العلويين والعباسيين قرب مكة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م، وذلك لفرض الاتفاق على شخصية هاشمية يبايعونها، خاصة عندما رأوا اختلال أمر بني أمية على إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م. وقد حضر هذا الاجتماع على ما تشير إليه الروايات التاريخية من العلويين جعفر بن محمد الصادق وعبد الله بن الحسن المحض، وأبناه محمد للخلافة، وطلب من الحاضرين مبايعته، ولكن

المجتمعين لم يستجيبوا لطلبه وانفض الاجتماع دون اتخاذ قرار لاختلاف وجهات النظر على أصدق الروايات التاريخية، فقد عارض جعفر الصادق طلب عبد الله المحض بشدة ونهى الحاضرين عن البيعة لابنه محمد، كما أنه تنبأ على حد زعم رواية عباسية بأن الخلافة ستؤول لبني العباس وخص منهم أبا العباس وأبا جعفر، ثم إن إبراهيم الإمام واجه الاقتراح الحسني بالرفض.

وقد اختلفت آراء المؤرخين ذو الميول العلوية والعباسية حول هذا الاجتماع إذ اتخذوا منه مصدراً لدعواتهم المتنافسة، فالحسنيون ابتدعوا رواية فحواها أن المجتمعين بايعوا محمد النفس الزكية، وقد قابلهم العباسيون في رواية وهي أن إبراهيم الإمام انسحب من الاجتماع بعد أن أتاه رسول من خراسان يخبره بأن شيعته في خراسان يدعون له، وأن الدعوة العباسية تحقق نجاحاً ملحوظاً.

ومهما يكن فإن الذي يهمنا في هذا المجال أن البيعة لمحمد (النفس الزكية) لم تتم فعلاً، وإنما كانت هذه الروايات مجرد تبرير حركته فيما بعد.

عندما بويع أبو العباس بالخلافة أعلن بأن الخلافة عباسية وستبقى عباسية، وأنكر بصورة غير مباشرة أن يكون العلويون أحق بها من خلال خطبته الأولى التي ألقاها في الكوفة، ولكن خطبته هذه كان فيها نوع من المرونة السياسية في محاولتها التوفيق بين العلويين والعباسيين،وقد أكد عمه داود بن علي على نفس المفاهيم، ووضع سياسة العباسيين إذ قال: "إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم.."، فكان الأذى الذي أصاب العلويين أيام الأمويين من الدوافع التي برر بها العباسيون خروجهم على الأمويين، وعندما أتم داود بن علي خطبته السياسية لم ينس أن

يشيد بعلي ابن أبي طالب ﷺ حيث قال: "ألا وأنه ما صعد منبركم هـــذا بعـد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن محمد".

لقد حاول الخليفة أبو العباس ومن خلال مدة حكمه القصيرة خلق جو من الوفاق الودي الهاشمي (العباسي العلوي)، فيلاحظ مثـــلاً أنـــه تغـــاضى عـــن اتصالات يزيد بن هبيرة بمحمد النفس الزكية وتغاضى عن مراسلات أبي سلمة الخلال مع العلويين.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما بويع أبو العباس بالخلافة لم يحضر عبد الله ابن الحسن مبرراً ذلك بمرضه، مما يدل على أنه كان مصمماً على العمل على إسناد الخلافة لابنه محمد، ثم أن ابنه محمداً وإبراهيم امتنعا عن مبايعـــة أبـــي العباس.

وقد عض الخليفة أبو العباس النظر عن موقفهم هذا كذلك، واتبع معـــهم أسلوب المصانعة واللين والمساومة وتحاشى الاصطدام معهم، وقد أكرمهم غاية الإكرام وكان ملاطفاً لعبد الله بن الحسن بالرغم من أن عبد الله المحض كـــان ينتهز أي فرصة لإظهار امتعاضه من الوضع الجديد، لقد كان لسياســـة أبـــي العباس هذه نتائج طيبة إذ حصل من عبد الله بن الحسن على الوعد التالي: "يـــا أمير المؤمنين لك عهد الله وميثاقه ألاّ ترى منهما أي (ولديه محمد النفس الزكية وإبراهيم) شيئاً تكرهه ما كان محمد في الدنيا"، فطفئ أمر محمد في خلافة أبـــي العباس فلم يظهر منه شيء.

ويرى الدكتور فاروق عمر بأن الخليفة أبا العباس ومن خلال سياسته التوفيقية المرنة مع العلويين أراد أن يعطي للدولة الجديدة فرصة لكي تقوم بتثبيت نفسها.

وقد تغير موقف الخلافة على عهد المنصور، حيث اتخذ سياسة الحزم والشدة اتجاه المعارضة، ومن ضمنها الحركة العلوية الحسنية، في الوقت الذي أصبح محمد النفس الزكية رمزاً للمعارضة للحكم العباسي، وقد نبه والي خراسان عبد الملك الأزدي الخليفة المنصور بتصاعد التأييد لمحمد النفس الزكية في خراسان، خصوصاً أن محمد النفس الزكية أرسل أولاده وبعضاً من إخوته إلى الأمصار للحصول على المؤيدين، وقد تعقد الموقف عندما لم يحضر محمد وأخوه إبراهيم إلى مجلس الخليفة في موسم حج عام ١٣٦هـ/٧٥٣م، مما دعا الخليفة إلى الاستفسار عنهما، ثم خصص لأهل المدينة العطاء، وأمر واليه بعدم تسليمه لهما، ما لم يحضرا شخصياً، ومع ذلك بقيا مختفين عن الأنظار بالرغم من الرقابة الشديدة التي فرضها الوالي الجديد الفضل العباسي، لقد عد الخليفة المنصور موقف آل الحسن هذا بمثابة إعلان الثورة والعصيان ضد الحكم العباسي، وقد عبر الخليفة عن هذا الموقف بقوله: "إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلاّ كيداً لملكنا واغتياله". لذلك وضع آل الحسن تحت الرقابة الشديدة، وأخذ يسأل الهاشميين عنهما، فلم يحصل على أية نتيجة.

وعندما تأكد الخليفة عن طريق عيونه مشاركة عبد الله الحسني في استتار ولديه، قرر السفر إلى الحجاز عام ١٤٠هـ/٧٥٧م ليطلع بنفسه على الوضع السياسي وقد حاول الخليفة معرفة مكانهما فلم يفلح فانعدمت بالتالي الثقة بين الطرفين، فقرر اعتقال عبد الله الحسني وأهله، والعودة إلى العراق، وقد عين الخليفة عدة ولاة على الحجاز، كنت مهمتهم الرئيسية هي التعرف على

مكان محمد وإبراهيم، فضلاً عن متابعة المنصور بنفسه هذا الأمر، وأخيراً قرر الخليفة تعيين رياح المري والياً على الحجاز وهو رجل من قيس وغير معروف، وأمره بالتشدد على بني الحسن، وبالعنف على أهل المدينة، لكن جهوده لن تثمر، عندها أمره الخليفة باعتقال ثلاثة عشر رجلاً من بني الحسن.

ثم قرر الخليفة الذهاب إلى الحج عام ١٤٤هـ/٧٦١ لعله يقنع عبد الله الحسني بتسليم ولديه، إلا أن محاولته باءت بالفشل مرة أخرى، ولما عاد إلى العراق أخذ معه بني الحسن مقيدين وسجنهم في هاشمية الكوفة، ولما تحرك أنصار محمد النفس الزكية في خراسان قام الخليفة بقتل محمد العثماني، وكان أخاً لعبد الله الحسني لأمه، وأرسل رأسه إلى خراسان، ومعه رجال يشهدون أنه رأس محمد النفس الزكية، وربما يعود السبب في قتله إلى شعبيته لدى أهل الشام، وبعد ذلك توفي عبد الله الحسني في الحبس عام ١٤٥هـ/٧٦٢م.

وفي رجب من العام المذكور ظهر محمد فجأة ومعه مائة وخمسون رجلاً، فسيطروا على السجن، وأطلقوا سراح المعتقلين وسيطروا على بيت المال وبعد ذلك اعتقلوا الوالي رياح المري وأعوانه، وقد تضافرت جملة عوامل في حمل محمد النفس الزكية إلى الإسراع في إعلان حركته فجأة منها القبض على والده وأهل بيته والخوف على مصيرهم، ثم اعتقال أخيه موسى وإرساله إلى العراق، وعلمه بأنه سيغتال في الطريق، لذلك تحرك بسرعة لإنقاذه، وربما لعبت الأخبار التي وصلته بموت والده في السجن دوراً في إظهار نفسه بهذه السرعة، على أنا يجب أن لا نغفل دور أهل المدينة في الضغط عليه لكونهم بدأوا يعانون من السياسة التعسفية للوالي تجاههم فضلاً عن الخطة التي اتبعها الخليفة المنصور في دفع محمد للظهور بهذه السرعة، ذلك أنه أوعز إلى بعض قواد الجيش بمراسلته وإيهامه بأنهم على استعداد للوقوف

إلى جانبه، وقام الخليفة بنفسه بتزوير بعض الكتب بهذا الشأن، وفي رواية أن المنصور قال عند ظهور محمد "أنا أبو جعفر أخرجت الثعلب من وكره".

ومهما يكن من أمر فقد ساد المدينة جو من الشائعات، وبادر الناس إلى شراء الطعام لتجنب الحصار الاقتصادي المتوقع، وقد حصل محمد على تأييد أهل المدينة له وأحكم سيطرته على المدينة، وعين والياً عليها، وقاضياً وصاحب شرطة وعلى الديوان أيضاً وبعبارة أخرى شكل حكومة في المدينة، ثم حاول السيطرة على المناطق المجاورة، فأرسل والياً إلى مكة واليمن والشام، أما الخليفة المنصور فإنه لما سمع بتحرك محمد النفس الزكية استشار بعض صحابته، وقرر ضرب الحصار الاقتصادي على المدينة، وأمر عامله على مصر بقطع الميرة عن الحرمين، وأمر واليه على الجزيرة بإرسال المدد إليه،وفي الوقت نفسه دخل بمراسلات مع محمد النفس الزكية ليعطي نفسه الفرصة في ترتيب قواته ووضع الخطط اللازمة لإخماد الحركة.

ففي الرسالة الأولى التي وجهها الخليفة، حملت في طياتها التهديد والترغيب، واعتبر محمد النفس الزكية من الخارجين على الدولة المستحقين للقتل، ثم عرض عليه الأمان له ولأهل بيته ومن تبعه إن هو سلم نفسه للسلطة، أما محمد فإنه لقب نفسه بالمهدي، لجذب الأنصار والمؤيدين وعرض على الخليفة الأمان أيضاً، ثم أوضح أحقيته بالخلافة، مستنداً إلى حق الوراثة، ثم انتقل بعدها إلى المفاخرة بالأنساب والأحساب، مؤكداً شرف نسبه من جهة النساء معرضاً بجد الخليفة العباس بأنه كان من بين الطرداء الطلقاء واللعناء.

وحين وصل الرد إلى الخليفة قام بنفسه بكتابة الرد عليها، واستهله بدحض الحجة القائمة على قرابة النسا، مؤكداً حق العم بميراث ابن الأخ، واستند أيضاً إلى حق الحرمة، لأن العباس كان مسؤولاً عن سقاية الحجاج في

الكعبة، وتعمد الخليفة امتداح الفرع الحسيني، ففضل علي زين العابدين على عبد الله الحسني، وجعفر الصادق على محمد النفس الزكية بصورة غير مباشرة، وأخيراً تطرق الخليفة إلى مسألة مهمة وهي أن الحق جاء عن طريق (حق الثورة) ذلك أن العلويين حاولوا نيل الخلافة لكنهم فشلوا، بينما نالها العباسيون بعد نضال طويل وعن طريق ثورة مسلحة، فالخلافة إذن من حقهم.

إن النزاع بين الطرفين لم يحسم بهذه الرسائل، لذلك استدعى المنصور بعد استقراره في الكوفة ولي العهد عيسى بن موسى، وبعد أن شاوره، استقر رأيه على توجيهه على رأس قوة مكونة من أربعة آلاف فارس وألفي راجل، أتبعه بقوة أخرى على رأسها حميد بن قحطبة الطائي، إن اختيار عيسى بن موسى ربما كان الغرض منه تحقيق توازن في شخصي القائدين المتحاربين لكونهما هاشميين، وربما يؤدي إلى انحياز بعض وجوه أهل المدينة إلى جانب العباسيين، فضلاً عن هدف آخر، وهو رغبة الخليفة في التخلص من ولي العهد لصالح ابنه المهدي في حالة قتل ولي العهد السابق في تلك المواجهة.

تحرك عيسى بن موسى بقواته، فلما وصل منتصف الطريق بين الكوفة ومكة كتب إلى بعض وجوه أهل المدينة، فخرج جماعة منهم فالتحقوا بصفوفه، أما محمد النفس الزكية، فإنه استشار أصحابه، حول الخروج من المدينة لملاقاة القوة العباسية، أم البقاء داخلها، وأخيراً قرر قبول رأي من قال: أن يخندق على نفسه، فضلاً عن ظهور بوادر المنافسة القبلية بين أتباعه من جهينة وقيس، وعند وصول القوات العباسية إلى مشارف المدينة جمع محمد أتباعه ومؤيديه، وألقى فيهم خطبة، أبرز ما فيها أنه أحلهم من بيعته، فهو من ناحية ادعى أنه المهدي وأنه أحق الناس بالخلافة بسبب نسبه، وفي خطبته جعل هذا الأمر من حق المهاجرين والأنصار، وبذلك تخلى عن أهم ما كان يستند إليه من مبادئ،

ثم أنه سمح لمن يرغب عن مؤيديه في الابتعاد عن الصراع، وبذلك فسح المجال لأن يتخلى عنه أغلب أتباعه.

ومهما يكن من أمر، فقد زحف الجيش العباسي وضرب الحصار على المدينة من ثلاث جهات وترك الجهة الرابعة لمن يرغب في الهرب منها، فلم يصمد محمد طويلاً، واشتد القتال، ثم قتل محمد مع بعض أصحابه المخلصين، وأرسل رأسه إلى الخليفة المنصور، وصودرت أموال بني الحسن، وساد المدينة فترة ليست بالقصيرة جو من عدم الاستقرار.

٢ـ حركة إبراهيم الحسني في البصرة:

كان المفروض أن تفجر حركتا الأخوين محمد وإبراهيم في وقت واحد في المدينة والبصرة، إلا أن ظروفاً معينة حتمت تأخير حركة إبراهيم، لعل أهمها مرض إبراهيم بالجدري، أو أن محمد تحرك قبل الموعد المتفق عليه تحت ضغط إجراءات الخليفة المنصور، أو ربما زواج إبراهيم كان السبب في تأخيره، ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم أخذ يدعو سراً في البصرة فاستجاب له قوم بلغوا أربعة آلاف منهم كثير من المعتزلة والزيدية، وبعض الفقهاء وقسم من أصحاب الحديث، وبذلك شكلوا جبهة معارضة واسعة ضد الحكم العباسي فضلاً عن عدم قيام الوالي العباسي باتخاذ إجراءات رادعة ضد إبراهيم، فاستطاع الأخير من إلقاء القبض على الوالي والاستيلاء على مخزن السلاح والسيطرة على دار الإمارة، ثم مد نفوذه إلى الأحواز.

لقد شرع الخليفة المنصور باتخاذ إجراءات وتدابير سريعة وشديدة لمواجهة الموقف، فأصدر أمره بمنع التجول في الكوفة ليلاً، ولجأ إلى خدع مبتكرة وناجحة حيث كان يأمر كتائب من الجند أن تخرج بالليل وتعود في

الصبح وهكذا، ثم أمر بإشعال النيران ليلاً وفي مناطق مختلفة من المدينة، فأعطى انطباعاً بقوة وضعه العسكري، فلم يتحرك أهل الكوفة على نطاق واسع -لتأييد إبراهيم- بعد ذلك اتخذ الخليفة بعض التدابير الفعلية لمجابهة حركة إبراهيم، فأرسل عدة كتب إلى قواده وولاته بإرسال تعزيزات إلى الكوفة، فجاءته التعزيزات من المدينة، والموصل والري والتحق به بعض معارضي إبراهيم في البصرة، واستطاع القائد خازم التميمي من اختلال الأحواز وانتزاعها من قائد إبراهيم، ثم استطاع القائد عامر بن إسماعيل من إشغال قوات إبراهيم التي اختلت واسط.

ولما وصلت القوات العباسية بقيادة عيسى بن موسى من المدينة إلى الكوفة، كلفه الخليفة بترأس القوات العسكرية للقضاء على إبراهيم وجيشه، وشكل الخليفة جيشاً جديداً قوامه ١٥ ألف مقاتل، في الوقت الذي دب فيه الخلاف بين أصحاب إبراهيم حول البقاء في البصرة أو التحرك نحو الكوفة، وأخيراً استقر رأيه في التحرك نحو الكوفة، فعسكر بقواته في منطقة باخمري، ثم دب خلاف شديد مجدداً في جيش إبراهيم وبالذات بين البصريين والكوفيين مما أثر بالتالي على سير المعركة، فضلاً عن الهجوم الفجائي من الخلف الذي قامت به قسم من القوات العباسية، بحيث طوقت قوات إبراهيم، وقتل إبراهيم في المعركة وأرسل رأسه إلى الخليفة.

لقد ساد جو من عدم الاستقرار في البصرة بسبب إجراءات الخليفة المنصور ضد مؤيدي إبراهيم في الوقت الذي كانت علامات الانتعاش الاقتصادي تظهر فيها قبل حركة إبراهيم، لكون أهلها تجار يحبذون الاستقرار ويتجنبون المشاكل السياسية.

٣ـ حركة الحسين بن علي الحسن الحسني:

حاول الخليفة المهدي أن يرضي المعارضة ومن ضمنهم العلويون وما توزيعه الهدايا والأعطيات على العلويين وأهل الحجاز، إلا ترجمةً للسياسة الجديدة التي انتهجها الخليفة المهدي، فضلاً عن أمره بفك الحصار الاقتصادي المفروض على الحجاز منذ حركة محمد النفس الزكية، فضلاً عن تعيينه يعقوب ابن داود المعروف بميوله العلوية وزيراً له، لكن هذه السياسة المرنة تبدلت بمجيء موسى الهادي إلى الخلافة عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م حيث اتبع سياسة الشدة والعنف وأمر بإيقاف العطاء للعلويين في المدينة، ثم تأزم الوضع نتيجة لحزم الوالي الجديد ضد مجموعة من العلويين شربوا النبيذ لكن توسط الحسين لدى الوالي أدى إلى إطلاق سراحهم من السجن بشرط أن يكفل بعضهم بعضاً، وفي تلك الأثناء فقد الحسين بن محمد الحسني وكان كفيله الحسين بن علي الحسني، فلم يستطيع إحضاره فأغلظ الوالي له القول، وفي رواية أن الحسين الحسني كان قد أعد العدة للثورة قبل فترة ليست بالقصيرة وكان يستغل موسم الحج ليتصل ببعض الكوفيين الذين أيدوه لذلك واعدهم على إعلان الحركة في حج عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م فاجتمعوا في المدينة واقتحموا المسجد تحت شعار (للمرتضى من آل محمد) واتخذ البياض شعاراً له معارضاً للسواد شعار العباسيين، لكن القائد العباسي اقتحم عليهم المسجد شاهراً سيفه لكنه قتل قبل أن يقضي عليهم.

لم يجد الحسين الحسني تجاوباً وتأييداً من أهل المدينة، ولقلة عدد اتباعه واجتماع العباسيين بأعداد كبيرة قرر الذهاب إلى مكة وفي تلك الأثناء وصلت أخبار الحركة إلى الخليفة الهادي فعين محمد بن سليمان بن علي مسؤولاً عن القضاء عليها، لكن الحسين حصل على تأييد واسع من أهل مكة والحجاز إلا أن

العضد الفعلي جاءه من خمسمائة فرد منهم وهو عدد قليل بالقياس إلى القوة العباسية المتواجدة في مكة، ومهما يكن من أمر فإن المواجهة تمت بين القوتين يوم التروية ٨ ذي الحجة في وادي فخ، وقتل الحسين بن علي مع مائة من أنصاره، وهرب الباقون.

سابعاً: حركات الخوارج

الخوارج وهم الفئة التي خرجت على الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بعد معركة صفين سنة ٣٧هـ حيث لم ترض بالتحكيم رافعة شعار لا حكم إلا الله ولحقوا بحروراء وهي قرية من قرى الكوفة وأصبحت لهم نظرية في الخلافة حيث أنهم جوزوا أن يكون الخليفة من غير قريش مهما كان أصله أو جنسه.

١- خوارج الجزيرة الفراتية:

لقد عارض الخوارج الخلافة العباسية للأسباب نفسها التي عارضوا بها الخلافة الأموية، فقد عدوا العباسيين مغتصبين للسلطة، فقامت في الجزيرة عدة حركات للخوارج وهي:

أ- حركة بكر الشيباني (١٣٣هـ/٧٥٠م):

أشعل الخوارج ثورتهم في الجزيرة بقيادة بكر بن حميد الشيباني، فأرسل الوالي أبو جعفر إليهم قوة عسكرية بقيادة محقن بن غزوان إلا أنه انهزم، فأرسل بدله مقاتل العكي على رأس قوة عسكرية، فاستطاع من إلحاق الهزيمة بالخوارج في دارا، لكن بكر اعتصم بجبل دارا، فلحقه العكي واستطاع قتله، ثم هدمت مدن الجزيرة سوى حران.

بـ حركة الملبد الشيباني (١٣٧هـ/٧٥٤م):

أيد حركة الملبد مجموعة من ربيعة والمتذمرين من المناطق المجاورة، واستطاع أن يلحق هزائم متكررة بالجيش العباسي، ودخل الموصل وطرد عاملها، ثم اتجه جنوباً باتجاه تكريت واستطاع إلحاق الهزيمة بالقوة العباسية المرابطة فيها، وبعد ذلك استطاع إلحاق هزائم متكررة بعدة قواد عباسيين إلى أن اضطر والي الجزيرة حميد الطائي من مواجهة حركة الملبد بنفسه، إلا أنه هزم أيضاً وحوصر الوالي مع قواته مما اضطره إلى دفع مائه ألف درهم للملبد مقابل أن يرفع عنه الحصار، فقبلها ثم رحل بقواته، ولما شعر الخليفة المنصور بخطورة حركة الملبد، اهتم بها اهتماماً كبيراً فأرسل قوة عسكرية جديدة قوامها ثمانية آلاف مقاتل بقيادة خازم التميمي ونظلة النهشلي وزهير العامري، وبحركة عسكرية استطاع خازم التميمي من إلحاق أول هزيمة بالملبد، بعد سلسلة من المناوشات قرب الموصل ثم قتل الملبد في المعركة.

جـ حركة حسان الهمداني (١٤٨هـ/٧٦٥م):

أعلن حسان حركته في قرية من قرى الموصل، فتصدت له حامية الموصل التي لم تستطع الثبات أمامه، فتراجعت إلى جسر الموصل فدخل الخوارج سوق الجسر، فأحرقوه ونهبوه، ثم اتجه حسان إلى الرقة، ويبدو أنه سافر إلى السند عن طريق البحر، لعله يجد التأييد هناك، لكنه لم يحصل عليه، لذلك اتصل بخوارج عمان، إلا أنهم لم يؤيدوه، فقرر العودة إلى الموصل ثانية، فتصدت له حامية الموصل من جديد، لكنها انهزمت ثانية، وأسر حسان مجموعة من عسكريي الحامية، وقد وقع حسان بخطأ عندما أعدم أسيراً من

القيسية ولم يعدم الأسير الهمداني، فحدث انشقاق في صفوف الخوارج فتخلى عنه أكثر أتباعه فاضمحلت حركته.

د- حركة عبد السلام بن هاشم اليشكري (١٦٠هـ/٧٧٦م):

أعلن عبد السلام حركته في باجرما في الموصل، وكثر أتباعه وقوي أمره بحيث استطاع إلحاق الهزيمة بمجموعة من القواد العسكريين، ودخل عبد السلام بمراسلات مع الخليفة المهدي، وقد تحرك عبد السلام نحو نصيبين ولوجود قوة عسكرية كبيرة لذلك لم يستطع دخول نصيبين فتحرك بجيشه نحو رأس العين، لكن قبيلة تميم تصدت له مما اضطره إلى التحرك نحو أمد فاصطدم بقوة عباسية، لكنها لم تصمد أمامه، وقتل القائد العباسي في المعركة، وقد اختلفت الروايات في كيفية إنهاء حركة عبد السلام اليشكري، فخليفة بن خياط يذكر أن الخليفة المهدي أرسل القائد داود بن إسماعيل في ألف من مقاتلي الجزيرة، وفيهم بعض الأتراك فأحاطوا بهم ورماهم الأتراك فقتلوهم، على حين يذكر الطبري في حوادث عام ١٦٢هـ/٧٧٨م أن الخليفة المهدي وجه القائد شبيب بن واج بألف فارس، ودفع لكل فارس ألف درهم زيادة في العطاء فقتله شبيب في قنسرين.

٢- خوارج أرمينية وأذربيجان:

كان مسافر بن كثير القصاب السيباني مسيطراً على أرمينية وأذربيجان وممثلاً للضحاك بن قيس الشيباني، زعيم الخوارج في أواخر عهد الأمويين، وفي بداية عهد أبي العباس عين محمد بن صول والياً على الإقليمين، ومعه قوة عسكرية، واستطاع أيضاً من تجنيد أعداد كبيرة من الأذربيجانيين، مما اضطر

مسافر إلى التحصن بقلعة الكلاب، فحاصره الوالي، حتى استطاع قتله، وقتل الكثير من أتباعه، وهرب الباقون إلى جبال سجستان.

٣- خوارج عُمان:

أما في عمان فالمعروف أن المذهب الخارجي انتشر في عدة مناطق في الخليج العربي وتمركز بصورة خاصة بالمذهب الأباضي الخارجي في عُمان وحضرموت، وهناك رواية تشير إلى أن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي كان حامل لواء العلم للمذهب الأباضي وفقيهه ثم حمل لواء هذا المذهب في عُمان الربيع بن حبيب الفراهيدي، وبذلك أصبحت منطقة عُمان تدين لهذا المذهب.

ولما آل الأمر للعباسيين عين أبو العباس والياً على عُمان هو جناح بن عبادة بن قيس الهنائي، وبقي فيها مدة ثم عزله وعين ابنه محمد الهنائي خلفاً له، ففي عهده تمكن الخوارج الأباضية بزعامة الجلندي بن مسعود من السيطرة على البلاد، وصارت الولاية لهم بعد مبايعتهم بالإمامة سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م.

وتجدر الإشارة إلى أن الجلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي الأزدي، كان أباضياً، وهو أحد بني الجلندي بن المستكبر بن سعود ابن الجرار بن عز ابن معولة بن شمس، ملوك عُمان بعد أولاد مالك بن فهم، وكان الجلندي في جيش طالب الحق، فلما قتل جاء إلى عُمان فبايعوه فيها، وكان ذلك سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وكانت إمامه سنتين وشهراً.

لقد تحرك الخوارج الإباضية في عُمان وعلى رأسهم الجلندي بن مسعود، فأرسل الخليفة أبو العباس حملة عسكرية سنة ١٣٤هـ/٧٥٢م بقيادة خازم بن خزيمة التميمي لإعادة السيطرة على البلاد، وتشير غالبية المصادر إلى أن

ترشيخ خازم بن خزيمة لقيادة الحملة ضد الخوارج في عُمان كان الغرض منه التخلص من خازم لقتله أخوال الخليفة أبي العباس وذلك أثناء تتبعه لبسام بن إبراهيم وجماعته، وبناءً على مشورة ونصيحة موسى بن كعب وأبي الجهم بن عطية للخليفة أبي العباس، بأن له طاعة وسابقة في الدعوة، عدل الخليفة أبو العباس عن قتل خازم واستجاب لمشاورة الذين أشاروا عليه بتوجيهه إلى من بعمان من الخوارج أي الجلندي وأصحابه، وإلى الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان الذين كانوا مع شيبان عبد العزيز اليشكري.

فجهز أبو العباس خازم بسبعمائة رجل، وقد أعد سليمان بن علي الوالي على البصرة بأمر الخليفة أبي العباس السفن لحمل خازم التميمي وأتباعه إلى جزيرة ابن كاوان، ولما وصل خازم بن خزيمة أرسى السفن في جزيرة ابن كاوان ثم أرسل قوة مكونة من خمسمائة رجل بقيادة نظلة بن نعيم النهشلي لمقاتلة الخوارج الصفرية، وعلى رأسهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري فاستطاع نظلة أن يدحر شيبان اليشكري الذي لم يتمكن من المقاومة والصمود أمام القوة العباسية فانسحب هو وأتباعه إلى ساحل عُمان، وفي هذه المنطقة اشتبك الأباضية والصفرية الذين لم يستطيعوا الاتفاق على مجابهة العباسيين في معركة حاسمة انتهت بانتصار الخوارج الأباضية، إذ تمكن الجلندي بن مسعود من قتل شيبان اليشكري والعديد من أتباعه.

أما بالنسبة لخازم بن خزيمة التميمي فقد تحرك مع جيشه بطريق البر ونزل على ساحل عُمان، وفي أول الأمر طلب خازم من الجلندي أن يعترف بالخلافة العباسية وسيتركه وشأنه فامتنع الجلندي ووقعت الحرب، وهذا ربما يدل على أن خازماً أدرك نوايا الخلافة العباسية للتخلص منه بإرساله إلى عُمان فحاول أخذ السمع والطاعة من الأباضية دون قتال، أو يدل على أن الجيش

العباسي جاء ليقاتل الخوارج الصفرية بالدرجة الأولى وليس الأباضية، وأن العباسيين كانوا يدركون اعتدال آراء الأباضية وتقاربها من مذهب جماعة المسلمين، ولذلك لم يشاؤوا محاربتهم بل طلبوا منهم مجرد الاعتراف بخلافة أبي العباس.

ونتيجة لرفض الجلندي وأصحابه الخضوع للخلافة العباسية، فقد جرت معركة شديدة بمنطقة جلفار على ضفة الخليج العربي الغربية، انتصر في بدايتها الأباضية وأكثروا القتل في الجند العباسي وكان فيمن قتل أخو القائد خازم بن خزيمة مسلم أخيه لأمه، وكان على طلائع الجند العباسي نظلة بن نعيم النهشلي مساعداً لخازم بن خزيمة في هذه الحملة، ويشير الطبري أن عدد قتلى الإباضية في هذه المعركة تسعمائة قتيل، وبعد أيام من هذه المعركة استعمل العباسيون أسلوباً جديداً في معاركهم للإباضية بعد أن استعصى عليهم الانتصار على الإباضية وذلك بإحراقهم بيوت الإباضية المصنوعة من الخشب والخلاف، بعد أن وضعوا على رؤوس الرماح المشاقة وهي مادة مصنوعة من الكتان والقطن والشعر المشبع بالنفط أضرموا فيها النار وحرقوا بها بيوت أصحاب الجلندي بن مسعود، ففقدوا توازنهم العسكري وأصبح شغلهم الشاغل في هذه الحالة إنقاذ بيوتهم وعوائلهم، فتمكن العباسيون من الانتصار عليهم بسهولة وقتل الجلندي بن مسعود وعدد كثير من أصحابه، وبعث خازم برؤوسهم عن طريق البصرة إلى أبي العباس، وقد رجعت القوة العباسية وعلى رأسها خازم التميمي بعد أن أقامت عدة أشهر في عمان وبعد أن أزالت الإمامة الأباضية من عُمان سنة ١٣٤هـ/٧٥١م، وبذلك خضعت عُمان رسمياً للدولة العباسية ولكن اسمياً.

٤- خوارج إيران:

شهدت إيران بعض حركات الخوارج ففي فارس أعلن مهلهل الحروي حركته أثناء حكم الوالي العباسي إسماعيل بن علي، الذي سار إليه بقواته فقتله بعد معركة قصيرة وأسر قسماً من أتباعه.

وفي سجستان أعلن هناوي السري حركته عام ١٤١هـ/٧٥٨م في فترة حكم واليها العباسي زهير الأزدي، والتحق بصفوف الخوارج الكثير من الأتباع لكنها لم تستمر طويلاً، حيث أخمدت في السنة نفسها، وقد ساد المنطقة الكثير من الاضطرابات لذلك عين الخليفة المنصور معن بن زائدة الشيباني والياً على سجستان عام ١٥١هـ/٧٦٧م، فتمكن من فرض الأمن والنظام. وفي عام ١٦١هـ/٧٧٦م قام يوسف بن إبراهيم البرم بحركة في خراسان معلناً معارضته للحكم العباسي تحت شعار "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" معلناً إنكاره لسيرة الخليفة المهدي والعباسيين، وقد أيدته عناصر كثيرة متذمرة من سياسة المهدي أيضاً، أما الخليفة فقد اضطر إلى سحب قوات عسكرية بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني الذي كان في مواجهة حركة خارجية بقيادة يحيى الشاري، وأمره الخليفة بالتوجه إلى يوسف البرم، فكانت بينهما وقعات أسر على إثرها يوسف البرم وبعض من قواته وأرسل إلى المهدي وحين وصولهم إلى النهروان ركبوا على جمال ووجوههم إلى الوراء تحقيراً لهم، ثم قتلوا وذلك بعد أن كلم الخليفة بكلام غليظ.

٥- خوارج شمال إفريقية:

أعلن الوالي الأموي على إفريقية عبد الرحمن فهري ولاءه للدولة العباسية الجديدة طيلة خلافة أبي العابس، ثم أقره الخليفة المنصور على الولاية،

لكنه رفض تدخل السلطة في الشؤون الداخلية للإقليم، وبذلك ساءت العلاقة بين الوالي والخليفة، ولحدوث اضطرابات داخلية أدت إلى تمكن الخوارج الصفرية بقيادة عبد الملك الورفجوسي من قتل حبيب الفهري الوالي على القيروان وذلك عام ١٤٠هـ/٧٥٧م.

أما الخوارج الإباضية بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى فقد تمكنوا من طرد عامل العباسيين من طرابلس في العام نفسه، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة العباسية، ومع ذلك فإن الاضطرابات استمرت في الإقليم بسبب الصراع بين الخوارج أنفسهم –الخوارج الإباضية والخوارج الصفرية– والتي انتهت بمجابهة عسكرية بينهما وذلك عام ١٤١هـ/٧٥٨م واستيلاء الخوارج الإباضية على القيروان، أما في تلمسان فقد أعلن أبو قرة الصفري نفسه إماماً للخوارج، وبذلك ظهرت دولتان للخوارج في الشمال الإفريقي.

كان على الخليفة المنصور أن يواجه الخوارج في الشمال الإفريقي لذلك جهز حملة عسكرية بقيادة محمد بن الأشعث الخزعي، وعينه والياً على مصر، على أن يكون واجبه إلحاق الهزيمة بأبي الخطاب، وإخضاع الإقليم إلى الحكم العباسي، وقد توالت على الجيش العباسي هزائم متعددة خلال عامي ١٤٢هـ/٧٥٩م – ١٤٣هـ/٧٦٠م إلى أن جاء صفر من عام ١٤٤هـ/٧٦١م فدارت فيه معركة رهبية شرقي طرابلس انتهت بانتصار الجيش العباسي ومقتل أبي الخطاب، وانتهت بالفشل إمدادات الخوارج بقيادة أبي هريرة الزناتي، واحتل ابن الأشعث طرابلس، ثم تمكن من احتلال القيروان بعد أشهر، في الوقت الذي انهزم والي القيروان الخارجي عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب

الأوسط ليؤسس دولة جديدة بعد أن اتخذ تاهرت السفلى عاصمة لدولته، وبذلك خضع معظم شمالي إفريقية للحكومة المركزية.

والواقع لم ينعم هذا الإقليم بالاستقرار، بسبب حدوث انشقاقات بين القادة العسكريين العباسيين أنفسهم فضلاً عن ظهور بوادر التضامن بين الخوارج الإباضية في تاهرت والصفرية في سجلماسة، لذلك أسرع الخليفة المنصور عام ١٥١هـ/٧٦٧م بتعيين عمر بن حفص العتكي المهلبي، وهو من أكفأ الولاة، والياً على إفريقية، الذي بنى مدينة العباسية لأبعاد جيشه الجديد ومنعه من الاختلاط بالسكان القدامى من العرب والبربر،وقد استغل الخوارج الفرصة فهاجموا القيروان وقتلوا حامية المدينة، وفي طرابلس أعاد الخوارج تنظيم أنفسهم واستطاعوا من إلحاق الهزيمة بالحامية العباسية، وربما شجعهم هذا الانتصار على توحيد صفوفهم لطرد العباسيين نهائياً من الإقليم، فاتجه الخوارج نحو الوالي العباسي وجيشه المعسكر في مدينة طبنة، وضربوا الحصار عليها، ولعدم استطاعة الوالي العباسي من مجابهة الخوارج لكثرة عددهم لجأ إلى إغراء بعضهم بالأموال، مما اضطر ما تبقى من الجيش الخوارج إلى الانسحاب، بعدها أسرع الوالي العباسي إلى القيروان عام ١٥٣هـ/٧٧٠م حيث نجح في تفريق حشود الخوارج وقتياً، وذلك بحركة سريعة وفي الوقت نفسه استعد لحصار فرضه الخوارج عليه بقيادة أبي حاتم الكندي، فضلاً عن أخبار الخليفة المنصور بالوضع الصعب الذي تعانيه القوات العباسية، إلا أنه قتل قبل أن تصله الإمدادات وسيطر أبو حاتم على إفريقية.

أدرك الخليفة المنصور خطورة الموقف، وقرر إرسال حملة عسكرية ضخمة بلغت (١٥٠) ألف مقاتل بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي وصرف على تلك

الحملة (٦٣) مليون درهم، وقد رافق الخليفة بنفسه الجيش حتى وصوله القـدس وذلك عام ١٥٤هـ/٧٧١م.

وبعد أن استكمل يزيد المهلبي استعداداته في مصر توجه إلى طرابلـــس بسرعة وبحركة بارعة استطاع أن يكسب ولاء قبيلة مليلة البربرية إلى جانبـه، والتي زودته برجال ومعلومات عن طبيعة المنطقة، وبعد معارك عنيفـة شـن هجوماً شاملاً أدى إلى القضاء على الخوارج ثم تتبع جيوبـهم وتمكـن مـن تصفيتها.

الفصل الخامس: بناء العاصمة بغداد

فرضت الأوضاع السياسية التي واكبت قيام الدولة العباسية على الخليفة العباسي الأول أبي العباس أن لا يتخذ من دمشق عاصمة له وإنما آثر أن يكون العراق مقراً للدولة لأسباب عديدة منها أن دمشق أموية تدين بالولاء للأمويين، ثم إنها بعيدة عن خراسان أحد مراكز أنصار الدعوة العباسية، كما أنها قريبة من حدود الدولة البيزنطية مما يجعلها دائماً في مواجهة غارات البيزنطيين، لذا فقد اقتضى الأمر اتخاذ قاعدة أكثر قرباً من خراسان، وتبعد عن الشام مركز العصبيات العربية التي اعتمد عليها الأمويين.

ومن الجدير بالذكر أن العراق- وهو الآخر أحد مراكز الدعوة العباسية- كان الموطن الأصلي للقبائل العربية التي استوطنت في خراسان فغالبية العرب من أهل خراسان كانوا قد نزحوا إليها من العراق على شكل دفعات متوالية ابتداءً من عصر الفتوحات الإسلامية، حيث يشير ابن المقفع صراحة إلى أصل أهل خراسان العربي من أهل العراق وارتباطهم المتين بأهل الكوفة والبصرة.

وفي رواية للأزدي أن أبا جعفر كان قد أشار على أخيه أبي العباس وهما في طريقهما من الحميمة إلى الكوفة، بأنه لو قدر لهم النجاح والمجيء إلى الحكم فإنهم سوف ينقلون مركز حكمهم وأتباعهم وأنصارهم إلى العراق، من ذلك يتبين أن العباسيين كانوا قد فكروا وقبيل انتصارهم بنقل مركز حكمهم إلى العراق.

ومن أهم الدوافع الرئيسية التي حدت بالعباسيين بتفضيل العراق على غيره من الأقاليم العربية والإسلامية فيعود إلى أن العراق هو الإقليم العربي الأكثر ملاءمة لأن يكون مركز الدولة الذي يجمع إدارات الحكم وأجهزة الإدارة

والجيش خاصة وأن العراق هو مصدر القبائل العربية التي هاجرت إلى خراسان، وثارت على الأمويين وأنهت خلافتهم، وأكثر من ذلك أنهم رأوا أن التحول إلى العراق ضرورة سياسية واقتصادية، إذ أن العراق منذ العصور التاريخية القديمة، كان مركز الحضارة ومواطن الدول القوية مثل السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين، إضافة إلى غنى العراق وتقدم اقتصاده وتجارته وزراعته، مقارنة بالشام في تلك المدة.

لقد كان موضوع اختيار عاصمة جديدة بالنسبة للخليفة العباسي الأول أبي العباس من الأمور المهمة التي شغلت باله في أول عهد الدولة العباسية وسوف نلاحظ أن الخليفة الأول قد تنقل بين عدة مراكز والظاهر أنه لم يستطع حسم أمر اختيار عاصمة لدولته حسماً نهائياً، وكان لقصر خلافته أثر كبير في ذلك.

فعندما تم النصر للجيوش العباسية في العراق بعد هزيمة يزيد بن هبيرة دخل الجيش العباسي مدينة الكوفة، ثم جاء أبو العباس فنزل أول الأمر الكوفة وفيها تمت مبايعته، وقد ألقى خطبته السياسية المشهورة في مسجد الكوفة، وبعد أن ألقى خطبته نزل في حمام أعين بضواحي الكوفة في معسكر أبي سلمة الخلال، واتخذه مقراً له ولجنده وقد أقام فيه أشهراً.

ويبدو أن الخليفة أبا العباس أعرض عن الكوفة وآثر أن يعيش بين جنده في معسكر حمام أعين وذلك لأنه عاصر الدعوة العباسية بطورها السري والعلني، واكتسب مع مرور السنين معرفة بالنوايا الحسنة والسيئة لأهل الكوفة، كل هذه الأمور جعلته يدرك بأن الكوفة تشكل مصدر خطر على السلطة العباسية لأنها ذات ميول علوية، وأن عواطف غالبية سكانها ليست مع العباسيين.

فبدأ أبو العباس بتأسيس مدينة لاتخاذها عاصمة جديدة له، وقد اختار نفس المكان الذي كان أمير العراق الأموي يزيد بن هبيرة قد بنى فيه مدينة، وقد

سمى الخليفة العباسي المدينة الجديدة بـ(الهاشمية) ولم يمكث أبو العباس كثيراً في هذه المدينة إذ يذكر البلاذري بأن الخليفة أبا العباس قد ضاق ذرعاً بالتسمية التي انتشرت بين الناس إذ استمروا على تسميتها القديمة مدينة ابن هبيرة، وهذا ما أزعج الخليفة أبو العباس وجعله يقول: "ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها فرفضها".

واضطر أبو العباس إلى تركها وبنى حيالها مكاناً في ضواحي الكوفة أيضاً سماه (الهاشمية) والتي تعرف بـ(هاشمية الكوفة) وكان ذلك عام ١٣٢هـ/٧٤٩م، ثم تحول من الهاشمية إلى الحيرة، ولكن يبدو أن الحيرة لم تكن إلا مكاناً مؤقتاً نزل به العباسيون ليفكروا في اختيار عاصمة دائمة بحيث تكون أكثر صلاحية وأمن مقاماً من الكوفة، إذ أجمعت الروايات التاريخية على أنه بعد مدة من الوقت وبالتحديد في سنة ١٣٤هـ/٧٥١م انتقل أبو العباس من الحيرة إلى الأنبار وهي مدينة تقع على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ ويشير إلى ذلك الدينوري بقوله: "إن الخليفة أبا العباس استطاب الأنبار فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه وقسمها خططاً بين أصحابه من أهل خراسان، فبنى لنفسه في وسطها قصراً عالياً.. وأقام في تلك المدينة طيلة مدة خلافته"، ولم يشر الدينوري إلى اسم تلك المدينة في حين أشار إلى اسمها اليعقوبية فقال عن أبي العباس أنه انتقل إلى الأنبار فبنى له مدينة على شاطئ الفرات سماها (الهاشمية)، وقد أتفق مع اليعقوبي عدد من المؤرخين الرواد على تلك التسمية.

ويذكر الدكتور طاهر العميد أن السبب الذي جعل الخليفة أبو العباس يطلق اسم الهاشمية على جميع المدن التي شيدها هو حرص الخليفة أبي العباس على تخليد البيت الهاشمي، وتأكيده على حب هذا البيت وطاعته أثراً في إطلاقه ذلك الاسم على جميع تلك المدن.

وقد بقي الخليفة أبو العباس طيلة مدة خلافته في الأنبار حتى توفي فيها، وتشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة أبا العباس بنى في الأنبار قصوراً، ومباني، وقد بقيت آثارها بعد وفاته، كما أنه عوض أصحاب الأراضي التي استملكها في الأنبار أموالاً تعادل أقيامها.

كان للحركة المسلحة التي قام بها الراوندية -وهم الشيعة العباسية- في هاشمية الكوفة ضد الخليفة المنصور، السبب المباشر في التفكير في الانتقال من الكوفة وبناء عاصمة جديدة، يتوفر فيها الأمان، وبعد دراسة دقيقة قرر أن يختار عاصمته في بغداد.

تقع بغداد في منطقة خصبة تتوافر فيها وسائل الإرواء من نهر دجلة ومن الترع التي تستمد مياهها من دجلة والفرات فتسقي الأراضي والمزارع، ثم تصب الماء الزائد في دجلة، وتوفر هذه الأنهار والترع وسائل للمواصلات مع كافة الأقاليم المحيطة بمختلف جهات العراق كما أن شبكة الأنهار والترع تؤمن وسائل دفاعية تقف بوجه الجيوش التي تتقدم لتهديد العاصمة ولا يخفى أن موقع بغداد كان بعيداً عن حدود الدولة البيزنطية التي كانت أقوى دولة تناصب الدولة العباسية العداء ولذلك فإنها كانت في موقع أمين.

وقد أراد المنصور من تأسيس بغداد أن يتخذ مركزاً إدارياً وعسكرياً له ولأتباعه الذين يعتمد عليهم في حكم الدولة، بعد أن قضى على الفتن والثورات الكبرى التي كانت تهدد حكمه، وانصرف إلى تنظيم إدارة الدولة وتأمين الازدهار الاقتصادي والفكري، وتقرير السياسة التي تسير عليها الدولة الجديدة.

بدأ أبو جعفر المنصور بتأسيس عاصمته الجديدة في سنة ١٤٥هـ، وانتقل إليها في سنة ١٤٩هـ وقد سماها مدينة السلام، غير أن الناس ظلوا يسمونها بغداد وهو اسم قديم للرقعة التي أنشئت بغداد فيها، وكانت العاصمة

الجديدة لما أنشئت تضم العناصر المؤيدة لأبي جعفر والذين لا يعادونه ولا يهددونه.

وقد جعل المنصور مدينته مدورة وأحاطها بخندق وسورين ضخمين بينهما فسحة من الأرض، وجعل لها أربعة أبواب متقابلة، وعند كل باب دهليز وعليه قبة ضخمة، وأنشأ في وسطها قصراً فخماً له إيوان كبير وعليه قبة خضراء عالية، ويلاصق هذا القصر مسجد جامع واسع وعدد من الدواوين، ويحيط بهذه الأبنية رحبة ، وبين الرحبة والأسوار تمتد دروب كثيرة مستقيمة تقع عليها طاقات وحوانيت، وزع على حرسه قطائع ليبنوا عليها بيوتهم، ثم مد إليها قناتين تأخذ أحدهما ماءها من نهر الدجيل الذي يقع في شمال المدينة، وتأخذ الثانية من نهر كرخايا الواقع في جنوبي المدينة، وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في شوارع والدروب ويجري فيها الماء صيفاً وشتاءً دون انقطاع.

لقد كانت مدينة المنصور صغيرة المساحة، إذ لم يتجاوز قطرها نصف كيلومتر، كما أن رقعتها كانت محصورة بالأسوار الضخمة والخنادق التي تحد من توسعها، لذلك أقطع المنصور حاشيته وأتباعه وجيشه الأراضي التي حول المدينة المدورة، ففي الأطراف الشرقية، وهي شقة ضيقة من الأراضي محصورة بينها وبين دجلة، أقطع أولاده قطائع شيدوا لهم فيها قصوراً، كما أن المنصور بنى له هناك قصر الخلد، أما الأراضي الواقعة في جنوب المدينة المدورة أو المحصورة بينها وبين الصراة، فقد وزعها على عدد من رجال الأسرة العباسية، وأصحابه، وهم رجال استقدمهم من الأنبار والبصرة والكوفة والأحواز ، أما الأطراف الغربية والشمالية من المدينة المدورة فقد أوطنها الجماعات العربية التي جاءت من خراسان وبلاد ما وراء النهر، وجعل في كل ربع سوقاً فيه حوانيت للسلع التي يحتاجها السكان من منطقتهم.

ولما تم تأسيس مدينة المنصور ازدهرت فيها الحياة الاقتصادية وهـاجر إليها من مختلف الجهات عدد كبير من الناس لممارسة نشـاطهم الاقتصـادي، وكان هدفهم الرئيس هو التجارة والربح وقد هـدد تزايدهـم بتبديـل الطـابع العسكري والإداري الصارم الذي أراده المنصور لمدينته كما أنهم أصبحوا على مر الأيام خطراً يهدد الأمن في المدينة المدورة، وقد شـعر المنصـور بـهذه الأخطار، فأمر في سنة ١٥٧هـ بنقل الأسواق إلى الكرخ التي تقـع جنـوب المدينة المدورة، وقد نمت الكرخ بسرعة كبيرة وكثرت أسواقها وازداد سـكانها وصارت من أغنى وأكبر المحلات ببغداد، كما أصبحت من أهم مراكز الحركة الفكرية حيث استوطنها عدد كبير من العلماء.

أما الرصافة فقد بناها المنصور في الجانب الشرقي من دجلة، في سـنة ١٥١هـ بعد وصول المهدي إلى بغداد مع جيشه، وقد أحاطها بسور وخنـدق وجعل لها ميداناً وبستاناً، وأجرى لها الماء وبنى المهدي فيها قصراً، كما أعطى عدداً من كبار رجال الأسرة العباسية أراضي شيدوا لهم فيها قصـوراً،وجعـل فيها عدة أسواق، وقد نمت الرصافة وازدهرت ولكنها لم تصل فـي عمرانـها المستوى الذي وصله الجانب الغربي وخاصة الكرخ.

لقد نمت بغداد بسرعة وأصبحت من أعظم مراكز الحيـاة الاقتصاديـة، فازداد إقبال الناس على الاستيطان فيها والمساهمة في النشاط الاقتصادي فيـها، فزادت ثروتها وتقدمت فيها الحضارة، وتقاطر إليها العلماء والمفكرون حتـى صارت حاضرة الدنيا وأعظم المدن العربية الإسلامية ورمز عـز العباسـيين وعظمة دولتهم.

الفصل السادس: السياسة الخارجية

أولاً: العلاقات العباسية البيزنطية

ورث العباسيون النزاع مع البيزنطيين وهو النزاع كان السمة الغالبة على العلاقات بين العرب المسلمين والروم، نظراً لوجود مصالح عديدة متعارضة لعل منها إضافة إلى فريضة الجهاد والتي تعني توسيع دار الإسلام والحفاظ عليه، المصالح الاقتصادية التي نتجت من الإشراف على طرق التجارة بين الشرق والغرب، مثل طريق الحرير الشهير الذي يربط أوروبا بالصين مروراً بالبلاد العربية.

وعندما تم النصر للعباسيين عام ١٣٢هـ/٧٤٩م اتخذوا أول الأمر عدة مراكز لدولتهم في العراق مثل الكوفة والهاشمية والأنبار وغيرها، فأصبح مركز القوة العربية الإسلامية بعيداً نوعاً ما عن القسطنطينية، وصارت وجهة العباسيين تتجه صوب الشرق لتثبيت أركان الدولة،والسيطرة على أقاليم فارس المضطربة بدلاً من الشمال والغرب على عكس ما كان عليه الأمر عندما كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية.

وأصبحت الحروب التي تقوم بين العباسيين والبيزنطيين لا تعتمد على الفتح المنظم بل أخذت في كثير من الأحيان طابع الهجوم، واجتياح المدن الحدودية والحصون القائمة بين الدولتين، ثم العودة والانسحاب داخل الحدود، وهذا يعني أن الحرب العباسية البيزنطية استمرت بين المد والجزر، على أنها بصفة عامة كانت غزوات لتخريب الدفعات والحصون وإرهاب العدو وإضعافه.

لقد انتهز الروم فرصة انشغال الخليفة أبي العباس بالاضطرابات والمشاكل الداخلية التي واكبت قيام الدولة العباسية، فقاموا بمهاجمة المناطق الشمالية للدولة الإسلامية وهي منطقة الثغور والعواصم، ويرى البلاذري أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس شن حملة عسكرية على ملطية، إذ هاجم أول الأمر كمنخ،وحاصرها، فاستغاث أهل كمنخ بأهل ملطية فأنجدوهم بثمانمائة مقاتل، إلا أن البيزنطيين هزموهم فاستسلم أهل كمنخ، ثم توجه قسطنطين الخامس نحو ملطية فحاصرها، فتصدى له أهلها وقاوموه ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار بالمقاومة لشدة هجمات الروم كما أنهم لم يجدوا مساعدة من والي الجزيرة موسى بن كعب، لذلك استسلم أهل ملطية وقبلوا الأمان الذي عرضه عليهم الإمبراطور قسطنطين الخامس إذ قال لهم: "يا أهل ملطية إني لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم انزلوا على الأمان وأخلوا المدينة"، ثم أخرجهم البيزنطيون من المدينة فتفرقوا في الجزيرة.

ويلاحظ أن الخليفة أبا العباس لم يتخذ أي إجراء اتجاه تلك الغزوة بسبب اهتمامه الذي كان منصباً على الجبهة الداخلية، لتثبيت الاستقرار في الدولة الفتية، والقضاء على الحركات المناوئة، تاركاً سياسة الجهاد لفرصة مناسبة.

ويبدو أن الخليفة أبا العباس أدرك في أواخر أيامه أن الثغور العربية الإسلامية قد تتعرض لكارثة بسبب استمرار هجمات البيزنطيين واستفحال أمرهم، فوجه حملة عسكرية لغزو بلاد الروم بقيادة عمه عبد الله بن علي الذي كان والياً على بلاد الشام آنذاك، حيث سار بقواته لتنفيذ تلك المهمة، ولكن وفاة الخليفة أبي العباس أجلت تنفيذها، إذ أن عبد الله بن علي قطع زحفه وعاد إلى الشام مسرعاً، وقد بايع لنفسه بالخلافة.

ويظهر من ذلك أن دور العباسيين في مدة حكم الخليفة الأولى أبي العباس كان يتميز بالدفاع فقط عن الثغور الإسلامية، للحفاظ على سلامة حدود الدولة الإسلامية، وتأمين حدود دار الإسلام ، ولم يكن الهجوم والتوسع من مظاهر سياستهم الخارجية في خلال عهد أبي العباس على أقل تقرير، على أن ذلك لا يعني أن الخليفة العباسي الأول أهمل أمر الجهاد ذلك لأن المصادر التاريخية تشير إلى حملات الصوائف وأسماء بعض أمرائها، وبعض من شاركوا فيها سنوياً مما يدل على استمرار الفعاليات العسكرية ضد البيزنطيين ولكن على نطاق محدود.

وفي عام ١٣٨هـ/٧٥٥م أعاد إمبراطور الروم الكرة وهاجم ملطية مرة أخرى، لذلك بدأ الخليفة المنصور بالاهتمام بتحصين الثغور وشحنها بالمقاتلة ضمن خطة عسكرية متكاملة،مع شروعه في إرسال حملات منظمة لمهاجمة حدود الروم، فضلاً عن زيادة العطاء لكل مقاتل ولتخصيص معونة مالية مع تحمل الدولة بناء دور خاصة لهم لإقامة عوائلهم، وجرت في العام نفسه مفاوضات حول تبادل الأسرى تكللت بالنجاح، وعاد أهالي فالقيلا وغيرهم إلى مدنهم، ووضع الخليفة في فالقيلا حامية من سكان الجزيرة.

استمرت العمليات الحربية على الحدود في الأعوام التالية بالرغم من توقفها في بعض السنوات لانشغال الطرفين في أمروهم الداخلية، لكنها على العموم لم تكن جديرة، ولم تحقق أي انتصارات حاسمة.

وقد تصاعدت العمليات الحربية في عهد الخليفة المهدي، فلم تمر سنة إلا وتكون فيها حملة صيفية أو شتوية، فكانت أول حملة في صيف عام ١٥٩هـ/٧٧٦م بقيادة العباس بن محمد، وكان سبب الحملة هو الرد على هجوم الإمبراطور البيزنطي ليو الرابع على سمسياط وأخذه بعض الأسرى، وبالرغم

من وصول القوات العباسية إلى أنقرة إلا أنها لم تحاصرها أو تحاول فتحـــــها، وفي السنة نفسها أسكن الخليفة المهدي ألفي مقاتل في المصيصة، مع أنها كانت مشحونة بالجند والمتطوعين، فضلاً عن ابتدائه في بناء كفربيا.

وقد هاجم إمبراطور الروم الحدود عن طريق درب الحدث فقتل وســــبى وحرقها بالنار، وعند عودته واجهته قوة عباسية لكنه استطاع إلحاق الهزيمـــــة بها، لذلك ففي عام ١٦٢هـــ/٧٧٩م شن العباسيون حملتين ضـــــد البـــيزنطيين، الأولى بقيادة الحسن بن قحطبة الطائي، انتقم فيها مما فعله الإمبراطور، وأوغل ابنه بالدخول إلى عمورية، وترافق وصوله مع وصول قـــوات والـــده فكـــانت مناوشات بسيطة انسحب على إثرها الجيش العباسي،والثانية كانت من طريـــق فالقيلا بقيادة يزيد السلمي،واستطاع فتح ثلاثة حصون.

لقد انتبه الحسن الطائي بعد قيادته لتلك الحملة إلى وضع الجبهة بحيـــث أقنع الخليفة المهدي بضرورة تحصين طرسوس فوافق الخليفة على ذلك وأمـــره ببناء مدينة الحدث وأسكن فيها مقاتلة من أهل الشام والجزيرة وأعطى لكل فـــرد (٣٠٠) درهم إعانة لهم، ثم بنى مدينة طرسوس.

وفي عام ١٦٣هـــ/٧٨٠م جهز الخليفة المهدي جيشاً كبيراً وعلى رأســـه ابنه الأمير الشاب هارون ومعه كبار القواد، وقضى المهدي شهرين يجهز لهذه الحملة، ورحل الخليفة مع الجيش حتى الموصل، لأهمية هذه الحملـــــة لدوافـــع مختلفة، وقد دخل الجيش العباسي أرض الروم وسيطر على حصن (ســــمالوا) بعد استسلام أهله على شروط، وعاد الجيش المنتصر إلى بغداد.

وفي عام ١٦٤هـــ/٧٨١م كانت حملة عسكرية بقيادة عبد الكبير بن عبــد الحميد من طريق درب الحدث، لكن القوات العباسية انسحبت بعد المواجهة مـــع القوات البيزنطية لكثرة عددها.

وفي العام التالي كلف المهدي ابنه الأمير هارون بحملة جديدة صرف عليها مبالغ طائلة، وقد توغل الأمير في بلاد الروم مسافة بعيداً جداً، واستولى في طريقه على حصن (ماجدة) ثم التحم الجيش العباسي مع خيالة للجيش البيزنطي، فانهزم الخيالة وبذلك زحف الجيش العباسي على (نغمودية) فانفتح الطريق إلى الشمال نحو القسطنطينية، لكن ظروف إمبراطورية الروم (أيربني -أوغسطة) كانت سيئة وتواجه مصاعب داخلية، ولتوغل الجيش العباسي إلى مناطق بعيدة جداً لذا تم التفاوض حول الصلح، فوافق الأمير هارون عليه، وكانت الشروط أن تكون هدنة لمدة ثلاث سنوات، وأن تدفع الإمبراطورة مبالغ نقدية سنوية، وأن ترسل رسولاً إلى بغداد ومعه الهدايا، فضلاً عن تقديم الأدلاء والغذاء إلى الجيش العباسي في طريق عودته مع تسليم الأسرى لديهم، وعند عودة الجيش إلى بغداد لقب الأمير هارون بـ(الرشيد) وعينه والده ولياً للعهد بعد أخيه موسى، وفي عام ١٦٨هـ/٧٨٥م وقبل انقضاء مدة الصلح نقض الروم الهدنة بين الطرفين على أن خليفة بن خياط أشار إلى حصول تبادل للأسرى في عام ١٦٧هـ/٧٨٤م لكن لا توجد تفصيلات وافية من مصادر تاريخية أخرى، وفي عام ١٦٩هـ/٧٨٦م قاد معيوف بن يحيى حملة عن طريق درب الراهب، فهاجم مدينة (أشنه) واستطاع أن يأسر عدداً من الروم ويستولي على الأموال في الوقت الذي أقبل الروم إلى مدينة الحدث، فهرب واليها مع جنده.

وعلى ذلك يمكن القول أن الاشتباكات الفصلية على الحدود استمرت بين الدولتين في هذه الفترة على أن أهدافها لم تكن ضم أراضي جديدة إلى الدولة العربية الإسلامية كما كان يحدث سابقاً.

ثانياً: موقف العباسيين من الأمويين في الأندلس

لعل أهم حدث يتعلق بالسياسة الخارجية للعصر العباسي الأول هو انفصال الأندلس عن الدولة العربية الإسلامية، فقد كانت الأندلس غارقة ببحر من الخلافات القبلية عندما أعلن العباسيون بدء دولتهم عام ١٣٢هـ/٧٤٩م وقابل العباسيون مشكلات جمة بعد إعلان دولتهم، فصرفهم ذلك عن إخضاع الأندلس لسلطانهم.

وعندما جاء العباسيون إلى الحكم كان عبد الرحمن بن حبيب الفهري والياً على إفريقية،فلما سمع انتصار العباسيين والبيعة للخلفية أبي العباس بادر إلى أبي العباس معترفاً بخلافته،ومعلناً طاعته له، فوافق الخليفة أبو العباس من جهته على إقراره في ولايته، لذا لم يكن هناك ما يدعو إلى حربه.

لقد قام عبد الرحمن بن حبيب بعدة فتوحات، وبالرغم من اعترافه بالخليفة العباسي فقد ساءت علاقته بالعباسيين لأنه رفض مطالبهم المالية، ففي ذلك الوقت وحينما كان ابن حبيب يوسع دائرة نشاطه، بدأت الخلافة العباسية بعد أن شعرت بشيء من الاستقرار توجه أنظارها نحو المغرب في محاولة لإدخاله في سيطرتها المباشرة، ففي سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م وجه الخليفة أبو العباس جيشاً إلى مصر ليخرج بقيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي والي مصر لمدة من ١٣٣هـ-١٦٣هـ إلى المغرب في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م، وكانت الخطة أن يسبق القوات العباسية تنظيم حركة دعاية كبيرة يقوم بها أعوان العباسيين من بني معاوية بن حديج وبني موسى بن نصير لمعرفتهم بالمغرب، ولما لهم فيه من اتباع وأنصار لحث الناس على التمرد ضد عبد الرحمن الفهري، أما عن العملية العسكرية فتقرر أن تكون

مشتركة من القوات البرية والبحرية، وعهد بتنظيم الحملة البحرية إلى المثنى ابن زياد الخثعمي الذي وصل إلى الإسكندرية في شوال من تلك السنة لتجهيز المراكب، ونظراً لوفاة الخليفة أبي العباس لم يقدر لتلك الحملة أن تتم، إذ رجع الدعاة بعد أن كانوا قد وصلوا إلى مدينة سرت، كما عاد أبو عون بالجيش وكان قد وصل إلى برقة، أما عن الأسطول فالظاهر أنه لم يكن قد تجهز بعد.

والذي يهمنا هنا هو أن حملة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي تعني أن العلاقة قد فترت بين الخليفة أبي العابس وعبد الرحمن بن حبيب.

ولابد من الإشارة إلى أنه عندما سقطت الخلافة الأموية بدمشق على أيدي العباسيين أخذ بعض الولاة العباسيين يتعقبون الأمويين ويبطشون بهم، وقد كان أشد هؤلاء قسوة هو عبد الله بن علي حيث أنه دعا العشرات من الأمويين إلى وليمة كبيرة بعد أن أعطاهم الأمان ثم غدر بهم وقتلهم في قلعة على أبي فطرس، وقد نجح بعض الأمويين في النجاة والهرب، ومنهم الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع الفرار إلى المغرب وقد كان معه مولاه بدر فظل عبد الرحمن يتنقل من قبيلة إلى أخرى حتى استقر به المطاف أخيراً عند أخواله في قبيلة (نفرة) إحدى قبائل البربر.

وقد كانت الأندلس في ذلك الوقت تموج بالاضطرابات بسبب الفتن والعصبيات القبلية بين القبائل اليمانية والمضرية، فرأى عبد الرحمن بن معاوية أن يستغل هذه المنازعات القبلية لصالحه، فأرسل مولاه بدراً إلى من بالأندلس من الأمويين وأنصارهم فتوطدت لعبد الرحمن الدعوة واجتمع عليه اليمانية، إذ استطاع بمساعدتهم العبور إلى الأندلس وقد بدأ نفوذه السياسي يقوى تدريجياً حتى انتهى بتشكيل الإمارة الأموية بالأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، ويبدو أن

عبد الرحمن ظل يعترف بالخلافة العباسية من الناحية الشكلية فقط ولم يجرؤ بادئ ذي بدء أن يدعي الخلافة.

استغل الخليفة المنصور العلاء اليحصبي أحد خصوم الأمويين في الأندلس، وأحد وجوهها بعد قيامه بمراسلة الخليفة من إفريقية، واتفقا على أن يثور العلاء في الأندلس ويرفع الشعار الأسود -شعار العباسيين- وأعطاه الخليفة تخويلاً بولاية الأندلس، بعد أن اطمأن العلاء إلى وضعه وتأييد الخليفة له، تحرك بقوات كبيرة إلى الأندلس واستقر في الجنوب الغربي من البلاد وذلك عام ١٤٦هـ/٧٦٣م وأعلن الثورة ورفع الشعار الأسود فاجتمع له خلق كثير، وأيدته الفهرية واليمانية، وبعض الجنود المصريين، أما عبد الرحمن فإنه بادر إلى حشد قواته، وزحف بجيشه وتحصن في (قرمونة) -بين قرطبة وإشبيلية- المنيعة، فلم يستطيع العلاء من اقتحامها بالرغم من تكرار الهجوم عليها، ثم قام عبد الرحمن بهجوم مفاجئ فدارت بين الطرفين معركة ضارية، قتل فيها العلاء ومجموعة كبيرة من قواته وأرسل عبد الرحمن رأس العلاء مع رؤوس أشهر أصحابه إلى القيروان وألقيت بالسوق سراً، ثم حملت بعض تلك الرؤوس واللواء الأسود وكتاب المنصور إلى مكة، وكان المنصور حاجاً في تلك السنة، فلما رأى المنصور ذلك قال: "إنا لله، عرضنا بهذا المسكين للقتل، والحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان -يعني عبد الرحمن".

وفي عام ١٤٩هـ/٧٦٦م أشعل سعيد اليحصبي ثورته غربي إشبيلية ثائراً لليمانية الذين قتلوا مع العلاء، واحتل إشبيلية، فقصده عبد الرحمن فضرب الحصار على سعيد ومنع وصول الإمدادات إليه وتمكن من قتله في المعركة،

وتصفية العناصر التي أيدته، وبذلك انتهت بالفشل أهم محاولة لاسترداد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية.

ثالثاً: العلاقات مع أرمينية والخزر

لم يكن التواجد العربي في إقليم أرمنية بالأمر السهل بسبب وعورة الطرق، وضيق الممرات البرية، ففي عام ١٣٢هـ/٧٤٩م في خلافة أبي العباس تولي أبو جعفر (المنصور) ولاية أرمنية، فقاد عدة حملات بنفسه واستأمن إليه جماعة كانوا في قلعة الكلاب، على أن أخطر ما كانت الخلافة تواجهه هو هجمات الترك والخزر في أرمينية، ففي عام ١٤٢هـ/٧٥٩م هاجم الترك بمساعدة الخزر الأبواب (دربند) فأوقعوا خسائر فادحة بالعرب والمسلمين، وكرروا هجومهم عام ١٤٥هـ/٧٦٢م وقتلوا جماعة كثيرة، وفي عام ١٤٧هـ/٧٦٤م استعد الترك لهجوم جديد بقيادة استرخان الخوارزمي، فوصلت أخبار هذا الهجوم إلى الخليفة، فوجه قوات عسكرية احتلت (تفليس) لكن الترك هاجموا القوة واستطاعوا إلحاق الهزيمة بها، وقتل قائدها حرب الراوندي وفي العام التالي وجه المنصور قوة جديدة بقيادة حميد بن قحطبة الطائي إلى أرمينية، فاضطر الترك إلى الانسحاب بعد أن علموا بها.

وقد أدرك الخليفة المنصور صعوبة السيطرة على الإقليم وضمه نهائياً إلى الدولة العربية الإسلامية، فلما عين يزيد السلمي والياً، شجعه على مصاهرة الخزر، حتى يؤمن شرهم، فاتصل بخاقان الخزر وخطب ابنته خاتون، وتزوجها وبقيت عنده سنتين، وولدت له ابناً توفي وماتت هي في نفاسها، وعندما سمع الخزر بذلك جمعوا قواتهم وقصدوا يزيد من الأبواب، فلم يستطع الوقوف أمامهم لكثرتهم، فأرسل إليه الخليفة تعزيزات على عجل من الشام، ثم

من العراق، فأصبح تعداد الجيش العباسي أكثر من (٦٠) ألف مقاتل على حين كان تعداد جيش الخزر (٢٠٠) ألف مقاتل، فدارت معركة رهيبة تمكن الخزر من إلحاق الهزيمة بالقوات العباسية ثم انسحب الخزر بعد حصولهم على مغانم كثيرة.

لقد كانت إجراءات الخليفة المنصور سريعة، حيث ابتكر نظام الأجناد، ورتب فيه المقاتلة من أهل النجدة من الأقاليم العربية، وبنى عدة حصون، واستقر فيها المقاتلون وأجريت عليهم الرواتب، على أن أرمينية لم تتمتع بالاستقرار، ففي ولاية الحسن الطائي تمرد الصنارية -وهم صنف من السكان المحليين- فلم يستطع الوالي كسر شوكتهم، فأمده الخليفة قوات إضافية عندها استطاع إلحاق الهزيمة بهم، لكن السياسة التعسفية لابن الوالي ضد أحد البطارقة الأرمن كانت السبب في إعلانهم التمرد فجابهتهم القوات العباسية فقتل البطريق وانهزم الباقون.

الباب الثاني

الخلافة العباسية في عصرها الذهبي
(١٧٠هـ ٢٤٧هـ / ٧٨٦م ٨٦١م)

الفصل الأول: التطورات السياسية للخلافة (١٧٠هـ ١٩٨هـ/ ٧٨٦م ٨١٣م)

الفصل الثاني: الحركات العلوية

الفصل الثالث: حركات الخوارج

الفصل الرابع: الحركات الفارسية والانفصالية

الفصل الخامس: سامراء عاصمة جديدة للخلافة

الفصل السادس: العلاقات مع الدولة البيزنطية

الفصل السابع: بوادر تسلط العسكريين

الخلافة العباسية في عصرها الذهبي

(١٧٠هـ ٢٤٧هـ / ٧٨٦م ٨٦١م)

الفصل الأول: التطورات السياسية للخلافة (١٧٠هـ ١٩٨هـ / ٧٨٦م ٨١٣م)

أولاً: عصر الخليفة الرشيد (١٧٠هـ ١٩٣هـ/٧٨٦م - ٨٠٨م)

اعتمد هارون الرشيد في مواجهة أخيه الهادي -بسبب ولاية العهد- على أمه الخيزران، ومؤدبه يحيى البرمكي، الذي سجنه الهادي لتأييده الواسع لهارون، وبعد الموت الغامض للهادي لم ينس الرشيد تلك الخدمات فكان ضعيفاً اتجاه أمه الخيزران، يقول الطبري: "وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها"، ثم خول يحيى البرمكي صلاحيات واسعة، يساعده ولداه جعفر والفضل ولمدة سبع عشرة سنة، يقول اليعقوبي:

"وكان الغالب على الرشيد يحيى بن خالد بن برمك، وجعفر والفضل ابناه، صدراً من خلافته، حتى ما كان له معهم أمر ولا نهي"، على أننا يجب تذكر بأنه كانت هناك كتل أخرى لعبت دورها في خلافة الرشيد، منها كتلة القائد هرثمة بن أعين ففي رواية أنه لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادي أخرج هرثمة بن أعين هارون الرشيد ليلاً فأقعده للخلافة، وكتلة القادة العرب كالفضل بن سليمان الأزدي، ومحمد بن فروخ الأزدي، ويزيد بن مزيد الشيباني، وكتلة أمراء من البيت العباسي كعبد الملك بن صالح العباسي، ثم كتلة الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان.

لقد فوض الرشيد وزيره يحيى البرمكي سلطات واسعة، منها إشرافه على جميع الدواوين وخاطبه الرشيد بقوله: "قلدتك أمر الرعية، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب".

انزعج الرشيد من استبداد البرامكة بالسلطة، حتى أن زوجه زبيدة وبقية الكتل بدأت تحس بالكراهية تجاههم، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله: "إن زبيدة أم الأمين هي الأخرى كانت تكرههم، لأنها تعرف حقيقة أمرهم، ثم آل الربيع وآل الشيباني"، وهناك روايات كثيرة تظهر انزعاج الخليفة الرشيد من تصرفات البرامكة قبل أمره بتصفيتهم منها: عزله للفضل بن يحيى البرمكي عن ولاية خراسان وتعيين منصور الحميري مكانه، وعزله لمحمد بن خالد البرمكي عن الحجابة وتعيين الفضل بن الربيع مكانه وذلك عام ١٧٩هـ/٧٩٥م.

وفي رواية أن الخليفة الرشيد فكر جدياً في تصفية البرامكة قبل تنفيذ الفكرة بأربع سنوات، وقد أصدر الخليفة أمراً إلى حجابه بمنع يحيى البرمكي من الدخول عليه خلافاً لعادته في الدخول على الخليفة بلا إذن، فضلاً عن أمره بعدم القيام ليحيى البرمكي عند دخوله إلى الخليفة، بحيث أحس الناس بتغير الخليفة نحوهم، فأخذوا يكثرون الحديث عنهم، فقال الناس في البرامكة وأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم، وقد مرت عدة مناسبات أخرى أظهر الخليفة امتعاضه من سوء تصرف البرامكة، فقد قال مرة بعد أن خرج جعفر البرمكي: "قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك"، وقد لوحظ على الرشيد استهزاؤه بجعفر عندما يكون جعفر جاداً ويكون الرشيد جاداً عندما يكون جعفر هازلاً.

وفي عام ١٨٧هـ/٨٠٢م أمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكي، وأمر بحبس ولديه يحيى والفضل، وأمر كذلك بتصفية أموالهم، ثم أرسل رأس

جعفر إلى بغداد ونصب على الجسر الأوسط، وفي رواية أن الجثة قطعت ثلاث قطع وتصبت على جسور بغداد.

وقد اختلف المؤرخون في الدوافع التي حملت الخليفة الرشيد على تصفية البرامكة بهذا الشكل، وهم في أوج سيطرتهم، خصوصاً أن الرشيد لم يبح لأحد بتلك الدوافع، على أناّ يجب أن ننبه إلى أن قسماً من الروايات اختلط فيها الخيال والقصص الشعبي، فمن القصص التي أشار إليها الطبري قصة العباسة أخت الرشيد، وزواجها الصوري من جعفر البرمكي، وسند هذه الرواية يشوبه الضعف فضلاً عن مناقشة ابن خلدون لهذه الرواية وتفنيدها، أما ميلهم للعلويين فإنه يشوبه الشك أيضاً، لوجود روايات أخرى تظهر البرامكة وكأنهم أعداء للعلويين.

على أن أسباب تصفيتهم عديدة، بعضها كان مهماً، وبعضها أسباب رئيسية، فمن الأسباب المهمة: تعاظم نفوذهم، بحيث طغى على نفوذ الخليفة فضلاً عن احتجازهم الأموال، يقول المسعودي: "احتازوا الأموال دونه – الرشيد– حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه". ومن الأسباب المهمة أيضاً التبذير في صرف أموال الدولة، فضلاً عن إنشائهم بيوتاً لأموال خاصة بهم، والواقع أن الرشيد يتحمل جزءاً من مسؤولية وصول أوضاعه إلى هذا الشكل لكونه المسؤول عن منح يحيى البرمكي صلاحيات واسعة، فكان يدير ويرأس الديوان، وبيده ديوان الخاتم، الذي يعد رمز السلطة والنفوذ، وقد أشرك الرشيد جعفر البرمكي في النظر في المظالم، وهذه من اختصاص الخليفة أيضاً.

ومن الأسباب الرئيسة أن بعض الروايات أشارت إلى أن البرامكة كانوا من الزنادقة، ولعل في هذا الاتهام مبالغة، فلم يكن البرامكة من الزنادقة بل كانوا من الشعوبية، فقد لوحظ على البرامكة تقريبهم العناصر الشعوبية من

أدباء وكتاب تعصباً لفارسيتهم، ولعل المنصور أدرك قبل الرشيد بعض أهدافهم وذلك حين قال لجدهم خالد بن برمك، حيث نهاه عن تهديم إيوان كسرى: "يا خالداً بيت إلا الميل إلى أصحابك العجم".

على أن الأخطر من ذلك هو أن الفضل البرمكي اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وكان عددهم كبيراً، وجلب قسماً منهم إلى بغداد مما يشعرنا بأن للبرامكة خططاً بعيدة، منها إعادة مجد الفرس بعد انتهائه على يد العرب، ويمكن القول أن هذا هو السبب الرئيس في سقوطهم.

إن سقوط البرامكة السريع دون حدوث ردود فعل عنيفة لدليل على قوة الخلافة في عصرها الذهبي.

ثانياً: ولاية العهد والحرب الأهلية (١٩٣هـ-١٩٨هـ/٨٠٨م-٨١٣م)

سار العباسيون في نظام توليه العهد لأكثر من واحد، على غرار ما سار عليه الأمويون، ولعل السبب الرئيس الذي حدى بالعباسيين إلى تبني هذا النظام هو إبقاء الخلافة في البيت العباسي، فقد عهد أبو العباس بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور على أن يكون من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى، إلا أن المنصور لم يلتزم بهذا العهد فقد أعد ابنه محمد المهدي ليكون خليفة بعده، لذلك مارس ضغوطاً عديدة على عيسى للتنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه، ونجح بالتالي في ذلك، على أن يكون عيسى ولياً للعهد بعد المهدي، إن حب الوالد لأولاده والرغبة في إبقاء الخلافة في الأعقاب لم يكن مقتصراً على المنصور، بل تعدى إلى ابنه المهدي حيث عين ولده موسى الهادي بعد أن أجبر -رغبة أو رهبة- عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد عام ١٦٠هـ/٧٧٦م، وفي عام ١٦٦هـ/٧٨٢م عين ابنه هارون الرشيد لولاية العهد على أن يكون بعد أخيه موسى.

وقد عانى الرشيد من سوء تصرفات أخيه الهادي بسبب ولاية العهد، حيث لاقى الكثير من الإهانات، لذلك فإن قرار الرشيد بتوليه العهد لأكثر من واحد، مهما كان التبرير، يعد خطأً فادحاً، وكان عليه أن يستفيد من تجربته هو مع أخيه، فكيف به وقد قسم الدولة بين أولاده على ما يدير من أقاليم.

ففي عام ١٧٣هـ/٧٨٩م عين الرشيد ابنه محمداً ولياً للعهد وسماه (الأمين)، وكان صغير السن جداً، وفي رواية الطبري ما يشير إلى أن الرشيد وقع تحت تأثير الفضل البرمكي في هذا التعيين، وفي عام ١٧٥هـ/٨٩١م جعل الأمين مسؤولاً عن أقليمي العراق والشام.

وعند زيارة الرشيد للرقة بعد انتهائه من مناسك الحج في أول عام ١٨٢هـ/٧٩٨ أعلن تعيين ابنه الآخر عبد الله (المأمون) ولياً للعهد، على أن يلي بعد أخيه، وعين جعفر البرمكي مشرفاً على شؤونه، والملاحظ على هذا التعيين أنه رافقه منحه مسؤولية إدارة أقاليم المشرق من همدان إلى آخر المشرق، على أنا يجب أن نشير إلى أن الرشيد –عند إعلانه تعيين عبد الله المأمون ولياً للعهد– لم يكن محاطاً بالبرامكة فحسب، وإنما بكتل أخرى كانت تناهض البرامكة كجعفر بن أبي جعفر المنصور وعبد الملك بن صالح العباسي والقائد علي بن عيسى بن ماهان الذين رافقوا الأمير المأمون إلى بغداد، وأعلنوا البيعة فيها.

وفي عام ١٨٦هـ/٨٠٢م أعلن الرشيد تعيين ابنه الثالث القاسم ولياً للعهد بعد أخيه المأمون وسماه (المؤتمن) ومنحه مسؤولية الإشراف على إقليم الجزيرة والثغور والعواصم، ويفهم من الطبري، أن الرشيد كان تحت تأثير عبد الملك بن صالح العباسي في هذا التعيين هذا إذا لاحظنا أن عبد الملك العباسي نفسه كان من ضمن الكتلة التي أحاطت بالرشيد عند البيعة للمأمون.

وقد اختلف تقويم المجتمع –حين ذاك– بقرارات الرشيد فقال البعض قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم: بل ألقى بأسهم بينهم، وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية، والتقويم الثاني، وكان صحيحاً إلى حد ما، ذلك أن قرار الرشيد بتقسيم الدولة بين أبنائه، أدى إلى خلق مراكز قوى، أو كتل متعددة في البلاط، أحاطت بهذا الأمير أو ذاك، وكل كتلة كانت ترغب في الحفاظ على مصالحها من خلال ولي العهد، الذي تؤيده، لكن البرامكة كانت من أبرز الكتل، بسبب إشراف الفضل على محمد (الأمين) من جهة، وإشراف أخيه جعفر على عبد الله (المأمون) من الجهة الأخرى، وربما كانت لديهم خطة مدبرة لزرع الشقاق بين الأخوين لأهداف بعيدة لها علاقة بتطلعاتهم الفارسية، إن قول يحيى البرمكي عند سماعه بقتل ابنه جعفر على يد الرشيد "كذلك سيقتل ابنه"، قال: فقيل له: خربت ديارك، قال يحيى: كذلك ستخرب دورهم" ما يشير إلى أول مخططهم التآمري، باستغلال ثغرة ولاية العهد لأكثر من واحد.

ومهما يكن من أمر فإن الرشيد أدرك الخطأ الذي وقع فيها،فاتخذ عدة قرارات الغرض منها التخفيف من نتائجه، فبادر أولاً في حج عام ١٨٦هـ/٨٠١م إلى كتابة عهد بين ولديه، احتاط فيه من أحدهما على الآخر، وركز على أخذ العهود والمواثيق على ولي العهد الأول محمد الأمين، وهي على العموم في صالح المأمون، وعلق العهود في الكعبة المشرفة، وقام ثانياً بعزل كل من له علاقة بقرارات ولاية العهد، فأول قرار أصدره كان تصفية البرامكة وذلك عام ١٨٧هـ/٨٠٢م. ومصادرة أملاكهم، وبعده وضع عبد الملك ابن صالح العباسي في الإقامة الجبرية في داره وصادر أمواله وأملاكه وسلاحه، وأوعز إلى ابنه القاسم بمهاجمة الروم البيزنطيين، فوهبه لله وجعله قرباناً له ووسيلة، مما يشعرنا بأن الهدف كان بث الدعاية له ليكون محط أنظار الناس أسوة بأخويه.

لكن الغريب أن الرشيد في هذه الفترة بدأ يهتم بابنه المأمون أكثر من قبل، فأعطاه أمواله التي كانت برفقة الجيش والخزائن والسلاح وذلك عام ١٨٧هـ/٨٠٢م، وهي وسائل القوة في أية مواجهة محتملة مع أخيه في المستقبل، ولم يقف الرشيد عند ذلك بل أمره بمرافقته عند خروجه من العراق إلى الجبهة البيزنطية عام ١٩٠هـ/٨٠٥م، وأنابه عنه في حكم الرقة وفوض إليه الأمور، وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة، ودفع إليه خاتم المنصور، في حين أن منطقة الجزيرة كانت تحت إشراف الأمين وليس المأمون، لذلك فإن في رواية المسعودي يفهم منها أن الرشيد أراد أن يجعل المأمون ولي عهد أول بدلاً من الأمين، لكن كتلة بني هاشم كانت تميل إلى الأمين، ولهذا صرف النظر عن فكرته في وقتها، لكن الفكرة تجددت لديه والرشيد في خراسان عندما استدعى الحسين بن مصعب (والد طاهر) وطلب منه مبايعة المأمون، ولهذا عزل والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان.

وعند مسير الرشيد إلى خراسان عام ١٩٢هـ/٨٠٧م ألح عليه المأمون أن يأخذه معه، وذلك بإشارة من الفضل بن سهل الفارسي (وكان أسلم حديثاً) وفعلاً أخذه معه، وأناب عنه في الرقة ابنه القاسم، أما في بغداد فأناب عنه ابنه محمد الأمين، إن خطة الفضل بن سهل تعتمد بالدرجة الأولى على ضرورة ابتعاد المأمون عن بغداد حتى يمارس سلطته في خراسان، ومعه الأموال والسلاح والقادة والجيش، وليكون مهيئاً للاستقلال، خصوصاً أن الوضع الصحي للرشيد كان في تدهور، وربما كانت فكرة الرشيد أيضاً تستند إلى جعل إقليم خراسان إقليماً شبه مستقل ليكون سداً بوجه الإقاليم المضطربة فيما وراء النهر، وأكمل المأمون فيما بعد هذه الخطة، سواء في بقائه في مرو عاصمة إقليم خراسان طيلة مدة صراعه مع أخيه أو في تعيين طاهر بن الحسين والياً على خراسان، والسماح في تأسيس إمارة وراثية.

لقد تعددت تفسيرات المؤرخين المحدثين للحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، التي دامت أكثر من خمس سنوات سالت فيها دماء كثيرة، وخربت بغداد العاصمة، وأكثر هذه التفسيرات تميل إلى اعتبار انتصار المأمون، ما هو إلا انتصار الفرس على العرب، باعتبار أن أنصار المأمون هم الفرس لكون أمه فارسية وأنصار الأمين هم العرب لكون أمه عربية.

لقد لاحظنا كيف التف حول الأميرين، الأمين والمأمون، الكتل والجماعات وكل كتله فيها عرب وغير عرب، فهناك روايات عديدة تشير إلى أن الأمين حاول كسب الجند الخراساني إلى جانبه، وهي نفس خطة المأمون، وقد نجح في كسب خمسة آلاف مقاتل منهم، ونرى قائد جيش الأمين يخاطب جيشه بـ(يا أهل خراسان) فضلاً عن أن الأمين يطلب من قائده أن يعامل أهل خراسان خيراً، وأن يعفيهم من ربع الخراج، وفي رواية تاريخية تظهر وزير الأمين الفضل بن الربيع وكأنه يتودد إلى أهل خراسان، وخاطب الجيش بـ(يا أهل خراسان)، فالجيش الخراساني نفسه إذن كان مقسم الولاء بين الأمين والمأمون.

ومما يجدر ذكره أن العناصر التي أيدت المأمون كان قسم كبير منها عربياً، فتشير رواية إلى أن قبيلة خزاعة تفاخر بكونها اشتركت في قتل الأمين، وأن الموصل أيدت المأمون أثناء النزاع، وفي رواية أن مالك اليشكري ثار في السواد من أجل المأمون، ونلاحظ بعد انتصار جيش المأمون، نجد الجيش نفسه يتمرد على قائده تحت شعار (موسى يا منصور) وهو شعار القبائل اليمانية، وفي رواية الطبري خير توضيح لدور العرب في تحقيق النصر للمأمون، وكيف يطلب المأمون تعضيد القادة العرب وقبائلهم في نزاعه مع أخيه يقول الطبري: "قال الفضل بن سهل: فقلت للمأمون .. ولكن أفهم عني ما أقول لك، أن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام أبي جعفر.. قال (المأمون: قم بالأمر..

فقلت: قد قرأت القرآن وسمعت الأحاديث، وتفقهت في الدين، فالرأي أن نبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فندعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وتقعد على اللبود ،وترد المظالم، ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء وأكرمنا القواد والملوك وأبناء الملوك: فكنا نقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بن كعب وللربعي: نقيمك مقام أبي داود خالد بن إبراهيم ولليماني: نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم: فكنا ندعو كل قبيلة إلى نقباء رؤسهم.

ومهما يكن من أمر فإن الأمين بعد تسلمه الخلافة حاول أن يمد سلطته إلى جميع الأقاليم،والعقبة كان المأمون، وهو مستقل في إدارة خراسان يؤيده جيش عباسي قوي، فأسرع في إحكام سيطرته على الإقليم، إلا أن الأمين فضل الدخول بمراسلات مع أخيه لغرض إعادة الجيش الذي كان مع والده الرشيد، لكن المأمون رفض هذا الطلب بدعوى أنه بحاجة إليه في قمع حركة رافع بن الليث.

لقد أدرك المأمون أهمية حصوله على تأييد واسع مع الأقاليم التي يحكمها وأدرك حاجة تلك الأقاليم إلى استقرار والرفاهية في العيش، فأعفى خراسان من دفع ربع الخراج الذي كانت تؤديه للدولة، وفي محاورة بين الفضل بن الربيع وزير الأمين مع أحد أتباع المأمون في البلاط، قال الفضل: "فما ظنك بأجناد عبد الله (المأمون) .. قال: قوم كانوا في بلوى عظيمة من تحيف ولاتهم في أموالهم، ثم في أنفسهم صاروا به إلى الأمنية من المال والرفاهة في المعيشة فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم".

وقد قام الأمين في عام ١٩٣هـ/٨٠٨م بعزل أخيه القاسم عن ولاية الجزيرة،وفي العام التالي أمر بخلع أخيه المأمون مْن ولاية العهد والدعوة لابنه موسى وسماه (الناطق بالحق) في الوقت الذي أرسل المأمون طاهر بن الحسين على رأس قوات عسكرية إلى الري لأخذ البيعة له، لكن الأمين بعث قوات

عسكرية كبيرة بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، فتواجهت القوتان وعلى أثرها انهزم جيش الأمين وقتل قائده في المعركة، فتقدم جيش طاهر نحو بغداد، لكنه اصطدم بجيش آخر للأمين كان بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي، وبعد معركة انهزم جيش الأمين مرة أخرى، وبعد هذا الانتصار أعلن المأمون نفسه خليفة، وسمى بأمير المؤمنين،وكان قبل ذلك يدعى بالإمام.

حوصر الأمين في بغداد من قبل الجيش الأول بقيادة طاهر بن الحسين وجاء جيش ثان بقيادة هرثمة بن أعين، وثالث بقيادة زهير بن المسيب الضبي،وأعلنت جميع الأقاليم تأييدها للمأمون يقول المسعودي:" ويدعى له – للمأمون- على المنابر في الأمصار والحرمين والسهل والجبل، ويسلم على محمد بالخلافة من كان ببغداد أو خاصة لا غيرها". وبعد حصار طويل ومناوشات عديدة سالت فيها دماء كثيرة استطاع الجيش الأول من أسر الخليفة الأمين وقتله ثم أرسل رأسه إلى المأمون في خراسان ومعه شارات الخلافة وذلك في عام ١٩٦هـ/٨١٣م.

لقد مرت الأقاليم العربية الإسلامية بظروف صعبة للغاية أثناء وبعد الحرب الأهلية حيث انتشرت الفوضى، وعدم الاستقرار السياسي، وانعدمت السلطة، وانتهزت العناصر المعارضة للحكم العباسي الفرصة للقيام بحركاتها ضد الحكم وتحت شعارات متعددة، وانتهز بعض القواد العسكريين ورؤساء القبائل العربية الفرصة أيضاً لإحكام سيطرتهم على الأقاليم، يقول اليعقوبي: "وتغلب كل رئيس قوم عليهم .. فم يبق بلد إلا وفيه قوم يتحاربون لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم". وقد أورد اليعقوبي قائمة طويلة بأسماء من تغلب على الأقاليم، فضلاً عن انشغال الخليفتين المأمون والمعتصم بالقضاء على الحركات السياسية طوال فترة حكمهما.

الفصل الثاني: الحركات العلوية

أولاً: حركة يحيى بن عبد الله الحسني

كان يحيى بن عبد الله ممن اشترك بحركة الحسين بن علي الحسني في المدينة عام ١٦٩هـ/٧٨٥م، وبعد مقتل الحسين في فخ هرب يحيى إلى بلاد الديلم المنيعة، ويفهم من الطبري أن يحيى استطاع أن يجمع حوله الاتباع وكسب تأييد السكان المحليين، لقد ساور الرشيد القلق من اتساع يحيى الحسني في ذلك الإقليم، لذلك عين الفضل البرمكي والياً على الأقاليم المحيطة ببلاد الديلم، والحق به قواداً قديرين فضلاً عن بذله الأموال الكثيرة في سبيل إنهاء الحركة، ولعل قلق الرشيد واهتمامه يعود إلى خطر الترك، وليس إلى خطورة يحيى الحسني، فقد وحف صاحب الترك في خلق عظيم مستغلاً حدوث الاضطرابات في الطالقان وقد نجح الفضل البرمكي في صد هجوم الأتراك أولاً ثم استطاع إلحاق الهزيمة بهم.

وبعد جهود مضنية بذلها الفضل البرمكي استطاع إقناع يحيى الحسني بتسليم نفسه بعد أن بذل له أموالاً جمة، فضلاً عن تخلي أتباعه عنه ثم إن الفضل البرمكي حصل على موافقة الخليفة بمنحه الأمان وجلبه معه إلى بغداد فأكرمه الخليفة ووصله بهدايا كثيرة، وأنزله منزلاً حسناً، وهناك رواية أخرى تذكر أن الرشيد سجنه وقتله في السجن.

ثانياً: حركة أبي السرايا الشيباني

عانت الأقاليم العربية من الفوضى السياسية ،وضعف السلطة المركزية بعد الحرب الأهلية، فضلاً عن بقاء الخليفة المأمون في خراسان بعيداً عن

العراق لتسيير دفة الأمور بنفسه ، فكان ينيب عنه في حكم العراق الحسن بن سهل، الذي كان غير مرغوب به لسياسته الفارسية، ومن ضمنهم بعض العلويين الطموحين، كمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني المعروف بابن طباطبا، وكبعض رؤساء قبائل الجزيرة كأبي السرايا السري بن منصور الشيباني.

تظهر بعض الروايات ابن طباطبا طموحاً، وكان يفكر بالسلطة قبل أن يدخل به أبواب السرايا، يذكر الأصفهاني أنه كان يقارب الناس ويحكم في هذا الشأن، وهناك رواية تشير إلى أن نصر بن شبث العقيلي أحد رؤساء القبائل في الجزيرة اتصل به في موسم الحج، واتفقا على التحرك ضد العباسيين، لكن المشروع فشل بسبب عدم ميل عرب الجزيرة إلى العلويين.

تحرك أبو السرايا في العراق (السواد) معلناً معارضته للعباسيين قبل أن يتصل به ابن طباطبا، لذلك فإن كلاً من الطرفين وجد ضالته في الآخر، فابن طباطبا كان طموحاً ويرغب في نيل الخلافة إلا أنه قليل الاتباع، في حين أن أبا السرايا -كأحد رؤساء القبائل- كان يحتاج إلى شخصية معنوية لها أفكار ومبادئ معارضة للعباسين ليستغلها في حركته وجذب الأتباع -فليس لأبي السرايا في الحقيقة أي ميل أو عاطفة نحو العلويين.

ومهما يكن من أمر فإن أبا السرايا قاد حركته بعد ذلك في الكوفة باسم ابن طباطبا، واستطاع إلحاق الهزيمة بالقوات العباسية التي إرسالها الحسن بن سهل بقيادة زهير الضبي، وانتصر على قوة أخرى بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد الذي قتل في المعركة، لكن وفاة ابن طباطبا المفاجئة حملت أبا السرايا على تعيين الشاب محمد بن محمد بن زيد الحسيني على رأس الحركة، ويظهر

أن هذا التعيين كان شكلياً لأن السلطة بقيت بيد أبي السرايا، وأنه هو الذي ينفذ الأمور ويولي من رأي ويعزل من أحب وإليه الأمور كلها.

وقد تحرك أبو السرايا بعد ذلك نحو واسط فاصطدم بالقوة العباسية التي أرسلها الحسن بن سهل بقيادة عبد الله بن سعيد الحرشي الوالي على واسط، فألحق أبو السرايا بها الهزيمة أيضاً، وفي رواية أن قائد أبي السرايا محمد بن إسماعيل الحسيني ألحق الهزيمة بقوة عباسية أخرى بقيادة المضاء الباهلي حيث هزمه في ساباط المدائن.

إن خطورة حركة أبي السرايا لم تكن في إلحاقه الهزائم المتكررة بالقوات العباسية فحسب، وإنما في قيامه بتعيين ولاة بعض الأقاليم، وبمعنى آخر أن حركته قد توسعت وشملت أقاليم أخرى غير العراق فعين:

أ- على اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر الحسيني الذي سيطر على اليمن بدون قتال بعد أن تركها الوالي إسحاق بن موسى العباسي .

ب- على البصرة والأحواز زيد بن موسى بن جعفر الحسيني، الذي يقال له (زيد النار) لكثرة ما حرق من دور العباسيين وأتباعهم في البصرة، ومعه العباس بن محمد الجعفري.

ج- وعلى مكة الحسن بن الحسين الأفطس العلوي الذي أمره أبو السرايا على موسم حج عام ١٩٩هـ/٨١٤م، فذهب إلى مكة لهذا الغرض وأقام خارج مكة يترقب الأحداث، وعين أيضاً محمداً بن سليمان الحسني والياً على المدينة، حيث سيطر عليها دون قتال، إلا أن الحج في تلك السنة كان بدون خطة، لأن الوالي العباسي داود بن عيسى ترك مكة لرفضه القتال داخل الحرم، لذلك دخل الحسين الأفطس مكة يوم عرفة مساءً وأكمل مراسم الحج.

د- وعلى واسط جعفر بن محمد بن زيد العلوي، والحسين بن إبراهيم،

لقد أثبت الحسن بن السهل فشله في إدارة الصراع مع أبي السرايا، لذلك اضطر إلى اللجوء إلى القائد هرثمة بن أعين المبعد عن المسرح السياسي، والذي كان في طريقه إلى خراسان لمقابلة الخليفة المأمون، لكونه ساخطاً على سياسة الخليفة في تقريبه آل سهل وإطلاق أيديهم في حكم العراق والمشرق، ويبدو أن الخليفة كلف سليمان بن داود العباسي بإقناع هرثمة بترأس القوات العباسية لمواجهة حركة أبي السرايا، وفعلاً وافق على ذلك وتوجه بقواته لهذا الغرض، في حين توجد رواية أخرى تشير إلى أن الذي أقنع هرثمة هو الحسن ابن سهل نفسه عن طريق السندي بن شاهك وصالح صاحب المصلى، وليس الخليفة، ويفهم من رواية الأصفهاني أن الحسن بن سهل أعطاه صلاحيات واسعة، وخوله اختيار القادة، وأطلق يده في بيوت الأموال، وفي الوقت نفسه وجه الحسن بن سهل قوة أخرى بقيادة علي بن أبي سعيد الملقب بـ(ذي العلمين) إلى البصرة عن طريق المدائن – واسط.

استطاع القائد هرثمة من إلحاق هزائم بقوات أبي السرايا، واضطر الأخير إلى دخول الكوفة مع قواته، الذين نهبوا دور العباسين ومواليهم، في الوقت الذي تباطأ هرثمة في دخول الكوفة لإعادة ترتيب قواته، واعلن أن خطوته القادمة هي الذهاب إلى الحج.

اضطر أبو السرايا إلى الهرب من الكوفة في محرم من عام ٢٠٠هـ/٨١٥م وربما كانت خطته الالتحاق بالجزيرة معقل المعارضة، وليكون قريباً من قبيلته، فاتخذ طريق القادسية، ثم أسفل واسط ومنه إلى السوس، ففوجئ بقوة عباسية رفضت الدخول بمعركة مع أبي السرايا، إلا أن إصرار أبي السرايا على ذلك أدى إلى تصادم القوتين فكانت الهزيمة على أبي السرايا،

وجرح في المعركة، فانسحب نحو جلولاء حتى يتمكن من الوصول إلى الجزيرة لكن القوة العباسية في جلولاء قبضت عليه مع أتباعه، وأرسل إلى الحسن بن سهل في النهروان الذي قتله وأرسل جثته إلى بغداد.

إن الحركة العلوية في بقية الأقاليم قد تأثرت كثيراً بما آلت إليه حركة أبي السرايا، وأن القوة العباسية التي بقيادة ذي العلمين، كانت قد أخذت طريق المدائن –واسط باتجاه البصرة واستطاع أن يلقي القبض على والي البصرة من قبل أبي السرايا وهو زيد النار مع أتباعه، وبذلك انتهت المعارضة العلوية في البصرة وبسهولة، وفي الوقت نفسه أرسل ذو العلمين بعض قواده إلى مكة والمدينة واليمن.

إن حركات العلويين في الحجاز واليمن لم تنته بموت أبي السرايا، وإنما استمرت، وكان لتشابكها وتعدد الزعامات وعدم التنسيق بين قادتها وسوء تصرفاتهم من عوامل فشلها فضلاً عن نفور الحجازيين من بعض الزعامات العلوية، ومللهم من الصراع على السلطة بين العباسيين والعلويين وعدم تحمسهم للقضية العلوية.

فإبراهيم بن موسى الحسني الذي سيطر على اليمن كان يسمى (الجزار) لكثرة من قتل باليمن من الناس وسبى وأخذ الأموال، والحسين الأفطس الذي سيطر على مكة عمد إلى ما في خزانة الكعبة، من مال فأخذه ولم يسمع بأحد عنده وديعة لأحد من ولد العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدي نفسه، فلما رأى الحسين الأفطس ومن معه تغير الناس لهم بسيرتهم وبلغهم أن أبا السرايا قد قتل، اتصل بمحمد بن جعفر الحسيني وكان شيخاً وادعاً محبباً في الناس مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة –وأقنعه بترأس

الحركة، وأعلن الحسين الأفطس أن محمد بن جعفر هو الخليفة وحشروا إليه الناس من أهل مكة والمجاورين فبايعوه طوعاً وكرهاً، لكن سوء سيرة ابنه علي وكذلك الحسين الأفطس أفقدت تأييد أهل مكة لهم، وفي هذه الأثناء وصل مكة والي اليمن إسحاق بن موسى العباسي، وهو في طريقه إلى العراق والتقى بالقوات التي أرسلها ذو العلمين من البصرة، وبعد تردد قصير قرر الوالي مواجهة قوات محمد بن جعفر المتخندقة في مكة، وبعد مناوشات قصيرة انهزمت قوات الأخير وطلب الأمان من الوالي العباسي.

وفي موسم حج عام ٢٠٠هـ/٨١٥م استطاع أبو إسحاق (المعتصم) من منع قوة علوية مرسلة من اليمن من الدعوة لهم في الكعبة، بعد أن استطاع إلحاق الهزيمة بها.

لقد استمرت سيطرة إبراهيم بن موسى الحسيني على إقليم اليمن لكن الوالي الجديد حمدوية بن علي بن عيسى بن ماهان تقدم بقواته نحوها، وبعد مناوشات عديدة بين الطرفين قرر إبراهيم الحسيني ترك اليمن نحو مكة وسيطر عليها، لكن الأمور تبدلت، فقد قام الخليفة المأمون بتعيين إبراهيم بن موسى الحسيني والياً على اليمن رداً على عصيان الوالي حمدوية بسبب العهد لعلي بن موسى الرضا، فتحرك إبراهيم نحو اليمن من جديد واصطدم الطرفان في معارك شديدة وانهزم إبراهيم فلم يرد وجهه شيء دون مكة.

ثالثاً: تعيين الإمام علي بن موسى الرضا والياً للعهد

في عام ٢٠٠هـ/٨١٥م أرسل الخليفة المأمون من مرو في خراسان رجاء بن أبي الضحاك، وهو من أقرباء الفضل بن سهل وزير المأمون وفرناس الخادم إلى المدينة، ومعهم دعوة للإمام علي بن موسى ومحمد بن جعفر

الحسيني -الذي تحرك ضد العباسيين في الحجاز- لزيارة الخليفة في مرو، فقدموا بغداد، ومنها إلى خراسان، وفي رمضان من عام ٢٠١هـ/٨١٦م أعلن الخليفة بأنه عين علي بن موسى والياً للعهد والخليفة من بعده، وسماه الرضي من آل محمد وأمر الجيش بتغيير لباسهم الأسود إلى الأخضر، وكتب بذلك أمراً إلى بقية الأقاليم بالالتزام بهذه الأوامر، وأمر بضرب الدراهم والدنانير باسمه.

أشار بعض المؤرخين إلى أن هذا القرار كان من رأي المأمون، وأصر على إصداره، فقد أشار الأصفهاني إلى قول المأمون: "إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع".

في حين أن أهل بغداد عارضوا القرار وقالوا: "إنما هذا دسيس من الفضل بن سهل"، ومهما يكن من الأمر فإن بعض الروايات تشير إلى أن الإمام علي الرضا رفض العرض في بادئ الأمر حتى أقنعه الخليفة رغبة ورهبة، وربما أدرك ما كان يرميه الخليفة من هذا القرار، فضلاً عن عدم ميله إلى الخوض في غمار السياسة، وهو الذي حاول إقناع عمه محمد بن جعفر بتسليم نفسه للقوات العباسية بعد أن تحرك ضدها في الحجاز، ويذكر أن القرار كان مناورة من الخليفة المأمون لكشف بعض الشخصيات العلوية عند ممارستها العمل السياسي جهراً، ويتبين منهم المخطئ والمصيب وبأنهم لا يختلفون عن العباسين.

إن قرار البيعة كانت له آثار خطيرة على الوضع السياسي والاقتصادي، فقد أشار الأزدي إلى ذلك فقال: "اشتد ذلك على بني هاشم وعلى أهل بغداد وعلى من اشتد عليهم منهم، وتحرك الطعام وغلا السعر". في الوقت الذي وقعت مجاعة في خراسان والري وأصبهان أن القرار من وجهة نظر سياسية، هو نقل سلطة إلى أسرة أخرى مع ما يتبعه من فقدان العباسيين وشيعتهم

لامتيازاتهم فضلاً عن أن بقاء الخليفة في مرو ومعه الفضل بن سهل الفارسي معناه نقل مقر الخلافة من بغداد والعراق إلى مرو وخراسان، وهو ما عارضه أهل بغداد، لذلك اختاروا عم الخليفة إبراهيم بن المهدي ليكون خليفة، وذلك في محرم عام ٢٠٢هـ/٨١٧م ولقب بـ(المبارك) وهرب الحسن بن سهل من بغداد إلى واسط.

لم تستقر الأوضاع في العراق بعد مبايعة إبراهيم بن المهدي، ذلك أن الجيش انشق على نفسه ما بين مؤيد له ومعارض، ولما علم المأمون بتدهور الأوضاع في العراق وأن الفضل بن سهل ستر عنه تلك الأخبار تخلص منه عن طريق تكليف جماعة بقتله، وقرر السفر إلى العراق، وفي الطريق توفي فجاءه الإمام علي بن موسى فدفن في طوس، وبذلك تخلص الخليفة من دوافع أهل بغداد، واستطاعت القوات الموالية له السيطرة على الموقف بشكل عام، ولما قرب المأمون من حدود العراق هرب إبراهيم بن المهدي، وفي عام ٢٠٤هـ/٨١٩م دخل المأمون بغداد، وبعد فترة رجع إلى اللباس الأسود شعار العباسيين.

الفصل الثالث: حركات الخوارج

أولاً: خوارج الجزيرة الفراتية

١- حركة صحصح الخارجي (١٧١هـ/٧٨٧م)

أعلن الصحصح الشيباني الخارجي حركته في الجزيرة، واصطدم بالحامية العباسية التي استطاعت إلحاق الهزيمة به، وقتل بعض أتباعه، انسحب نحو الموصل واستطاع إلحاق الهزيمة بحاميتها العسكرية، أن هذا الانتصار جعله يعود إلى الجزيرة مرة أخرى، ويفرض سيطرته على ديار ربيعه، إن هذه الهزيمة جعلت الخليفة الرشيد يعزل الوالي أبا هريرة محمد بن فروخ، وكلف القائد عبد الله الضبي بمحاربة الصحصح، وفعلاً استطاع إلحاق الهزيمة به وقتله، وفي رواية أخرى أن الخليفة الرشيد أرسل أولاً أبا حنفية حرب بن قيس وألقى القبض على الوالي أبي هريرة، وأرسله إلى بغداد، ونفذ فيه حكم الإعدام في قصر الخلد، ولم توضح الرواية أسباب إعدامه، وربما كان لفشله في فرض الأمن في الجزيرة حيث كانت فيها حركات غير خارجية أيضاً.

٢- حركة الوليد بن طريف الشاري

اختلف المؤرخون في تاريخ ابتداء حركة الوليد ما بين أعوام ١٧٧هـ، ١٧٨هـ، ١٧٩هـ/ ٧٩٣م، ٧٩٤م، ٧٩٥، ويشير الطبري إلى أن الوليد حكم بها -الجزيرة- ففتك بإبراهيم بن حازم بن خزيعة بنصيبين، ثم مضى إلى أرمينية، وكان معه ثلاثون من أتباعه، ويبدو أن انتصاره شجع الخوارج إلى الانضمام إلى حركته فاشتدت شوكته وكثر تبعه، وأخذ الوليد ينتقل بين مدن الجزيرة والسواد وحلوان وبلد، لكنه لا يتركها إلا بعد أن يأخذ فدية منها، وأحياناً يصطدم بالحامية ويهزمها، اهتم بها الخليفة الرشيد لاستفحال أمرها،

فكلف يزيد بن مزيد الشيباني بالقضاء على حركة الوليد، لأن يزيد من العشيرة نفسها، فقام يزيد بتتبع الوليد إلى أن لحق به في هيت على الفرات، واستطاع من قتل الوليد وإرسال رأسه إلى الخليفة، ويمكن أن نلاحظ مدى خطورة حركة الوليد أن الخليفة ذهب إلى مكة معتمراً شاكراً لله تعالى على انتصاره عليه.

٣- حركة جراشة بن شيبان:

اختلف المؤرخون في تاريخ بداية حركة جراشة (أو خراشة)، فخليفة بن خياط يرى أن الحركة بدأت عام ١٧٩هـ/٧٩٥م، في حين أن الأزدي يراها في عام ١٧٦هـ/٧٩٢م، أما الطبري فإنه يذكرها في حوادث عام ١٨٠هـ/٧٩٦م، ولعل رواية خليفة من أوثق الروايات لقدم المؤلف، ولذكره سلسلة السند، فضلاً عن ذكره تفصيلات لا توجد في بقية المصادر، ومهما يكن من أمر فإن جراشة تحرك بشكل مباغت في السواد والجزيرة، وانتقل إلى مدن مختلفة، وقتل بعض رجال السلطة وقد استفحلت حركته بعد انضمام الخوارج الهاربين من جيش الوليد بن طريف، وقد قتل جراشة على يد سعد بن سلم أو إبراهيم بن جبريل، أو مسلم بن بكار العقيلي.

كانت حركات الخوارج في الجزيرة خطرة، بحيث شجعت بعض رؤساء العشائر من جبي الخراج لأنفسهم، مما دعا الخليفة الرشيد إلى الذهاب بنفسه إلى الموصل وهدم سورها.

ثانياً: خوارج إيران

كانت حركات الخوارج في العصر الأموي قد تركزت في أقاليم مركزية كالحجاز والعراق (السواد والموصل)، إلا أنها في أواخر عهد مروان الأخير، وبفضل ضغوط قواته انسحب الخوارج إلى أقاليم بعيدة، كإفريقيا، وعُمان، وفارس، حيث انضم بعضهم إلى حركة عبد الله بن معاوية بن جعفر، وبعد

فشلها، انسحب الخوارج إلى سجستان وخراسان وكرمان غير أننـــا يجـــب أن نشير إلى ان خوارج إيران الذين كانوا في غالبيتهم من العرب الذين هربوا من العراق والجزيرة الفراتية، على أن سكان سجستان كانوا لا يزالون يحتفظـــون بدياناتهم الزرادشتية، فانضموا إلى الخوارج ليس بدافع إيمانهم بمبادئ الخوارج وإنما بدوافع شعوبية، والهدف معارضة الحكم العربي الإسلامي.

ويظهر أن حركة الخوارج في إيران، خلال هذه الفترة، اتبعــت أســلوباً جديداً أبعدتهم عن العروبة وعن الأتباع العرب وقد أثبتت الحوادث أن التخلـــي عن عروبة الفكر والحركة في بلد زرادشت وماني ومزدك قد أوقع الخـــوارج في متاهة عميقة أدت إلى تشتيت قواهم وبعثرة جهودهم في خراســـان، ومـــن حركات الخوارج في إيران:

١ـ حركة حمزة بن أترك:

في عام ١٧٩هــ/٧٩٥م أعلن حمزة بن أترك حركته في سجستان ويبدو أن السلطة لم تستطع القبض عليه، ولعل السبب يعود إلى حدوث اضطرابـــات في إقليم خراسان، فقد أشار الطبري إلى أن حمزة الشاري بعد مـــرور ســت سنوات، عاث في باذغيس في خراسان، فتحرك نحوه ابن الوالـــي علـــى رأس حامية المدينة واستطاع قتل الخارجي مع عشرة آلاف من أتباعه، ويظـــهر أن الخارجي كان مدعوماً من إقليم ما وراء النهر والسند، على عادتهم في تأييد أي حركة ضد الحكم العربي، فما أن قضى ابن الوالي على الخارجي حتى تحـــرك نحو تلك الأقاليم.

٢ـ حركة أبي الخصيب:

وهم من أهل نســـا، أعلـــن الحركـــة عـــام ١٨٣هـــــ/٧٩٩م أو عـــام ١٨٦هــ/٨٠٢م لكنه سرعان ما طلب الأمان من الوالي، واستدعاه إلى مقره في مرو وأكرمه، وبعد عام واحد أعلن معارضته مجدداً، واستولى علـــى منـــاطق

عديدة من خراسان (نسا، أبيورد، طوس، نيسابور) وزحف نحو مرو، إلا أنه لم يستطع الصمود اتجاه القوة العباسية، وانهزم نحو سرخس واستطاع كسب كثير من الأتباع فيها، لكن الوالي لم يترك بقواته نحو (نسا) واستطاع من قتله وأسر أهله، في حين أن الأزدي أشار إلى أن الوالي كلف ابنه بالقضاء على الحركة وهو الذي استطاع قتله كما أن ميدان المعركة كان في مرو وليس في (نسا)، وربما أخطأ الأزدي في روايته فقد خلط بين حركتي حمزة الشاري وأبي الخصيب.

ثالثاً: الخوارج في أرمينية

لم يعرف إقليم أرمينية الاستقرار منذ وفاة الخليفة المهدي، بالرغم من تعيين أكفأ الولاة واعتمادهم على القبائل العربية التي استوطنت هذه الإقليم، إلا أن العصبية القبلية بين النزارية واليمانية من جهة ولضعف الوالي الفضل البرمكي الذي انهزم من معركة مع أهالي (حمزين) أدى إلى قيام أبي مسلم الشاري بحركته في البيلقان، فأرسل الخليفة الرشيد إسحاق العقيلي في خمسة آلاف مقاتل، لكنه لم يصمد طويلاً، فانهزم وانتصر أبو مسلم، وتمكن أيضاً من إلحاق الهزيمة بقوتين عسكريتين الأولى بقيادة العباس بن جرير القسري والثانية بقيادة سعد الحمصي، إن انتصار أبي مسلم جعله يجبي الإقليم، وعاث في المنطقة فساداً،عند ذلك اهتم بها الرشيد فأرسل قوة عسكرية كبيرة أخرى لتكون مدداً ليزيد على أن يقضي أولاً على الحركة الأخرى المعارضة في إقليم أذربيجان.

استطاع الحرشي من تنفيذ المهمة الأولى الموكلة إليه، ومن ثم اتحدت القوتان، لكن وفاة أبي مسلم الشاري في هذه الأثناء وتسلم السكن البيلقاني القيادة فاصطدم ابنه مع القوة العباسية إلا أن انهزامه اضطر والده السكن إلى التسليم إلى يزيد الشيباني وبذلك انتهت خطورة الحركة الخارجية.

الفصل الرابع: الحركات الفارسية والانفصالية

أولاً: حركة بابك الخرمي

أشار ابن النديم إلى أن بابك ابن رجل من أهل المدائن في العراق، كان دهاناً سافر إلى أذربيجان، فسكن قرية تدعى جلال آباد من رستاق ميمد، وقد ربط المؤرخون البابكية بفرقة الفاطمية، التي قالت بإمامة أبي مسلم، والفاطمية هي إحدى فرقتي المسلمية في رأي المسعودي، على أنّا يجب أن نشير إلى أن أغلب الحركات في المشرق وقعت شعار الثأر لأبي مسلم، فكانت تجمع بين آراء إسلامية وفارسية قديمة لكسب أكبر عدد ممكن من الأتباع.

لقد أسهم الخرمية في كثير من الحركات في العصر العباسي الأول، وظهروا بأسماء مختلفة، محمرة، مبيضة، وهي شعارات لمعارضة سواد العباسيين، إن ابن النديم أكثر المؤرخين دقة في تعريفه للخرمية، فهم من وجهة نظره أن الخرمية فرقتان، الأولى هي المزدكية أتباع مزدك الذي ظهر أيام قباذ الملك، والأخرى هي البابكية أتباع بابك الخرمي، والبغدادي يؤيد ابن النديم في أن الخرمية صنفان الأولى، قبل دولة الإسلام وهي المزدكية والأخرى خرمدينية ظهرت في دولة الإسلام كالبابكية، ولذلك فإن كل المشركين في الحركات الفارسية قبل الحركة البابكية هم من الخرمية القديمة، ولهذا جمعت تلك الحركات آراء إسلامية فارسية قديمة بخلاف حركة بابك التي كان هدفها إعادة المزدكية، يقول ابن النديم: إن زوجة جاويدان قائد الخرمية المتوفي أعلنت أن بابك سوف يعيد المزدكية.

أوضحت الروايات التاريخية أن الحركة البابكية كانت حركة مضادة للعرب والمسلمين وللدين الإسلامي، وكان هدفها الرئيس هو الانفصال عن

الحكم العربي الإسلامي.

لقد توسعت الحركة البابكية وشملت أقاليم عديدة وهي: أذربيجان -موطنها الأصلي- وشرقي أرمينية وطبرستان،والديلم، وجرجان، وشارك فيها سكان تلك المناطق والأكراد وبعض القادة العرب.

استغل بابك الأوضاع المتردية في أذربيجان وأرمينية بسبب إعلان واليها حاتم بن هرثمة العصيان بعد قتل والده هرثمة بن أعين في حضرة الخليفة المأمون في مرو، فأعلن بابك حركته عام ٢٠١هـ/٨١٦م، يقول الطبري بأنه أخذ في العبث والفساد، وفي رواية أنه استفتح أمره بقتل من حوله من البذا، وإخراب تلك الأمصار والقرى التي حواليه لتصفو له البلاد.

لقد استطاعت الحركة البابكية الوقوف فترة ليست بالقصيرة بوجه الخلافة العباسية منذ إعلان العصيان إلى نهاية حكم الخليفة المأمون ٢٠١هـ-٢١٨هـ / ٨١٦م-٨٣٣م والسبب يعود إلى جملة عوامل منها:

١- تعيين ولاة ضعاف، كتعيين يحيى بن معاذ بن مسلم وفشله في مواجهة الحركة عام ٢٠٤هـ/٨٠٩م.
٢- تكليف قواد عسكريين غير مخلصين للعباسيين، أو تنقصهم الكفاءة العسكرية أو الإدارية، كتعيين عيسى بن محمد بن أبي خالد، أو الغرض من تعيينهم إبعادهم مع قواتهم عن المناطق القريبة من العاصمة بغداد، كإبعاد فرق الحربية، لكونها اشتركت في الحرب الأهلية ضد الخليفة المأمون.
٣- تأجيل الصدام بين الخلافة العباسية والحركة البابكية طيلة خمسة أعوام للسببين المذكورين، فضلاً عن انشغال والي أذربيجان وأرمينية زريق الأزدي بالحروب مع والي الموصل السيد بن أنس الأزدي خلال الأعوام

المذكورة من أجل السيطرة والنفوذ مما أدى إلى إهمال الوالي الأول التصدي للحركة البابكية.

٤- إن انشغال القوات العباسية المواجهة للحركة لم يكن السبب في استمرار الحركة طيلة الأعوام المذكورة فحسب وإنما اتسع نفوذها بحيث تشجع خرمية إقليم الجبال للالتحاق بالحركة وإعلانهم التمرد.

٥- لقد استفاد بابك من تحالفه مع الإقطاعيين والأمراء المحليين وإمبراطور الروم البيزنطيين.

وفي عام ٢١٨هـ/٨٣٣م استخلف المعتصم، وبصفته رجلاً عسكرياً فقد وضع خططاً كانت كفيلة بالقضاء على حركة بابك، ومن الممكن إجمالها فيما يلي:

١- عزل الحركة عن حلفائها:

لقد حاول الخليفة أن تكون الجبهة البيزنطية هادئة، لأنه لم يجد أي جدوى في مجابهة الروم، لذلك نقل السلاح والعدد من الجبهة حتى يركز جهده واهتمامه للحركة البابكية، يقول الدينوري "فلما أفضى الأمر إلى أبي إسحاق المعتصم بالله لن تكن همته غيره أي بابك". وقد وجه المعتصم اهتمامه إلى خرمية الجبال لعزلهم عن الحركة البابكية في أذربيجان، فضلاً عن إلحاق هزيمة بالقائد العباسي هاشم بن باتيجور، لذلك عين الخليفة إسحاق بن إبراهيم قائداً عاماً للجيش العباسي، فاستطاع هذا القائد من إلحاق أول هزيمة منكرة بخرمية الجبال، وذلك عام ٢١٨هـ/٨٣٣م وهرب الناجون إلى الروم، ثم نجحت محاولة كسب محمد بن البعيث المسيطر على إحدى القلاع المهمة والذي تعاون من بابك، وبواسطة محمد بن البعيث استطاعت قوة عباسية من أسر أحد الأمراء الأكراد المتعاونين مع البابكيين، وقتل معظم قواته، ثم أرسل إلى الخليفة

المعتصم حيث اطلع الخليفة بواسطته على طبيعة الأرض في أذربيجان وطرقها وكيفية القتال فيها، مما كان له الأثر الكبير في التوجيهات التي أصدرها الخليفة لقائده الأفشين أثناء سير المعارك فيما بعد.

٢- حسن اختيار الخليفة لقادة الجيش:

عين الخليفة المعتصم قواداً قديرين لإدارة المعارك مع الحركة البابكية كالأفشين الأشروسني وأغلبهم كان يدين بولاء كبير للخليفة، كأبي سعيد محمد ابن يوسف الطائي، وإسحاق بن إبراهيم والهيثم الغنوي أحد قواد الجزيرة، وعلوية الأعور أحد قواد الأبناء، وأبو دلف القاسم بن عيسى العجلي أحد أمراء الجبال وبغا الكبير وجعفر بن دينار الخياط.

٣- الميرة والتموين:

يمتاز إقليم أذربيجان بكثرة الثلوج والأمطار، مما أثر في حرية تحرك القوات العباسية، وقد اعتمد الخليفة المأمون على تموين الولاة المحليين، مما أدى إلى تهاونهم في مجابهة الحركة نتيجة عدم استطاعتهم تموين قواتهم العسكرية لقلة إمكانيتهم، وقد تلافى الخليفة المعتصم ذلك الخطأ فلم يبخل على الجيش العباسي بالأموال، يقول الطبري: "وكان يجزي –المعتصم– الأفشيين في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والإنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم". وأرسل القائد إيناخ إلى الأفشين ومعه ثلاثون مليون درهم معونة له.

٤- خطوط المواصلات والبريد:

أمر الخليفة بترميم الحصون التي خربها بابك، وذلك من أجل حراسة طرق تموين القوات العباسية، بعد وضع رجال لحراسة تلك الطرق لمنع تسلل

البابكيين، فضلاً عن عزل البابكيين عن حلفائهم في طبرستان، وأعاد توزيع القوات العباسية على الحصون والحاميات مما جعل السيطرة تامة على طرق المواصلات بين القيادة والجيش وحراسة القوافل، ولقد اهتم الخليفة بالبريد فنظمه تنظيماً جيداً فيه الكثير من الابتكار، فكانت الرسائل تصل الأفشيين وبالعكس خلال أربعة أيام وأقل.

٥- جهاز التجسس:

وضع الخليفة خطة بعدم إعدام جواسيس البابكيين، بل كان يبذل لهم الأموال حتى يتعاونوا مع الجيش العباسي، وبذلك تم الاطلاع على كثير من فعاليات البابكيين، وابتكر القائد الأفشين جهازاً للمراقبة على جانب كبير من المقدرة والكفاءة والفاعلية وهم أصحاب الأخبار، وكانت لهم معرفة واسعة بطبيعة الأرض وبتحركات البابكيين، فكانوا يصعدون إلى مناطق شاهقة، مما يسهل عليهم مشاهدتهم وكمائنهم وبالتالي يرفعون الأعلام الخاصة حتى ينتبه الجيش العباسي فيأخذ الحيطة والحذر.

- احتلال قلعة البابكيين:

تقع قلعة البذ على جبل شاهق، وهي قلعة حصينة، ولقد واجه الجيش العباسي صعوبات كبيرة في احتلالها، وأبدى الجيش العباسي بطولات فريدة، وابتكر طرقاً عديدة في أسلوب القتال في مثل تلك المناطق، وكانت لملاحظات المعتصم ومتابعاته وتوجيهاته أثر كبير في تحرير (البذ) من البابكين، ثم في بناء الجيش العباسي للاستحكامات وإجراء المناورات وتدريب الجيش على المواقع وزحف الجيش بشكل بطيء وحذر وحيطة شديدة، عوامل مهمة ساعدت الجيش العباسي على تحرير القلعة ــ إلا أن بابك استطاع الهرب مع بعض أتباعه وذلك في رمضان من عام ٢٢٢هـ/آب ٨٣٧م.

وقد حاول إمبراطور الروم مساعدة بابك الخرمي لتحقيق الضغط عليــه، فهاجم زبطره على الحدود، إلا أن هذه المحاولة لم تثن الجيش العباســي عــن محاولة احتلال القلعة، ومهما يكن من أمر فإن القائد العام للجيش العباسي شــدد الحراسة ليلاً ونهاراً على جميع المسالك والطرق المؤدية إلى الوادي الذي هرب فيه بابك وأخويه، وكتب الأفشيين إلى أمراء تلك النواحــي بضــرورة مراقبــة الطرق والقبض على أي مشتبه به، وأخيراً تم القبض عليهم، واقتيد بابك إلــى سامراء، واستقبل الجيش العباسي استقبالاً حافلاً، وحمل بابك على الفيل لإشهاره بين الناس ثم أعدم في سامراء.

ثانياً: حركة المازيار اصبهيذ طبرستان

كانت طبرستان إحدى الأقاليم التي بقيت محتفظة باستقلالها تحــت حكــم وراثي ويسمى حاكمها الأصبهيذ، إن طبيعة الأرض الوعرة والهضاب المرتفعة، ثم الجبال الشاهقة كانت من أهم الأسباب التي جعلت هذا الإقليم يتمتع باستقلاله، وقد استطاع الخليفة المنصور احتلال الإقليم عسكرياً، بعد محاولــة سياســية، وعندها هرب الاصبهيذ وانتحر بعد سقوط آخر معقل في الإقليم، ومــع ذلــك استمرت الاضطرابات في الإقليم إلى أن أسلم بعض الأمراء ومنهم المازيار بــن قارن الذي أسلم على يد المأمون وسماه (محمداً) وجعله بمرتبة الأصبهيذ بعد أن تعاون مع الوالي العباسي محمد بن موسى على احتلال جبال شروين الشاهقة.

أما موقف الخلافة العباسية فقد بدأ بالتغير اتجاه الأصبهيذ، نتيجة للسياســة التعسفية التي انتهجها في حكم الإقليم، فضلاً عن رغبة الخليفة في إنهاء حكــم الأصبهيذ، وتعزيز سلطة الدولة على الإقليم، لذلك استدعاه لمقابلته في ســمراء، فرفض المجيء وأعلن التمرد والعصيان.

ـ فشل الحركة:

كان للخطة العسكرية التي اتبعت في تطويق إقليم طبرستان أثر كبير في إنهاء الحركة، حيث وجه الخليفة المعتصم ثلاثة جيوش طوقت الإقليم من الغرب والجنوب ووجه عبد الله بن طاهر والي خراسان جيشين طوقت الإقليم من الشرق والجنوب أيضاً، فضلاً عن الموقف البطولي للعرب المستوطنين مما ضعضع معنويات المازيار وأتباعه، احتل الجيش العباسي مدينة (طميس) المحصنة مما كان له الأثر الكبير في كسر معنويات المازيار، وبخطة سياسية نجح القائد العباسي من احتلال مدينة (ساريه) أهم مدن الإقليم، ويلاحظ من خلال الروايات التاريخية أن قطاعات كبيرة من المجتمع الطبرستاني لم تكن تؤيد المازيار وتطلعاته لأنه لا يمثل طموحهم، ورفضوا تنفيذ أوامره بقتل العرب والأبناء، ومهما يكن من أمر فقد ألقي القبض على المازيار وأرسل إلى سامراء وأودع السجن، وحوكم بعد ذلك بحضرة الخليفة المعتصم في عام ٢٢٥هـ/٨٤٠ وتوفي بعد ذلك في السجن.

ثالثاً: مؤامرة الأفشين خيذر بن كاوس

أسلم خيذر (الأفشين) عندما كان المأمون في خراسان، وقدم بعد القائد العباسي معه إلى بغداد، وألحقه الخليفة المأمون بجيش أخيه الأمير أبي إسحاق (المعتصم) عندما كان والياً على الشام ومصر، ومن هنا بدأت تتوثق علاقة المعتصم مع قائده الأفشين، خصوصاً بعد أن أبدى مهارة عسكرية في قمع الاضطرابات في مصر، وفي خلافة المعتصم عين قائداً عاماً للجيش العباسي في أذربيجان لإنهاء الحركة البابكية، وبعد إنهائها كرمه الخليفة بأن ألبسه وشاحين بالجواهر، كما أنه شارك في فتح عمورية، وله دور كبير في إلحاق الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي، لقد حظي الأفشين بمكانة كبيرة لدى الخليفة، وتولد لديه طموح في حكم خراسان بدلاً من آل طاهر فضلاً عن ازدياد وتعاظم نفوذه بحيث

تجرأ وأرسل أموالاً استولى عليها أثناء الحروب مع البابكين إلى أشروستة – موطنه الأصلي– وبشكل خفي ومتكرر.

لقد نجح عبد الله بن طاهر في إقناع الخليفة بتعاون الأفشين مع المازيار وأن تمرد الأخير كان بتشجيع الأول، وفي الفترة نفسها أعلن منكجور الأشروسني –خال ولد الأفشين– نائب الأفشين على أذربيجان التمرد ضد السلطة العباسية واستولى على أموال كثيرة من دون أن يعلم الخلافة بها، لكن مسؤول البريد فضحه وكتب إلى سامراء بالتفاصيل واقتنع الخليفة بأن تمرد منكجور كان من تخطيط الأفشين، فبدأ الخليفة يتغير في موقفه من قائده الأفشين، ويفهم من رواية الدينوري أن لقاضي القضاة أحمد بن أبي داود دوراً في إثارة شكوك الخليفة حول نوايا الأفشين، فأقنع الخليفة بتقسيم الجيش العامل في سمراء إلى قسمين الأول بقيادة أشناس والثاني بقيادة الأفشين بدلاً من إشراف الأفشين لوحده على الجيش المحيط بسامراء، وبعد فترة عزل الخليفة الأفشين عن قيادة حرس قصر الخلافة.

وعندما أحس الأفشين بتأكيد شكوك الخليفة حوله، حاول الهرب إلى أرمينية والجزر وبلاد الترك ومن ثم إلى أشروستة، لكنه صرف النظر عن هذه الفكرة لصعوبة تنفيذها، ثم خطط لمؤامرة يغتال فيها الخليفة وقواده عن طريق دعوته لوليمة مع القواد الآخرين ووضع السم في الطعام، إلا أن أحد المشتركين في المؤامرة أخبر الخليفة بتفاصيلها،عندها أمر الخليفة باعتقال الأفشين، ثم اعتقل ابنه بعد ذلك بقليل.

عقد الخليفة محكمة من كبار رجال الدولة لمحاكمة الأفشين، ووجهت المحكمة له تهماً عديدة لكنها خلت من كل إشارة إلى مؤامرته الأخيرة لقتل الخليفة، بل ركزت المحكمة على اتهامه في عقيدته وأنه لا يزال متمسكاً بدينه القديم، وأنه يسعى إلى القضاء على الإسلام والخلافة العباسية وقد مات الأفشين في المعتقل بعد ذلك.

الفصل الخامس: سامراء عاصمة جديدة للخلافة

أجمع جل المؤرخين القدامى على أن انتقال الخليفة المعتصم من بغداد واختياره سامراء كان لأسباب عسكرية، ذلك أن وجود الفرق التركية الجديدة وغيرها في بغداد، خلق مشاكل مع أهل بغداد، لكون هؤلاء الأتراك كانوا من البدو، ويحترفون الفروسية، فيتراكضون في طرقات بغداد، فيتأذى الناس منهم، فيضطر بعضهم إلى قتل بعض الجند أو ضربهم لهذا السبب،فاشتكى الجند من تصرف أهل بغداد واشتكى أهل بغداد أيضاً من وجودهم، عندها قرر الخليفة الابتعاد عن بغداد، واختيار سامراء، ونقل إليها جنده، ولذلك سميت سامراء في أول أمرها بـ(العسكر).

ويظهر من بعض الروايات أن الخليفة أوفد الكاتب أبو الوزير أحمد بن خالد عام ٢١٩هـ/٨٣٤م لشراء موضع في سامراء، فاشترى أحد الأديرة وبستاناً ومواضع أخرى، وتحول الخليفة إليها في أواخر عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م بعد أن بقي في القاطول لفترة تزيد على ثلاثة أشهر.

وفي رواية أن الخليفة الرشيد كان قد حفر نهر في القاطول، وبنى ابنه أبو إسحاق (المعتصم) قصراً في تلك المنطقة فلما ضاقت بغداد عن عساكره كان هذا الوضع على خاطره، فرحل إليه، وبنى عنده مدينته في حين أن رواية أخرى تذكر أن الخليفة بنى في القاطول في بادئ الأمر، ثم ركب متصيداً، وتنقل في عدة أمكنه حتى صار إلى موضع سامراء، على أنا يجب أن نشير إلى أن الرشيد سبق ابنه المعتصم بوقت ليس بالقليل في التفكير في اختيار عاصمة جديدة والابتعاد عن بغداد، فاختار (الرقة) مقراً له، إن الابتعاد عن بغداد من قبل الخليفة الرشيد لم يكن بسبب الجند التركي، وهذه الأسباب ربما

تكون هي نفسها التي حملت الخليفة المعتصم إلى اختيار سامراء والابتعاد عن بغداد، يقول ابن الفقيه الهمداني، أن المعتصم انتقل إلى سامراء لسببين أحدهما تبعيداً لمواليه الأتراك عن أبناء الدعوة من أهل مدينة السلام، والثانية أن ما بين عكبرا وآخر ديار ربيعة، إنما هو منازل الشراة، فأراد أن ينزل في وسط ديارهم فيشرد بهم ويدفع عاديتهم.

وقد يكون من المناسب أن نذكر بأن بغداد كانت مهددة بخطر الفيظان وذلك منذ عام ٢١٥هـ/٧٣٠م، يذكر الأزدي "وزاد الماء هذه السنة ٢١٥هـ زيادة مفرطة في دجلة". وفي رواية أن الخليفة المعتصم حاول التحرك من بغداد عام ٢١٩هـ/٨٣٤م إلا أن زيادة الماء في دجلة أيضاً جعله يصرف النظر عن مشروعه، ويؤكد الطبري هذه الرواية فيقول: "إن المعتصم خرج يريد البناء بسامراء، فصرفه كثرة زيادة دجلة فلم يقدر على الحركة، ولعل خطر الفيضان من الأسباب التي حملت الخليفة المعتصم إلى الابتعاد عن بغداد واختيار سامراء بالذات، لكونها تقع في أراض تؤلف جرفاً يرتفع عن مستوى النهر عدة أمتار مما يجعلها في مأمن من خطر الفيضان.

ولو تتبعنا خطوات المعتصم منذ أن غادر بغداد وحتى استقراره في سامراء، نرى غرضه واضحاً في جعل المدينة مركزاً إدارياً للموظفين وجعلها للدولة العباسية، فلم يكن هدفه أن تكون معسكراً للجيش ولو تتبعنا خط سير الخليفة المعتصم بعد خروجه من بغداد، لوجدنا أن المناطق التي وقف فيها الخليفة للراحة والصيد تصلح أن تكون معسكراً للجيش، لكنها لا تصلح أن تكون مدينة فيها معسكر للجيش فضلاً عن دور القواد والكتاب والموظفين والناس والأسواق.

- تخطيط المدينة:

إن موقع سامراء يمتاز بمساحته الواسعة، يقول المسعودي: "فنظر المعتصم إلى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار" ، فبالإمكان التوسع في البناء توسعاً كبيراً دون أن يضيق المكان، وقد بلغ طول البناء زمن الخليفة المعتصم زهاء أربعة فراسخ (في حدود ٩كيلومتراً)، وفي رواية ما يشير إلى هدف الخليفة بجعل سامراء عاصمة فيقول: "ونقلت إليها الدواوين والعمال وبيوت الأموال"، ومما شجع المعتصم على اختيار سامراء ما ذكره الاصطخري من أن هواءها وثمارها أصح من بغداد.

ومما يجدر ذكره أننا لا نجد في سامراء التأكيد على بناء الأسوار لتكون المدينة محصنة يقول ابن الفقيه أن سامراء "ضاحية لا سور يحصنها ولا خندق يمنعها"، إلا أن المدينة تمتاز بموقع استراتيجي هام، فهي محاطة بالمياه من كل جانب، فشكلت هذه المياه سوراً دفاعياً للمدينة.

ولقد خطط المعتصم والخبراء معه المدينة تخطيطاً سليماً فيه الكثير من الابتكار، فجعلها خمسة شوارع رئيسة متوازية على طول المدينة (من جنوب المدينة الحالية وحتى شمالها)، وفتحت شوارع فرعية على جانبي الشوارع الرئيسة، وتم عزل أهل الحرف والصناعات والتجار بأسواق خاصة بهم، والأهم من ذلك جعل الفرق العسكرية معزولة عن المدينة، واهتم الخليفة بالقادة العسكريين فخصص لهم أرض داخل المدينة وبالذات أهل خراسان والعرب، يقول اليعقوبي: "وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب" وفي مناسبة أخرى يذكر: "تم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب". مما يدل على أهميتهم في تلك الفترة.

ومن الملاحظ في بناء سامراء أن الخليفة اهتم بجعلها مركزاً للصناعات المهمة، فاستقدم من كل بلد العمال والفنيين وأسكنهم مع عوائلهم في سمراء.

لقد ألزم الخليفة كل قائد مع جنده بتحمل مسؤولية العمل والمساهمة في البناء، وفي رواية أن الخليفة أعطى النفقات في بناء دورهم، فليس من المستغرب إكمال بناء المدينة في هذه السرعة العجيبة.

لقد خصص الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، لتكون بساتين وحدائق، بعد أن أقام جسراً ربط ضفتي النهر، وبذلك عمرت هذه المنطقة بسرعة هائلة ويعزو اليعقوبي السبب إلى أن الأراضي كانت مستريحة ألوف السنين فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها.

الفصل السادس: العلاقات مع الدولة البيزنطية

اهتم الخليفة الرشيد بتنظيم الحدود مع البيزنطيين، وتحصينها، ففي عام ١٧٠هـ/٧٨٦م قسم الثغور إلى خطين للدفاع، الخط الجنوبي من الثغور في جبهة الشام –الثغور الشامية– وسماها (العواصم) وجعلها منطقة عسكرية مستقلة على شكل حصون عسكرية ما بين حلب وأنطاكية، وقاعدتها منبج، واهتم كذلك في تحصينها، واهتم الرشيد أيضاً بتحصين مدن (العواصم)، فأمر بتحصين مدينة طرسوس، وأسكن فيها ثلاثة آلاف مقاتل كدفعة أولى، ثم ألفين من أهل المصيصة وأنطاكية، وأعطى زيادة في رواتبهم بلغت عشرة دنانير، ثم وزع عليهم الأراضي لغرض السكن والإقامة فيها بصورة مستمرة، وفي عام ١٨٠هـ/٧٩٦م قام الرشيد ببناء مدينة (عين زربة) وتحصينها، وبعد ثلاث سنوات بنى (الهارونية) والكنيسة السوداء وحصنها، ووزع على المقاتلة الأراضي للسكن فيها بصورة دائمة.

وخط الدفاع الشمالي من الثغور هو الثغور الجزرية، واهتم الرشيد به أيضاً، فأعاد بناء مدينة الحدث، وزاد تحصين زبطرة، وشحنها بالمقاتلة، ووزع الأراضي عليهم.

اهتم الخليفة الرشيد بالحملات على البيزنطيين، فكانت المناوشات تحدث في كل عام تقريباً، يتخللها أحياناً اتفاقيات لتبادل الأسرى، وكانت أهم تلك الحملات هي الحملتان اللتان قادهما الخليفة الرشيد بنفسه.

ففي عام ١٨١هـ/٧٩٧م قاد الرشيد حملة عسكرية عن طريق المصيصة، كانت نتائجها الاستيلاء على حصن الصفصاف، واستولى عبد الملك ابن صالح –والي الجزيرة– على (مطمورة) ووصلت قواته إلى أنقرة، ولن يكن هناك رد فعل من قبل البيزنطيين، وذلك لحصول اضطرابات داخلية كانت من

نتائجها خلع الإمبراطور قسطنطين بعد أن سملت عيناه واعتلت أمه (إيريني) العرش باسم (أغسطة)، إلا أن القائد نقفور استطاع من تنحية إيريني واعتلى العرش البيزنطي وذلك في أوائل عام ١٨٧هـ/٨٠٢م، وقد استغل القاسم بن الرشيد فرصة حدوث تلك الاضطرابات وبصفته والياً على العواصم، حيث عيّن حديثاً، فهاجم حصني قرة وسنان وحاصرهما، لكن ظروف هذه الحملة لم تكن جيدة، فاضطر الأمير القاسم إلى قبول عرض البيزنطيين بتسليم (٣٢٠) أسيراً، فرحل عن الحصنين.

وفي عام ١٩٠هـ/٨٠٥م هاجم البيزنطيون عين زربة والكنيسة السوداء، فعاثوا فيهما فساداً، وبذلك نقضوا معاهدة الصلح مع العرب، مما دعا الخليفة الرشيد إلى قيادة حملة كبيرة ووصل (طوانة) فعسكر بها، ووجه عبد الله بن خزيمة إلى حصن الصفصاف، فهدمه، وحاصر عبد الله بن مالك حصن (ذي الكلاع) ثم توجه الرشيد إلى هرقلة، وسيطر عليها، وأخذ ألفين وسبعمائة أسيراً. وافتتح بعض القواد حصن الصقالبة وبعض المطامير، وقد اضطر (نقفور) إمبراطور الروم إلى قبول الصلح على أن يدفع أموالاً ضخمة للخليفة على سبيل الجزية عن رأسه ورأس ابنه، لكن قبل أن تنقضي السنة نقض نقفور الصلح، فأمر الرشيد بترميم الحصون استعداداً لمفاجئات الإمبراطور البيزنطي، وفي العالم التالي كانت مناوشات على الجبهة دون نتيجة تذكر، وفي عام ١٩٣هـ/٨٠٨م كان تبادل الأسرى بين الطرفين.

استمر الهدوء على الحدود منذ الحرب الأهلية وحتى عام ٢١٥هـ/٨٣٠م ويعود السبب إلى الاضطرابات الداخلية في كل من الدولتين، ونظراً لتحالف بابك الخرمي مع إمبراطور الروم البيزنطيين، وعدم استطاعة الخليفة المأمون من دحر الحركة البابكية بعد هزيمة القوات العباسية عام ٢١٤هـ/٨٢٩م، نظم المأمون حملة بقيادته عام ٢١٥هـ/٨٣٠م لمهاجمة الحدود البيزنطية فاستولى

على حصن (قرة) وتهديمه، وحصني سندس وسنان، وفـــي العـــام التـــالي رد إمبراطور البيزنطيين على الهجوم، فـــهاجم طرســـوس والمصيصـــة، وقتـــل مجموعة من سكانها فكان رد الخليفة المأمون عنيفاً، فاستسلمت (هرقلـــة) مـــن غير قتال، واستولى الأمير أبو إسحاق (المعتصم) على ثلاثيـــن حصنـــاً، أمـــا العباس ابن الخليفة فإنه استطاع إلحاق الهزيمة بقوات الإمبراطور، مما اضطـــر الإمبراطور إلى طلب عقد هدنة، وإعادة الحصون المستولى عليـــها وإطـــلاق سراح الأسرى وأن يدفع تعويضات، إلا أن الخليفة رفض هذا العرض.

وفي عام ٢١٧هـ/٨٣٢م هاجم الخليفة الحدود مجدداً، وحاصر حصـــن لؤلؤة لمائة يوم، ولم يستطع احتلاله، فبنى حولـــه حصنيـــن ممـــا أدى إلـــى استسلامهم، وكانت خطة الخليفة المأمون احتلال عموريـــة ومـــن ثـــم غـــزو القسطنطينية، فأمر ابنه العباس بتحصين (طوانة)، وطلب تجنيد مقـــاتلين مـــن الأقاليم العربية القريبة، إلا أن وفاته حالت دون تنفيذ الخطة، لأن الخليفة الجديد أبي إسحاق (المعتصم) فضل مواجهة الحركة البابكية لتأمين الجبهـــة الداخليـــة ومن ثم مواجهة الروم البيزنطيين، فضلاً عن رغبة الإمبراطور البيزنطية فـــي هدوء الجبهة أيضاً، بسبب معاناته من تردي الأوضاع العسكرية في صقليـــة، ومع ذلك فإن الإمبراطور استقبل الهاربين من خرمية الجبال بعد معركة عـــام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، وجندهم وزوجهم، يقول الطبري: وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعيين بهم في أهم أموره إليه.

إن اهتمام الخلافة العباسية بالحركة البابكية، وتضييق القوات العباســـية الخناق على البابكيين، وحصار قلعتهم حمل بابك على الاتصال بـــالإمبراطور البيزنطي برسالة يقول فيها: "إن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتليه إليـــه – يعني بابك– فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس في وجهك أحـــد يمنعـــك". وكان يرمي إلى تخفيف ضغط القوات العباسية عليـــه، فـــهاجم الإمـــبراطور

(زبطرة) الواقعة على الجبهة الشمالية وذلك عام ٢٢٢هـ/٨٣٣ قبل سقوط قلعة (البذ) بيد القوات العباسية، وربما كان هدفه التالي فتح ثغرة كبيرة باتجاه أرمينية ومن ثم الوصول إلى أذربيجان، فهاجم قاليقلا وأرسل ممثلين عنه إلى أقاليم أرمينية وطالبوا سكانها بأداء الضرائب. وقد مثل الإمبراطور بمن صار بيده من الأسرى فسمل أعينهم وقطع أنوفهن وآذانهم، ثم هاجم الإمبراطور شمشاط واستولى عليها وأحرقها، وكان تعداد الجيش الإمبراطوري مائة ألف مقاتل من ضمنهم الخرمية والبلغار والصقالبة، وعاد الإمبراطور إلى مقره محتفلاً بهذا النصر، وكان رد الفعل لدى أهالي الثغور كبيراً فخرجوا إلى المعتصم صارخين، واستغاثوا في المساجد والديار، أما موقف الخليفة المعتصم فكان التريث في الرد على ما فعله البيزنطيون في زبطرة وشمشاط لحين إنهاء الحركة البابكية، خصوصاً وأن القوات العباسية بدأت في إحراز انتصارات رائعة سريعة ضد الحركة، ومع ذلك أرسل الخليفة القائد عجيف بن عنيسة مع بعض القادة لترميم حصن زبطرة وشجعوا سكانها الهاربين إلى العودة إليها والاطمئنان فيها، كما بنوا أربعة حصون أخرى قريبة من زبطرة.

ـ فتح عمورية:

اشتدت الرغبة لدى الخليفة المعتصم في القيام بهجوم مضاد على الحدود البيزنطية، انتقاماً لما حدث من قتل وأسر وحرق وتمثيل، وتذكر رواية أن عم الخليفة إبراهيم ابن المهدي أنشده قصيدة طويلة يحثه فيها على الجهاد منها قوله:

يا غارة الله قد عاينت فانتهكي	هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على إجرامها قتلت	ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

وفي أول عام ٢٢٣هـ/٨٣٤ قام الإمبراطور بهجوم جديد على (ملطية) واستولى عليها بدون قتال، وأطلق سراح جميع الأسرى الروم الذين كانوا فيها.

وبعد أن ألقي القبض على بباك الخرمي وإعدامه، أصبحت الظروف مواتية للقيام بالحملة على الجبهة البيزنطية، أعلن الخليفة النفير في داره، ونصب الأعلام على الجسر ونودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين، فسارت إليه العساكر المطوعة، ويؤكد الطبري خروج أهل الثغور كلهم إلا من لم يكن عنده سلاح ووضع العطاء لهذا الغرض.

لقد كانت استعدادات الخليفة لهذه الحملة كبيرة، يقول الطبري: "وتجهز جهازاً لم يجهز مثله قبله خليفة قط". وكانت خطة الخليفة هي الهجوم على أنقرة وعمورية، ومن ثم التحرك نحو القسطنطينية لفتحها.

تحرك الخليفة من سامراء في جمادى الأولى من عام ٢٢٣هـ، أول نيسان ٨٣٤م مع قواده، وعسكر في الموصل ثم تحرك إلى (سروج) حيث اتخذها قاعدة، بعد ذلك تحرك نحو الجبهة فقسم الجيش إلى قسمين الأول بقيادة الأفشين، واتخذ طريق (درب الحدث) والثاني بقيادة الخليفة واتخذ طريق (درب السلامة) وكانت الخطة الوصول إلى أنقرة والخطة كانت من الدقة بحيث حدد الخليفة يوماً معيناً للجيش الأول للالتقاء به في أنقرة.

علم الإمبراطور البيزنطي بتحرك الجيش العباسي، فتحرك من القسطنطينية، وأمر بتحصين عمورية، وعهد بحمايتها إلى قائده (إينيوس) وتحرك بجيشه نحو الجيش الأول الذي قيادة الأفسين، فنشبت معركة كان انتصار الجيش العباسي كبيراً، وهرب الإمبراطور نحو (نيفية) وكان عدد قتلى الروم أربعة آلاف قتيل.

التقى الجيش العباسي الأول بالجيش العباسي الثاني في أنقرة حيث أمر الخليفة بتهديمها، وبقي الخليفة أياماً في أنقرة استعداداً للهجوم على عمورية،

وأعاد ترتيب قواته وتحرك نحوهـــا وحاصرهـــا فـــي رمضـــان مـــن عـــام ٢٢٣هــ/٨٣٨ن،وكانت عمورية حصناً قوياً منيعاً يحيط بها سور يزيـــد مـــن مناعتها ما يقع عليه من أبراج، ويحيط بها أيضاً خندق واسع.

بدأ الهجوم برمي الأحجار الضخمة باستعمال المنجنيـــق علـــى الجيـــش العباسي، لذلك اتخذ الخليفة عدة إجراءات عسكرية فيها الكثير من الابتكار منها بناء المنجنيقات الكبار، يديرها أربعة رجال، وجعلها على منصات محمولة على عجلات، وضع دبابات كباراً تسع كل دبابة عشرة رجال،ثم اتخذ العـــدة لطـــم الخندق، بطرح جلود محشوة تراباً، حتى تستوي الأرض وقد نبه الخليفة إلـــى ناحية من السور ضعيفة التحصين، فركز الخليفة على هـــذه الناحيـــة، فجمـــع المنجنيقات اتجاهها، وأمرهم برميها رمياً مركزاً حتى لشدة اهتمامه بهذه الثغرة أن جعل مقره أمامها، وقد انصدع السور نتيجة رمي الأحجار عليه بالرغم مـــن المحاولات الكثيرة من الروم لترميمه بالخشب والجير.

وبعد عدة هجمات على السور نجح الجيش العباسي من اختراق الســـور واحتلال المدينة وأسر القائد البيزنطي إينيوس مع عدد كبير من الأسرى، ثـــم أمر الخليفة بإحراق المدينة انتقاماً لما فعله الإمبراطور من إحراق زبطرة.

عاد الجيش العباسي إلى سامراء بعد هذا الانتصـــار الكبـــير، وصـــرف الخليفة النظر عن مشروعه في مهاجمة القسطنطينية، بسبب اكتشاف مؤامـــرة داخل الجيش استهدفت حياته.

يعد انتصار عمورية، نقطة تحول في السياسة الخارجية للدولة العباســـية حيث اكتفى الطرفان بعدها بعقد هدنة غير رسمية، وتوقفت الأعمال الحربيـــة لسنوات عديدة، وربما عادت المناوشات المحدودة على الحدود ولم تتجاوزهـــا وتم تبادل الأسرى عام ٢٣١هــ/٨٤٥م على عهد الخليفة الواثق بن المعتصم.

الفصل السابع: بوارد تسلط العسكريين

اختلف المؤرخون القدامي في أول من استخدم الأتراك في الإدارة والجيش العباسي، فالجاحظ يشير إلى استخدامهم قبل عهد المعتصم، إلا أنه يعزو استخدامهم إلى المعتصم فيقول: "أشهد أن المعتصم كان أعرف الناس بهم حين جمعهم واصطنعهم". أما الثعالبي فإنه يعد المنصور أول من استخدم الأتراك، أما اليعقوبي فيرى أن المأمون هو البادئ باستخدامهم، على حين يرى المسعودي أن المعتصم هو الذي استكثر منهم ككونه يحب جمع الأتراك وشرائهم من أيدي مواليهم، أما المؤرخون المحدثون فإن أكثرهم يعزو سياسة استخدام الأتراك إلى الخليفة المعتصم.

هناك روايات مبعثرة تذكر جملة حوادث تؤكد استخدام الأتراك قبل عهد الخليفة المعتصم بكثير ومنذ عهد الخليفة المنصور، الذي استعان بهم في مهمات كثيرة، وللأتراك دور في القضاء على حركة عبد السلام اليشكري في عهد الخليفة المهدي، أما في عهد الرشيد فهناك إشارات إلى استخدام الأتراك في الجيش والإدارة أيضاً، وقد اشترك الأتراك في الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وتأييدهم لأحد الطرفين ضد الآخر، وفي رواية أن المأمون أمر أخاه المعتصم بشراء الأتراك، ويذكر اليعقوبي أنه اجتمع له منهم زمن الخليفة المأمون زهاء ثلاثة آلاف مقاتل، وعندما ذهب المعتصم إلى مصر بعد تعيينه والياً على الشام ومصر كان معه أربعة آلاف مقاتل من هؤلاء الأتراك، وكان قسم من هؤلاء الأتراك في حرس الخليفة المأمون، ولما جاء المعتصم إلى الخلافة، وكان أعرف الناس بهم، ولكونه رجلاً عسكرياً، لذلك تستكثر في شرائهم، فضلاً عن الحاجة إلى تطعيم الجيش العباسي بقوة ضاربة جديدة وكان

أغلب هذه القوة الجديدة من بلاد ما وراء النهر، ومع ذلك فإن المعتصم شكل فرقة من العرب أيضاً، ففي رواية أن المأمون ضم إلى جيش أخيه أبي إسحاق (المعتصم) الثوار من القيسية في أرمينية، وفرض لهم، وكذلك ضم إليه فرقة أخرى بقيادة خالد بن يزيد الشيباني، مع عشيرته وخلف عظيم من ربيعة، فضلاً عن تشكيل الخليفة المعتصم، في فرقة جديدة من العرب اليمانية والقيسية، من الذين استقروا شمالي أفريقية بعد الفتوحات، وأطلق عليها اسم (المغاربة) وأسكنهم في سامراء عند بنائها، مما يدل على أهميتهم في تلك الفترة.

من كل ذلك يتضح أن الخلافة العباسية كانت دوماً بحاجة إلى تطعيم الجيش بقوة ضاربة سواء من العرب أو من غيرهم، ولم تكن العناصر الجديدة الأعجمية في الجيش سوى موالي للخليفة، تضع الولاء للخلافة العباسية فوق كل اعتبار، فضلاً عن قوة شخصية الخلفاء العباسيين الأول بحيث استطاعوا أن يحدوا من أطماع أو أي تطلع لأي قائد عسكري، مهما كانت منزلته فمثلاً عندما قضى الأفشين على حركة بابك الخرمي كرمه الخليفة، يقول الطبري: "فتوج المعتصم الأفشين وألبسه وشاحين بالجواهر". ووصله بعشرين مليون درهم، إلا أن الخليفة أمر بتصفيته عندما أحس منه تطلعات أو أطماع كما لاحظنا ذلك في فصل سابق.

وقد بدأت خطورة الجند التركي منذ وقت مبكر، فقد اشترك بعضهم في مؤامرة العباس بن المأمون في الجبهة البيزنطية لاغتيال الخليفة المعتصم، وقد انكشفت المؤامرة وقبض على المتآمرين وقتل باقي القواد ومن لم يحفظ أسمه من الأتراك والفراغنة.

وفي عهد الخليفة الواثق بدأت هذه العناصر تتبوأ مناصب إدارية فضلاً عن المناصب القيادية، فعين الواثق أشناس التركي والياً على الأقاليم من غرب العراق إلى إفريقية، وأرسل أشناس عماله إلى تلك الأقاليم، وتوجه وألبسه وشاحين بالجواهر، أما إيتاخ التركي فعينه على كور دجلة والسند، ويفهم من الطبري أنه كان والياً على اليمن أيضاً، وعند وفاة أشناس جعل مرتبته وأكثر أعماله إلى إيتاخ التركي، أما وصيف التركي فإن الخليفة كرمه عند قضائه على حركات الأكراد في إقليم فارس والجبال وقلده سيفاً.

كانت أول بادرة لتدخل هؤلاء العسكريين في شؤون السياسة عند وفاة الخليفة الواثق، الذي لم يعالج مشكلة ولاية العهد معالجة حكيمة، فقد توفي ولم يعهد بالخلافة إلى أحد بعده، فكان مجيء أخيه جعفر (المتوكل) يترشح ومساندة القادة العسكريين، إيتاج ووصيف وبغا الشرابي، وبذلك فتح الباب أمامهم للتدخل في شؤون سياسية بعيدة عن اختصاصهم، فضلاً عن ظهور بوادر جديدة وهي اعتراض الجند على توزيع الأرزاق، ومطالبتهم بالمساواة فعندما اختير المتوكل للخلافة أمر للفرق العسكرية من الأتراك والشاكرية، والهاشميين برزق ثمانية أشهر، إلا أنه أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر، فاعترض هؤلاء ورفضوا أن يقبضوا الرزق (العطاء) وبعد مفاوضات وتوسط القائد وصيف أجروا بعد ذلك مجرى الأتراك.

أدرك المتوكل خطورة تدخل هؤلاء العسكريين، فاتخذ عدة إجراءات للحد من سيطرتهم، فانتهز أول فرصة وتخلص من القائد إيناخ عند رجوعه من الحج، وصودرت أمواله وضياعه، في الوقت الذي كان في أوج قوته لكونه يشرف على الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة.

وفي عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م انتقل الخليفة إلى دمشق حتى يبتعد عمن يحيط به من العسكريين، وكان ينوي اتخاذها عاصمة وينقل الدواوين إليها، إلا أن ضغط العسكريين أدى إلى أن يصرف النظر عن مشروعه ويعود إلى سامراء.

ومن الإجراءات التي اتخذها المتوكل للحد من نفوذ العسكريين قيامه بتشكيل فرقة عسكرية جديدة باسم ابنه المعتز، وبرعاية الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان، تعدادها اثنا عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم، وهي خطوة مهمة وأولية لتغيير الجيش القديم بجيش جديد لكن النتيجة، حيث استغل هؤلاء العسكريون الخلاف الذي دب بين الخليفة المتوكل وابنه المنتصر، فتعاونوا فيما بينهم، ودبروا مؤامرة واغتيل الخليفة، وبذلك انتصر الجيش وبدأ يتحكم بالخلفاء فيما بعد.

الباب الثالث

الخلافة العباسية في عصر النفوذ التركي
(٢٤٧هـ ـ ٣٣٤هـ / ٨٦١م ـ ٩٤٥م)

الفصل الأول: فترة الفوضى العسكرية (٢٤٧هـ ـ ٢٥٦هـ)

الفصل الثاني: فترة انتعاش الخلافة (٢٥٦هـ ـ ٢٩٥هـ)

الفصل الثالث: عصر المقتدر (٢٩٥هـ ـ ٣٢٤هـ)

الفصل الرابع: فترة إمرة الأمراء (٣٢٤هـ ـ ٣٣٤هـ)

الخلافة العباسية في عصر النفوذ التركي

(٢٤٧هـ ٣٣٤هـ / ٨٦١م ٩٤٥م)

الفصل الأول: فترة الفوضى العسكرية (٢٤٧هـ ٢٥٦هـ)

يعتبر مقتل الخليفة المتوكل ٢٤٧هـ على يد الجند الأتراك في سامراء بداية لضعف الخلافة العباسية من الناحية السياسية، ومؤشراً لنهاية الخلفاء العباسيين الأوائل الأقوياء.

فقد اصطلح معظم المؤرخين على تسمية الفترة التي أعقبت مقتل الخليفة المتوكل بفترة التسع سنوات ، أو فترة الفوضى العسكرية (٢٤٧هـ-٢٥٦هـ)، التي تولى فيها أربعة من الخلفاء وهم المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي.

والحقيقة أن ما حصده الخلفاء الأربعة خلال التسع سنوات لم يكن من فعل الخلفاء أنفسهم، وإنما يعود في جذوره إلى أيام الخليفة المعتصم وسياسته بالاعتماد الكلي على الجند الأتراك، وإسقاط المقاتلين العرب وغيرهم من العناصر الأخرى من الديوان وإبعادهم عن الجندية، مما أدى إلى الإخلال بالتوازن الضروري لوجود الدولة العباسية، وكان عاملاً مهماً في سيادة الروح العسكرية، وتحكم الجند فيها تحكماً كيفياً، وتلاعبهم بمقدرات البلاد السياسية، وقد أدى كله إلى ضعف الخلافة العباسية، وجاء الخليفة الواثق (٢٢٧هـ-٢٣٢هـ) إلى الخلافة فسار سيرة أبيه المعتصم في تفضيل الأتراك، وزاد عليه أنه استخلف على السلطنة أشناس التركي، وألبسه وشاحين وتاجاً مجوهراً.

ولما توفي الخليفة الواثق ولم يعهد لحد بالخلافة من بعده، كان من السهل على الأتراك أن يسيطروا على الموقف، فاجتمعوا وقرّ رأيهم على تنصيب المتوكل (٢٣٢هـ-٢٤٧هـ) ظانين أن الخليفة الجديد سيلبي مطالبهم.

ولكن المتوكل خيب آمالهم، فأخذ يستعين بعناصر غير تركية، وأخذ يدخل فرقاً عسكرية من القبائل العربية، ليحفظ التوازن في الجيش، ويعيد الدولة إلى سيرتها الأولى، ثم أخذ يحيل النظر في استئصال الأتراك.

ولكن الأتراك عمدوا إلى قتله حفظاً على مصالحهم، وجاءوا بابنه المنتصر (٢٤٧هـ-٢٤٨هـ) وبذلك بدأ تحكم المباشر في الدولة.

ولم يكن أمام الخليفة الجديد في هذه الفترة إلا إرضاء الأتراك والتزلف إليهم وتنفيذ مطالبهم، ومع هذا كله فإن الخليفة المنتصر كان يشعر بوطأتهم وطغيانهم واستبدادهم بالأمور، فأخذ يفكر في وضع حد لتدخلهم في شؤون الدولة بقتل رؤساءهم والتحرر من سيطرتهم، وكان شغله الشاغل، ولسان حاله يقول: "هؤلاء قتلة الخلفاء .. قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم". فلما أحس الأتراك بما هو عازم عليه، ووجدوا منه الفرصة، دسوا له السم فمات سنة ٢٤٨هـ، بعد حكم لم يتجاوز ستة شهور، وجاءوا بأحد أبناء المعتصم المغمورين، وهو أحمد بن محمد ولقبوه بالمستعين _٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ).

وكان هذا الخليفة كما وصفه المؤرخون (لين الجانب منقاداً لأتباع مهملات الأمور، شديد الخوف على نفسه)، وكان مسلوب السلطة، والغالب على أمره القائدان التركيان وصيف وبغا.

والمهم في الأمر أن الجند الأتراك تمكنوا في هذه المرحلة من القبض على زمام الحكم بيد من حديد، ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بين زعمائهم،

وانقسموا إلى حزبين متنافرين، أحدهما يؤيد باغر التركي، والآخر يؤيد وصيف وبغا، أما الخليفة فكان حائراً بين الاثنين لا يدري ما يفعل.

وأخيراً اتفق وصيف وبغا مع الخليفة فقتلوا باغراً، وقد استفز هذا العمل غضب الجند الأتراك وأخاف المستعين، فأنحدر إلى بغداد لعله يجد نصيراً من البغداديين الذي عرف عنهم بنصرتهم للخلفاء العباسيين، أم من صاحب شرطتها محمد بن عبد الله بن طاهر، فما كان من الجند الأتراك في سامراء إلا أن بايعوا المعتز بالخلافة، هذا (والمستعين كان لا يزال خليفة مجتمع عليه في الشرق والغرب)، فأرسل خليفة سامراء أخاه أحمد بن المتوكل (الموفق) إلى بغداد لحرب المستعين، فتوجه إلى بغداد وحاصرها، وقد أعادت هذه الحرب إلى الأذهان فتنة الأمين والمأمون، فقد وقفت سامراء إلى جانب المعتز بن المتوكل، ووقفت بغداد إلى جانب المستعين بن المعتصم.

ولما بلغ أهل بغداد تحرك جيش المعتز استعدوا للدفاع عن مدينتهم وخليفتهم، والتحم الجيشان وانتصر أهل بغداد على جيش سامراء في عدة مواقع ودام القتال أشهر، فتم ذلك بعد أن جرت السفراء بينهم وبين الموفق سنة ٢٥٢هـ، وأجاب المستعين إلى خلع نفسه (لما رأى ضعف أمره وخذلان ناصريه)، ثم قتل بعدها في شوال ٢٥٢هـ، فكانت خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوماً.

لم يكن للمعتز مفر في محاباة الجند الأتراك الذين أجلسوه على العرش للخلافة، ولكنه كان في الوقت نفسه يحاول تدبير الحيل للتخلص منهم، لأنهم تأصلوا في الدولة وكثروا في العاصمة والولايات وكثرت أرزاقهم حتى بلغت

خراج المملكة لسنتين، وكان إذا تأخر عطاؤهم يثيرون المشاغبات ويقضّون مضاجع الدولة.

وحاول المعتز الاستعانة بطاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، وطلب منه النجدة والنصرة على الجند الأتراك، فأجاب طاهر الخليفة إلى طلبه، وأرسل عمه سليمان بن عبد الله بن طاهر، فدخل سامراء في خلق كثير من الجند، ولكن رؤساء الأتراك أفلحوا في حمل الخليفة على إبعاد الأمير الطاهري إلى بغداد، ولما تم لهم ذلك عادوا إلى دسائسهم وشغبهم، وكانت أم المعتز (قبيحة) تحرض ابنها على الإيقاع بالأتراك (وتلومه على ميله لهم دون طلب الثأر لوالده المتوكل، وكان المعتز يعدها ويمنها وهو يعلم أنه لا يقوى عليهم مع كثرة عددهم وشدة شوكتهم وغلبتهم على أمور الخلافة).

وأخيراً اتفق الجند الأتراك فيما بينهم – بعد أن أوجسوا من المعتز خيفة– على خلعه، فساروا إليه بأجمعهم في رجب ٢٥٥هـ ودخلوا عليه وأخرجوه بطريقة مهينة ومزرية وقتلوه.

ثم أرسل الأتراك بمبايعة المهتدي بالله، وهو أبو عبد الله محمد بن الواثق وكان في بغداد، وقد نفاه إليها المعتز ولم يقبل المهتدي أن يتولى الخلافة، إلا بعد أن يتنازل عنها المعتز، فأقر المعتز بخلع نفسه.

لكن الأمر لن يستتب للمهتدي، إذ شعر القادة الأتراك بأنه خليفة قوي، فقال لهم بابكيال: (إنكم قتلتم ابن المتوكل، وهو حسن الوجه سخي الكف، فاضل النفس، وتريدون قتل هذا، وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب! والله لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك).

وعندما علم المهتدي بما عزم عليه القادة الأتراك من خلعه (تحول من مجلسه متقلداً سيفاً، وقد لبس ثياباً نظافاً، وتطيب، ثم أمر بإدخالهم عليه، فدخلوا فقال لهم، بلغني ما أنتم عليه، ولست كمن تقدمني، مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط، وقد أوصيت إلى أخي بولدي وهذا سيفي، والله لأخربن به ما استمسك قائماً بيدي، والله لئن سقط مني شعرة ليهلكهن وليذهبن أكثركم هذا الخلاف على الخلفاء والأقدام والجرأة على الله ..).

وقد وقف بجانب الخليفة المهتدي العامة ورجال الدين، وقد أرسلوا إليه رسالة ذكروا فيها،: (أنهم سامعون مطيعون، وأنهم بلغهم أن موسى وبابكيال وجماعة معهما يريدونه على الخلع وأنهم يبذلون دماءهم دون ذلك)، وشكوا إليه سوء أوضاعهم وتأخر أرزاقهم، فأرسل إليهم المهتدي كتاباً جاء فيه (قد فهمت كتابكم وسرني ما ذكرتم من طاعتكم، فأحسن الله جزاءكم..).

كما اتبع الخليفة براعة وضرباً ودهاءً في محاربة الترك، فحاول تقسيم صنوف الجيش وضرب بعضهم بعض، وابتنى قبة للمظالم لها أربعة أبواب، كان يجلس فيها للعام والخاص، كما وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب، وأخرج المغنين والمغنيات من سامراء ونفاهم إلى بغداد، وأبطل الملاهي، وقرب العلماء ورفع مكانتهم، كما أمر بترك اللعب بالديكة وقتل السباع والمحبوسة.

وأخيراً فكر الخليفة المهتدي بضرب القادة الترك بعضهم بالآخر، لكن الأتراك فطنوا إلى هذا التدبير عليهم، فكتب المهتدي كتاباً إلى القائد التركي بابكيال يأمره فيه بقتل موسى بن بغا، ففطن للأمر، وجاء إلى موسى، فقرأ عليه كتاب الخليفة المهتدي، وقال له: لست أفرح بهذا فإنه تدبير علينا جميعاً، فما

ترى، فقال موسى: أرى أن تسير إلى سامراء، وتخبره أنك في طاعته ونصرته عليّ وعلى مفلح، فهو يطمئن إليك، ثم تدبر في قتله.

فعاد القادة الأتراك إلى سامراء ومنهم بابكيال وموسى وعندما دخلوا سامراء شعر المهتدي بأنهم يتآمرون عليه، فجمع حوله المغاربة والأتراك وقبض على بابكيال وأمر بقتله، فكانت هذه الشرارة التي أنهت حياة الخليفة المهتدي، إذ هاج الأتراك لمقتل بابكيال، ولم يستطع الخليفة المهتدي بجميع قواته ومؤيديه، على الرغم من استنجاده بالعامة، وخرج يقاتل الأتراك، ويقول: أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم، لكن جهود العامة لم تكن منظمة، فأدت إلى انتصار القادة الترك وقتل الخليفة المهتدي بالله.

الفصل الثاني: فترة انتعاش الخلافة (٢٥٦هـ ٢٩٥هـ)

استعادت مؤسسة الخلافة هيبتها ومكانتها خلال هذه الفترة، فقد خرج الخلفاء أنفسهم، وباشروا الأمور، ففي خلافة المعتمد على الله (٢٥٦هـ-٢٧٩هـ/ ٨٦٩م-٨٩٢م) أصبح الموفق، أخوه، هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في الدولة العباسية، وقاد حملات عسكرية من أجل ضبط أمور الدولة، فقد اشتبك مع يعقوب بن الليث الصفار، وانتصر عليه في موقعة دير العاقول سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م كما تولى قيادة الجيش العباسي لمواجهة حركة الزنج.

وعندما جاء الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩هـ-٢٨٩هـ/ ٨٩٢م-٩٠١م) كان قد تدرب على قيادة الجيش والحملات، واكتسب ٠خبرة كبيرة في قيادة المعارك والحروب، إذ دربه أبوه الموفق أثناء القضاء على حركة الزنج، وكان المعتضد بالله يحارب الخارجين بنفسه، وقاد أكثر من حملة في هذا المجال، فقد توجه لحرب بني شيبان، ثم عقد الصلح معهم، ومن ثم توجه إلى ماردين وسيطر عليها.

ولما توفي الخليفة المعتضد بالله، وتولى المكتفي بالله الخلافة ٢٨٩هـ-٢٩٥هـ/٩٠١م-٩٠٧م، لم يكن له حزم أبيه في قيادة الجيوش، وتوجيه الحملات العسكرية إلا أنه تقرب إلى الناس (بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم).

ومن أهم الأوضاع الداخلية التي شهدت هذه الفترة هي:

- حركة الزنج:

كان الزنج يستقدمون في الصومال وزنجبار، ويستخدمون في الزراعة بأعداد كبيرة جداً، نتيجة للنشاط التجاري وازدهار التجارة، وفي غسل واستصلاح الأراضي، لجعلها صالحة للزراعة، وكذلك للاستفادة من الأملاح المتجمع على سطح الأرض، وكانت أجورهم تصرف على شكل مواد غذائية كالطحين والتمر والسويق، أو تدفع لهم بشكل نقدي.

وفي شوال من سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م خرج رجل لقبه بهبوذ من قرية ورزنين، وهي من قرى الري مدعياً النسب العلوي وتسمى بـ(علي بن محمد).

كان يتردد هو وأبوه إلى سامراء، إذ كانوا من بين أتباع حاشية المنتصر، ثم ترك سامراء، وتوجه سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م صوب البحرين، ودعا الناس إلى طاعته، وجبى خراجهم، ونفذ حكمه فيهم، وحاربوا أصحاب السلطات بسببه، ثم عاقب جماعة من أعيانهم، فغضبوا عليه، وجرت مناوشات فيما بينهم، فتوجه صوب الإحساء، ثم هزم في إحدى المعارك، فتخلى عنه أهل الإحساء، فاتجه إلى البصرة، فعلم به عامل البصرة، محمد بن رجاء الحضاري، فحبسه هو وأهله، ولكنه استطاع الهرب، واتجه يريد بغداد، وفي الطريق قبض عليه عامل البطيحة، عمير بن عمار، لكنه تخلص منه، وسار نحو بغداد، وادعى أنه من أبناء محمد بن أحمد بن عيسى، وفي سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م عزل محمد بن رجاء عن ولاية البصرة، فهجم رؤساء قبائل البلالية والسعدية على السجون، فأخرجوا أهلها، وكان من بينهم عائلة بهبوذ.

ثم رجع بهبوذ إلى ولاية البصرة، وادعى أنه مرسل من أبناء الواثق بالله لغرض بيع السباخ، وأمر الناس أن يسلموا عليه بالإمرة كما دعا العبيد الزنوج إلى الدخول في طاعته بعد أن تعرف على أحوالهم، فسأل عن أخبار غلمان

الشورجيين، وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر، ودعا العبيد في خطبة إلى ضرورة تحسين وضعهم وأنه يهدف إلى أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الرتب.

ولهذا يمكن القول أنه لم يهدف إلى القضاء على الرق، فقد حرر العبيد لكنه استرق من وقع في يده من الأسرى، كما أخذ يدعو بقية العبيد للالتحاق بحركته، حيث ابن الأثير عن هذا فيقول: (مازال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويمكنهم الأموال، وحلف لهم بالإيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم). وقد توسط موالي العبيد لديه أن يرجع إليهم عبيدهم لقاء خمسة دنانير لكل عبد لكنه رفض ذلك.

وكان أغلب الزنج من غير العرب، ومن الذين لا يفهمون العربية ولا يملكون أية ثقافة، وكان صاحب الزنج بحاجة إلى سند شرعي لدعم حركته، فادعى أن العناية الإلهية أرسلته لكي يخلص العبيد من وضعهم وادعى النبوة، ومعرفة الغيب، وعلى الرغم من ادعائه النسب العلوي، إلا أنه دعا إلى فكرة الخوارج، ويرى أن يكون الخليفة من أفضل المسلمين، ولو كان عبداً حبشياً، وكان يكتب على لوائه (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة)، وهذا شعار الخوارج الأزارقة، كما كتب على علمه اسمه واسم أبيه فقط.

وقد استمرت هذه الحركة أربعة عشر عاماً، هددت خلالها الدولة العباسية، وقد أرسلت إليها الخلافة العباسية عدة جيوش من أجل القضاء على هذه الحركة لكنها فشلت.

ثم اتسعت حركة الزنج، وشملت الأبلة والأحواز، وترك قسم كبير من سكان البصرة أرضهم، حيث انفض كثير من أهلها عنها، وتفرقوا في بلدان شتى، وقطعت المواصلات بين البصرة وبغداد، انقطعت التجارة، وأصيبت

بأضرار بالغة، وتعرضت مدينة البصرة مرات متعددة لغارات الزنج، فقتلوا الكثير من أهلها، وخربوا المسجد الجامع وأحرقوه، وقتلوا من أهلها على حد بعض الروايات التاريخية ٣٠,٠٠٠، وسبوا الأطفال والنساء وحصل الواحد منهم على عشرة أرقاء أو أكثر، فهرب الناس على وجوههم، ثم أرسل الخليفة محمد بن المولد، لنجدة أهل البصرة، فدخل البصرة والأبلة دون مقاومة، لكن صاحب الزنج بيت عسكره وهاجمه.

كما تعرضت مدينة واسط أيضاً لخطر الزنج، الذين هاجموها فخلى الناس البلد، وخرجوا حفاة على وجوههم، وأحرقت واسط، ثم توجه الزنج شمالاً، فوصلوا مدينة النعمانية التي أحرقوا سورها وأكثر منازلها وسبوا أهلها، ثم وصلوا جرجرايا، فلجأ سكانها إلى مدينة بغداد.

لكن الذي عجل في القضاء على حركة الزنج، هو مجيء الموفق، وتحمله مسؤولية قيادة الجيوش العباسية أثر بارز في إخماد حركة الزنج والقضاء عليها.

كانت البداية صعبة، إذ لم يكن الموفق مستعداً للقتال، فهزم حيث أكثر من مرة، ومرت الخلافة في ظروف صعبة جعلت الموفق أكثر من مرة يترك قيادة الجيش ويتوجه إلى سامراء، ومن هذه الحوادث الحرب مع الصفارين في موقعة دير العاقول، وقد خاف الموفق أن يحدث تحالف بين يعقوب بن الليث الصفار، وبين صاحب الزنج، سيما وقد راسل صاحب الزنج، يعقوب بن الليث، وطلب منه التعاون من أجل القضاء على الخلافة العباسية، لكن يعقوب ابن الليث رفض ذلك التعاون.

وكذلك محاولة هرب الخليفة المعتمد على الله إلى مصر، حيث حاول أحمد بن طولون استمالته إليه، ودعاه إلى مصر، فتظاهر المعتمد برحلة صيد إلى الجزيرة فعلم به الموفق، فأرسل إلى والي الموصل إسحاق بن كنداج

بالقبض على الخليفة وإرجاعه إلى سامراء، وكان أحمد بن طولون قد تهيأ لاستقبال الخليفة، وقدم إلى بلاد الشام من مصر، فأفشل الموفق هذه المحاولة.

لكن وفاة يعقوب بن الليث الصفار سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م، وتولي أخيه عمرو بن الليث الصفار، قلب ميزان القوى، فبدأ عمرو بن الليث صفحة بيضاء مع الخلافة العباسية، وأعلن خضوعه للخليفة العباسي، كل هذه الأمور سهلت مهمة القضاء على هذه الحركة.

لهذا أخذ الموفق يفكر جدياً في محاربة الزنج، ويتأنى ولا يتسرع، وقد أسند الموفق قيادة الجيش لابنه أبي العباس -المعتضد- كما أمر الموفق ببناء القوارب الصغيرة والمتوسطة لغرض مواجهة الزنج ومحاربتهم بنفس أسلحتهم التي يستخدمونها ضد الخلافة وجيوشها،

وقد أظهر أبو العباس من المقدرة العسكرية، وبعد النظر العسكري ما فاق تصور الزنج، الذين اعتقدوا أنه فتى غرّ، لم تطل به ممارسة الحروب وتدربه عليها حيث لن يتجاوز الـ٢٣ ربيعاً، لكنه تمكن من تمزيق جيش سليمان بن جامع، كما عمل أبو العباس على بناء قاعدة عسكرية له تعرف بالعمر لتكون مقراً لجيشه.

واتبع أبو العباس خطة جديدة، فبعد كل هجوم كان يصطنع بقي من الزنوج ويقربهم، ويعفو عنهم، ويجعلهم قرب أصحابهم ليروا مدى التكريم والتقدير الذي يلقونه، وكانت أخبار هؤلاء تصل إلى جيش صاحب الزنج فتفت في عضده، فاستأمن كثير من جيشه إلى جيش الخلافة العباسية، بهذا أمر صاحب الزنج بوضع الحرس على منافذ الأنهار.

وعندما شدد الموفق وابنه الحصار على صاحب الزنج، أمر صاحب الزنج علي ابن إبان بترك الأحواز والتوجه إليه، فلما علم الموفق بهذه المحاولة

جاء وأسند ابنه، وتوجه لحرب المدينة المنيعة قرب رامط، واحتل الجيش العباسي الحصن، وأطلقوا سراح ٥,٠٠٠ أسيرة مسلمة منهم، ثم أمر الموفق الناس في أخذ ما كان فيها أجمع، وأمر بهدم أسوارها وطم خندقها، وأحرق ما تبقى من السفن فيها، ثم أخذ الموفق يستعد لمواجهة المنصورة، وقد حصنها الزنج بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يلجؤون إليه، واستطاع الجيش العباسي من دخولها، وهرب سليمان بن جامع، وقد استنقذ الموفق زهاء ١٠,٠٠٠ من أهل واسط وغيرها فحملوا إلى أهلهم، ثم أمر الموفق بهدم سورها وطم خندقها، ثم توجه الموفق إلى الأحواز فدخلها في رجب سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م، ومنذ هذا الوقت اقتصر الزنج على مدينتهم المختارة، وأصبحت الحرب تدور حولها.

وقد أرسل الموفق فرقة استطلاعية بقيادة ابنه أبي العباس، وقد استأمن إليه أحد قادة الزنج واسمه منتاب، فكان ذلك مما كسر صاحب الزنج وأصحابه، وقد أرسل الموفق إليه كتاباً يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان إلا أن صاحب الزنج رفض ذلك.

وأشرف الموفق على المختارة، وكانت مدينة محصنة جداً، (فأشرف عليها وتأملها، فرأى من منعتها وحصانتها بالحصون والخنادق المحيطة بها، وما تحور من الطرق المؤدية إليها، وما أعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها، ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان، ورأى كثرة عدة مقاتليهم، واجتماعهم ما استغلظ أمره).

فرض الموفق حصاراً اقتصادياً واسع النطاق لمنع الطعام والميرة من الوصول إلى المختارة، ونتيجة لهذا الحصار استأمن كثير من الزنج إلى الموفق، وكانوا يلقون كل عناية، ويجعلون قرب أصحابهم ليرون ما يفعل بهم من تكريم.

كما أكثر الموفق من استخدام (الشذا) ومما يحارب به في الماء، فأمر بإنقاذ الرسل في حمل المير في البر والبحر، وإدرارها إلى العسكر بالمدينة التي سماها الموفقية، وكتب إلى عماله في النواحي في حمل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة وأنقذ رسولاً إلى سيراف وجناباً في بناء الشذا والاستكثار منها، لما احتاج إليه من ترتيبات في الموضع التي يقطع بها المير عن الخائن وأشياعه وأمر بالكتابة إلى عمال بالنواحي بإنقاذ كل من يصلح للإثبات في الديوان، ويرغب في ذلك.

كما اتخذ الأسواق في المدينة، وأمر ببنائها، وأمر التجار بالتجارة فيها (إذ وردت المير متتابعة يتلو بعضها بعضاً، وجهز التجار صنوف التجارات والأمتعة وحملوها إلى المدينة الموفقية، واتخذت بها الأسواق وكثر بها التجار والمتجهزون من كل بلد)، كما أمر بإنشاء دار لضرب الدراهم والدنانير، يضاف إلى ذلك فتح الطريق التجاري بين البصرة وبغداد.

كما ضرب الموفق وابنه المعتضد على أيدي تجار الحروب ممن كان يساعد الزنج.

وقد جرت محاولات متعددة لدخول المختارة ففي ذي العقدة من سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م قام الموفق بهجوم كبير على المختارة، وأمر أصحابه أن يهدموا سورها ولا يدخلوها، فدخلوها فتأذوا بها كثيراً.

ثم توالت نجدات الخلافة للموفق من سامراء، وجاء الكثير من المتطوعة للجهاد، وبلغ عدد من هاجم المختارة في ٧٢ محرم في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م ٥٠,٠٠٠ مقاتل من الرجالة و ٢,٠٠٠ فارس) فقضي على الحركة، وقتل صاحبها وأتباعه، واستأمن من الباقون، وقد أصدر الموفق منشوراً إلى المسلمين يبشرهم فيه بانتهاء الخطر و(يدعو أهل البصرة والأبلة وكور وجلة

وأهل الأحواز وكورها، وأهل واسط، وما حولها) بالرجوع إلى مدنهم ومناطقهم ومزاولة أعمالهم الاعتيادية.

- العلاقة مع الإمارة الطولونية:

استطاع أحمد بن طولون من تأسيس دولة مستقلة في مصر، وطمع في بلاد الشام، وعندما جاء المعتمد إلى الخلافة، كان الموفق هو الحاكم الحقيقي، وليس للمعتمد إلا الاسم، فأراد الموفق أن يعزل أحمد بن طولون عن ولاية مصر، وقد بذل كل منهما عدة وسائل من أجل الإيقاع بالطرف الآخر، إلا أنها فشلت في عزل ابن طولون عن ولاية مصر، وظلت الأمور هكذا حتى فكر أحمد بن طولون في كسب الخليفة المعتمد على الله إلى جانبه، فأرسل له رسالة بين فيها شوقه إليه، ويعيب على الموفق تسلطه على الخليفة، وأرسل له رسالة جاء فيها، (وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان، ومؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم، شديد بأسهم، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين، أدام الله عزه بالنصر والتمكين والانجذاب إلى المصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه مما يخافه في كل لحظة منه عليه..).

ويبدو أن هذه الرسالة قد جاءت إلى المعتمد على الله، بناءً على شكوى بعثها المعتمد إلى أحمد بن طولون، وأثناء انشغال الموفق بحركة الزنج، قرر المعتمد على الله التظاهر بالصيد، وكان ابن طولون ينتظره في الشام، وعلم الموفق بالمحاولة، فأرسل إلى والي الموصل يأمره بالقبض عليه، بين الحديثة والموصل، وأعاده إلى سامراء.

ثم وصل الأمر بين الموفق وأحمد بن طولون إلى القطيعة، فجمع ابن طولون الفقهاء، وأفتاهم بخلع الموفق، فوافقوه جميعهم إلا القاضي بكار بن

قتيبة، وأسقط اسمه من السكة والدعاء، ثم تحسنت العلاقات بين الموفق وابن طولون بعد ذلك.

وفي عهد خمارويه ساد الوئام بدرجة أكثر بين الخلافة وبين الطولونيين حيث تزوج الخليفة المعتضد بالله، بقطر الندى ابنة خمارويه، أو كان من المقرر أن يتزوج المكتفي بها، وكان ذلك في سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م.

وعند وفاة المعتضد وتولي المكتفي بالله الخلافة ساءت أحوال مصر، ولم يستطع خلفاء أحمد بن طولون من السيطرة على الأمور، فأرسل الخليفة العباسي المكتفي بالله جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، فاستطاع إخضاع بلاد الشام، ثم توجه إلى مصر، حيث دخل مدينة القطائع سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م، وكان الجيش العباسي يتكون من جيشين بري وبحري، وبذلك انتهت الإمارة الطولونية في مصر والشام.

- العلاقة مع الإمارة الصفارية:

ظهرت هذه الإمارة في إقليم سجستان، وكانت في بداية أمرها تتكون من المتطوعة الذين أرادوا معاونة الخلافة العباسية بالقضاء على الخوارج واللصوص وقطاع الطرق، ثم سيطر على حركة المتطوعة يعقوب بن الليث الصفار، ثم قويت شوكته، واستطاع أن يستولي على كل إقليم سجستان، واستطاع إسقاط الإمارة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م.

عندها لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة الأيدي اتجاه هذا العمل فأصدرت منثوراً قرأ على حجاج خراسان والمشرق يبين أن هذا العمل غير صحيح، وعلى يعقوب بن الليث أن يعود إلى رشده، وأن سلطته غير شرعية وبدلاً من أن يتدارك يعقوب الموقف، أثبت عدم درايته وقصر نظره السياسي، فتحرك

يريد احتلال العراق، وقدم مطالب عديدة، وافقت الخلافة عليها، لكنه أراد إذلال الخليفة العباسي بدرجة أكبر، فكان لابد من المواجهة، وخرج الخليفة المعتمد على الله وعين أخاه الموفق قائداً لجيشه، وكانت بداية الجولة لصالح يعقوب، فأخطر الخليفة للخروج، فخرج المعتمد على الله مرتدياً بردة الرسول محمد ﷺ، فما أن رأى جيش الصفار الخليفة وحيداً، ففر باتجاه جندي سابور، فأرسلت إليه الخلافة رسولاً يعرض الصلح فرفضه يعقوب.

وبعد وفاة يعقوب ٢٦٥هـ/٨٧٨م، تولى أخوه عمرو بن الليث أمور الدولة فبدأ صفحة جديدة وأعلن خضوعه للخليفة العباسي الذي أرسل إليه الخلع واللواء والعهد بحكم خراسان فأبقى عمروا العهد في داره ثلاثة أيام ثم مرت العلاقة بين الإمارة الصفارية والخلافة العباسية بنوع من الركود، تارة والحرب تارة أخرى حتى سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م، عندها طلب عمرو بن الليث الصفار ولاية ما وراء النهر ليحكمها بدلاً من السامانيين، فاضطر الخليفة العباسي المعتضد إلى إرسال عهد ما وراء النهر إليه، فتوجه للقضاء على الإمارة السامانيية، وقرب بلخ دارت معركة كانت الغلبة فيها للسامانيين، وسقطت الإمارة الحضارة الصفارية، ثم أرسل إسماعيل بن أحمد السامانس عمرو بن الليث الصفار أسيراً إلى الخليفة المعتضد في سامراء فتلقاه وقال له: له: (الحمد لله الذي كفاني شرك، وفرغت القلوب من الانشغال بك)، ثم أمر به فقتل سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م.

الفصل الثالث: عصر المقتدر (٢٩٥هـ-٣٢٤هـ)

تولى أبو الفضل جعفر بن المعتضد الخلافة بعد وفاة المكتفي سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م، وظل فيها حتى قتل سنة ٣٢٠هـ، وقد جرت عدة محاولات لخلعه الأولى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، فخلعوه وبايعوا لابن المعتز، وقد لعب (القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن، على خلع المقتدر، والبيعة لابن المعتز، وأرسلوا إلى ابن المعتز في ذلك، فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم ولا حرب، فأخبروه باجتماعهم عليه، وأنه ليس لهم منازع ولا محارب)، وكان السبب في هذا الخلع هو صغر سن المقتدر ١٣ سنة، وقد أفشل هذه القضية أتباع المقتدر حيث اجتمعوا وقالوا: (لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عذراً، ونجتهد في دفع ما أجابنا)، وقد نجحوا فعلاً في إعادة المقتدر إلى الخلافة.

كما جرت محاولة ثانية لخلعه غي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، حيث ثار الجند وخلعوا المقتدر، وهاجموا دار الخلافة ونهبوا، ونصبوا مكانه محمد بن المعتضد، ولقب بالقاهر بالله، إلا أن القاهر لم يستطع أن يوفي بالتزاماته المالية للجند الذين طالبوا بستة رواتب إضافية مقابل إبقائه في الخلافة، فلما عجز على ذلك ثار به الجند مرة ثانية، وأرجعوا المقتدر للخلافة بعد أن وعدهم بإعطائهم المال الذي طلبوه.

وقد كلف هذا العمل الخليفة أموالاً طائلة، زاد في الأزمة المالية تعقيداً، فإذا علمنا أن عدد الجند الرجالة (المشاة) ٢٠ ألفاً، وعدد الفرسان ١٢ ألف، ورواتبهم الشهري ٥٠٠ ألف دينار، قدرنا الأموال التي هدرت خلال فتنة القاهرة.

إن أهم قضية يمكن أن تلاحظ خلال فترة حكم المقتدر هي مشكلة توفير الأموال للجند، فقد عرف عن المقتدر أنه أتلف الأموال التي جمعها أبوه وأخوه من قبل، ولأهمية مسألة توفير أموال الجند، نجد كثرة عزل وتولية الوزراء خلال فترة حكمه، حيث كان الجيش بفرقه المختلفة من الفرسان والرجالة ينتهزون هذه الفرص، من أجل إثارة المشاكل والمطالبة بأرزاق إضافية، أو طلب زيادة الرواتب.

كان واجب الوزير ينحصر في توفير الأموال، وأوجه صرفها، لكف سوء الأحوال دفع في بعض الأحيان إلى تولى وزراء ضعاف، وعدم معرفتهم كيفية الإدارة، فكان هذا عاملاً مساعداً في حدوث أزمات كثيرة.

يضاف إلى ذلك ظهور ظاهرة الالتزام بالوظائف، فلا تعطى الوظائف للأشخاص الأكفاء، بل تعطى لمن يدفع أكثر، ولربما تولى الوظيفة أكثر من شخص، وتكون التولية للعمال من الوزراء، حيث يتلاعبون بها بشكل كبير، وكان عزل الوزراء العمال يرافقه مصادرات نظراً لاستئثار بعضهم بالأموال، كما ويلاحظ كثرة تدخل الحريم في أمور الدولة، فكان لأمه (شغب) دور كبير في تمشية أمور الدولة وعزل الوزراء وكذلك وصيفاتها وخصوصاً أم موسى، وكان المقتدر لا يرد لها طلباً، كل هذه العوامل كان لها أثر سيئ على الإدارة.

وعندما استفحلت الأمور وكثر شغب الجند وتدخل قادة الترك أراد المقتدر أن يستغل الوضع، ويضرب فرقه بعضها بعضاً، ويذكر ابن الأثير عن هذا في حوادث سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م فيقول: (في هذه السنة في المحرم، هلك الرجالة والمصافية، وأخرجوا من بغداد بعد ما عظم شرهم وقوي أمرهم..

وكثر شغبهم ومطالبتهم، وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليـــهم، ومعارفــهم، وأثبتوا أسماءهم، فصار لهم في الشهر مائة ألف وثلاثون ألف دينار).

واتفق أن شغب الفرسان في طلب أرزاقهم، فقيل لهم، أن بيـــت المـال فارغ، وقد انصرفت الأموال إلى الراجلة، فثار بهم الفرسان، فاقتتلوا ــ فقتل من الفرسان جماعة، واحتج المقتدر بقتلهم على الراجلة، ونودي فيهم بالخروج عن بغداد، ومن يتخلف يعرض نفسه للعقوبة وهدمــت دور زعمائـــهم، وقبضــت أملاكهم.

وفي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م هاج الجيش على قائده مؤنس وقالوا له: (اذهب بنا إلى الخليفة، فإن أنصفنا وأجرى أرزاقنا وإلا قاتلناه) فتوجــه مؤنــس إلــى بغداد، وقد أراد المقتدر أن ينحدر إلى واسط، ثم يكاتب العساكر ويترك مؤنــس في بغداد، إلا أن مستشاريه أشاروا عليه بعكس ذلك، ومحاربة مؤنس، وكــانت النتيجة قتل الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـ).

- الإصلاحات الإدارية:

من بين الإداريين الأكفاء كان علي بن عيسى، الذي استوزر بعد الخاقاني سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م، فأمر برد المظالم وأنصف المظلوميـــن، وأطلــق مــن المكوس شيئاً كثيراً بمكة وفارس، وأغلق المواخير والمفسدات، كما أسقط بعض الزيادات في الرواتب لبعض الجند، بعد أن أجرى الموازنة، فوجد المصــروف أكثر من الوارد.

كما أمر بعمارة المساجد وتبييضها، وفرشها بالحصر وأشــعال الأخويــة فيها، وأجرى للعاملين فيها من الأئمة والقراء والمؤذنين أرزاقاً، كما أسقط مــا زيد على الناس في خراج.

واهتم بالمستشفيات، وأمر بإصلاحها وترميمها، وعمل ما يحتـاج إليـه المرضى من الأدوية،وقـرر (عيـن) فيـها فضـلاء الأطبـاء، وفـي سـنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، كانت هنالك أربع مستشفيات في مدينة بغداد، ولم تكن كافيـة للمرضى فأمر المقتدر ببناء البيمارستان، وسمي باسمه البيمارستان المقتـدري، وأجرى عليه النفقات الكثيرة، وأوقف عليه الوقوف.

الفصل الرابع: فترة إمرة الأمراء (٣٢٤هـ-٣٣٤هـ)

تميزت هذه الفترة بالاضطرابات، وعدم الهدوء والاستقرار والسبب الرئيسي هو عدم توفر الأموال للدوافع رواتب الجند، وشغب الجند لم يقتصر على الخلفاء بل تعداه إلى الوزراء وضد قادتهم بالذات إذ كانوا يشعرون أنهم قد استأثروا بالأموال دونهم.

ونتيجة لهذا الوضع الاقتصادي السيئ، وعدم استطاعة الوزراء إحداث موازنة على الأقل بين الواردات والمصروفات اضطر الخليفة إلى البحث عن حل عليه يجد مبتغاه فيه، فاستحدث منصب أمير الأمراء، وقد تم الاتفاق بين الخليفة الراضي بالله ٣٢٢هـ-٣٢٩هـ/٩٣٣م-٩٤٠م، وبين ابن رائق التركي سنة ٣٢٤هـ/٣٩٥م، أن يسند إليه منصب أمير الأمراء، لقاء القيام بتوفير نفقات الدولة والجيش.

وباستحداث هذا المنصب فقد منصب الوزارة أهميته، وعلت مرتبة أمير الأمراء على منصب الوزير، حيث بطل (منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء، من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط).

الواقع أن توجه الخليفة الراضي إلى ابن رائق كان توجهاً مدروساً، فابن الرائق كان المتسلط على أعمال البصرة وواسط وكان يمتلك مقدرة مالية كبيرة حصل عليها من هاتين المنطقتين الغنيتين، كما أن الخلافة العباسية شهدت منذ سنوات قليلة قبل سنة ٣٢٤هـ أزمة إدارية ومالية حادة، فالخليفة الراضي استوزر خلال سنتين فقط أربعة وزراء هم: محمد بن علي بن الحسن بن مقلة الذي أغرى الجند الساجية بالأموال الكثير لكنه فشل في حل المشكلة المالية مما أدى به إلى أن يكون ضحية إذ قبض عليه الغلمان الحجرية سنة ٣٢٤هـ،

وأعقبه عبد الرحمن بن عيسى الذي عجز عن تمشية الأمور فاحتاج إلى الأموال وطلب قرضاً من الخليفة ولكن نهايته كانت العزل أيضاً، وجاء بعده الكرخي الذي فشل هو الآخر في السيطرة على الأزمة المالية لاسيما بعد انقطاع الموارد فانتهى أمره بالعزل، وجاء بعده سليمان بن الحسن بن مخلد، وكانت أيام وزارته قصيرة أيضاً كالوزراء السابقين فكان لا مفر للراضي بالله أن يبحث عن قوة تتمكن من السيطرة على الأمور وسد أفواه الجنود الحجرية والساجية فكان أمام عدة خيارات: إما أن يستدعي الحمدانيين وهم القوة العربية المتنفذة في الموصل والجزيرة، وكانوا يبذلون قصارى جهودهم في المجال العسكري الثغري وصد هجمات البيزنطيين، وإما أن يستنجد بالبريديين الذين صاروا قوة لا يستهان بها، وكانت لهم السيطرة على الأحواز وكانوا يطمعون في التغلب على البصرة، لكن الخليفة كان لا يميل إليهم لما عرفوا به من اغتنام الفرص لصالحهم، لذلك توجه إلى ابن رائق.

ولم يكن الخليفة الراضي سعيداً لتنفيذ أمير الأمراء الأجنبي في أمور الدولة، فيذكر أن مؤدبه أبا الحسن العروضي دخل عليه في إحدى المناسبات فوجده مغموماً من تحكم أمير الأمراء بجكم وكان في يده دينار قيمته حوالي عشرة دراهم وكان عليها صورة بجكم التركي وهو منتقب سلاحه، وكان مكتوب على جانبي الدينار والدرهم البيت التالي:

العز للأمير المعظم ... فاعلموا أن سيد الناس بجكم

ولكن ينجح أمير الأمراء لم ينجح في حل الأزمة المالية والسيطرة على الاضطرابات ونزاعات الجند المتكررة، والأمراك والديالمة، ففي السنة التي تسلم فيها ابن رائق المنصب شغب الجند الحجرية في بغداد وحاصروا دار الخلافة، ولم يهدأ الشغب إلا بعد أن أرسل ابن رائق القواد ضدهم وقلد لؤلؤ الشرطة، وبعد سنة واحدة أي ٣٢٥هـ/٩٣٦م شغب الحجرية أيضاً على ابن

رائق عندما كان في طريقه إلى واسط لمحاربة البردي، مما دفعه إلى أن يسقط الكثير منهم من جيشه فتزايد اضطرابهم وحملوا السلاح ضده فحاربهم وقتل قسماً منهم وهرب الباقون ونهبت دورهم وأملاكهم، وفي سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م اضطربت الأحوال المالية فحاول ابن رائق الحصول على الأموال من محمد بن طنج المتنفذ في مصر، وتصالح مع البريدي مقابل الثلاثين ألف دينار لكن الأمر لم يستتب لابن الرائق إذ ثار عليه بجكم ٣٢٦هـ/٩٣٧م واستولى على إمرة الأمراء.

وعلى إثر مقتل بجكم سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م اضطرب جيشه فقلد الديلم كنكري الديلمي أميراً للأمراء، ولم يرض الأتراك فهاجموه وقتلوه واحتاج الأتراك إلى الأموال فطالبوا الخليفة المتقي لله فأنفق ٤٠٠ ألف دينار، كذلك لجأ البريدي إلى أن الخليفة المتقي عندما طالبه الجند بالأموال فقال المتقي: (أن قد أنفقت في الأتراك أربعمائة وخمسين ألف دينار وفي غيرهم فمن أين أعطيه ما طلب؟ دعه يرد الحضرة ويعمل ما شاء فإني أرجو أن أكفي أمره).

إن هذه الكلمات تشير إلى حالة اليأس التي بلغها الخليفة في عدم استطاعته التغلب على المشكلة والمالية، ولم يستطع البريدي الذي استولى على بغداد أن يحد من طموحات الجند إذ أحرقوا دار أخيه أي الحسين واجتمع الديلم والأتراك على طرد البريدي من بغداد فصارت إمرة الأمراء إلى كورنيج، إلا أنه لم يبق طويلاً حتى شغب الجند ووقع القتال فيما بينهم، ولم يجد أمير الأمراء الجديد الأموال التي يحتاجها للجند فطلبها من علي بن عيسى وأخيه فأجاب علي (إن المال قد استنظف من النواحي وأنه لا وجه له..).

وفي سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م شغب الأتراك على ابن رائق الذي عاد فاستولى على بغداد وإمرة الأمراء ولم يتمكن من الصمود فاضطر إلى الهرب إلى الموصل فتسلط الديلم على الأمور وقتلوا من وجدوا في دار السلطان وتولى

بعد ابن رائق على إمرة الأمراء الحسن بن عبد الله بن حمدان الذي لقب بناصر الدولة، ولكن هذا وقع في المأزق نفسه مع الجند، وكان الأتراك يطالبونه باستمرار أرزاقهم فاضطر أمام هذه المشكلة إلى أن يهرب من معسكره فأضرم الأتراك النار في المعسكر ونهبوا ما بقي من أموال،فتقلد توزون المتعب بدلاً من الحسن الحمداني لكن الجند ثاروا عليه سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م واجتمعت كلمتهم على تقليد الرئاسة إلى ابن شيرزاد فزاد هذا في رواتبهم زيادات كثيرة أدت في نتيجة إلى تفاقم الضائقة المالية فطلب ابن شيرازاد الأموال من ناصر الدولة الحمداني عارضاً عليه الإمارة، وقد بعث إليه ناصر الدولة الأموال لكنها لم تكن كافية فاضطر إلى مصادرة الناس فلم يؤد ذلك إلى نتيجة حاسمة، لذلك ظلت الأزمة المالية دون حلول شافية فكانت نتيجتها استمرار اضطرابات وشغب الجند وتعديهم على الأهالي.

وأضرت هذه الأوضاع بمعنويات الناس وبحالتهم الاقتصادية سيما بعد أن كثرت المصادرات من أمير الأمراء جعفر بن شيرزاد، الذي أكثر من مصادرات الناس والتجار والأغنياء في بغداد، وتفنن في فرض ضرائب إضافية من أجل توفير أموال الجند، حتى اضطر التجار إلى الرحيل عن مدينة بغداد.

وخلاصة القول، فإن استحداث منصب أمير الأمراء لم يأت بحلول شافية للأوضاع المضطربة التي شهدها العراق خلال فترة التسلط الأجنبي، فقد كان تجربة فاشلة أدخلها الخليفة الراضي بالله، لم تستطع أن تنقذ الخلافة من أزمتها السياسية والمالية، بل زادت في النزاع بين القادة للاستئثار بالحكم.

وفي خلافة المستكفي بالله ٣٣٣هـ-٣٣٤هـ/٩٤٤م-٩٤٥م استطاع أحمد بن بويه من احتلال بغداد بعد عدة محاولات فاشلة، ودخل البويهيون محل إمرة الأمراء في بغداد، وبدأ العصر البويهي الذي استمر من سنة ٣٣٤هـ-٤٤٧هـ/٩٤٥م-١٠٥٥م.

الباب الرابع

الخلافة العباسية في عصر التسلط البويهي

(٣٣٤هـ ٤٤٧هـ / ٩٤٥م ١٠٥٥م)

الفصل الأول: أصل البويهيين ونشأتهم

الفصل الثاني: دخول البويهيين بغداد وسيطرتهم على العراق

الفصل الثالث: العلاقة بين الخلافة العباسية والبويهيين

الفصل الرابع: سقوط البويهيين سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)

الخلافة العباسية في عصر التسلط البويهي

(٣٣٤هـ ٤٤٧هـ / ٩٤٥م ١٠٥٥م)

الفصل الأول: أصل البويهيين ونشأتهم

ـ بلاد الديلم قبل ظهور بني بويه:

تقع بلاد الديلم أو بلاد جيلان في الجنوب الغربي لبحر قزوين، ويحدها من الشرق منطقة طبرستان، ومن الجنوب الجبال (جبال البرز)، وهي عموماً منطقة جبلية وعرة، لكل جبل فيها رئيس، وسكانها يسمون بـ(الديالمة) وهم موصوفون بالبطش وقلة الثبات في الأمور.

قاوم الديالمة الدولة العربية الإسلامية، وتصدوا لحركات الفتوحات العربية في العصر الراشدي، وتمسكوا بمجوسيتهم ورفضوا الإسلام، واكتفوا بدفع الجزية إلى سعيد بن العاص من قادة العرب، المشهورين، وقد أثار ابن خلدون إلى هذا الأمر بقوله: (كان هؤلاء الديلم والجبل على دين المجوسية ولم تفتح أرضهم أيام الفتوحات وإنما كانوا يؤدون الجزية وكان سعيد بن العاص قد صالحهم على مائة ألف درهم في السنة وكانوا يعطونها وربما يمنعونها ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد وكانوا يمنعون الطريق من العراق إلى خراسان على قومس ..).

ويبدو أن بلاد الديلم وما جاورها استغلت اضطراب الأوضاع التي مرت بها الدولة العربية خلال فتنة عثمان بن عفان ﷺ وعصر علي بن أبي طالب ﷺ فاشتطوا في التمرد وأصبح نتيجة ذلك طريق خراسان عبر قومس طريقاً غير آمن بسبب تمرد أهل هذه المناطق.

واستغل الديلم المعاقل الجبلية لوطنهم الأمر الذي أفشل أكثر من أثني عشر هجوماً للمسلمين قبل بداية القرن الثالث الهجري، منذ أن بدأت القوة العربية بالوصول إليهم.

ففي العصر الأموي بذلت الدولة العربية قصارى جهدها في نشر الإسلام بين سكان طبرستان وبلاد الديلم، إلا أن أصبهبذ (حافظ الجيش) طبرستان كان يطلب العون دائماً من الديالمة عند تصديه للقوات العربية، وبالذات تعاون أهل المنطقتين في التصدي للقوات العربية بقيادة يزيد بن الهلب –الذي ولي أمر خراسان سنة ٩٧هـ– فخلقوا لها بعض المتاعب.

ويبدو أن المناطق الواقعة على شاطئ بحر قزوين ما بين أرمينية وطبرستان –من بينها بلاد الديلم– تمردت على الدولة العربية في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ–١٢٥هـ)، فسار إليها والي أرمينية آنذاك مروان ابن محمد –الخليفة الأموي الأخير فيما بعد– فأرجعها إلى الطاعة، وصالحه معظم حكامها وذلك في عام ١٢١هـ.

واستمر هذا التعاون بين المنطقتين في العصر العباسي الأول، حيث كان أصبهبذ طبرستان يحتمي ببلاد الديلم عندما تشدد عليه القوات العربية، كما حصل في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦هـ–١٥٨هـ).

وفي عصر الخليفة هارون الرشيد (١٧٠هـ–١٩٣هـ) زاد خطر منطقة الديلم وما جاورها، حيث هرب إلى بلاد الديلم يحي بن عبد الله العلوي (أخو محمد النفس الزكية) بعد معركة فخ عام ١٦٩هـ، فتوافد إليه الناس من مختلف المناطق، فقلق الرشيد لهذا الأمر، ورأى أن هذه المنطقة ستخرج مرة أخرى من نفوذ الدولة العربية، بعد أن قدم من أجلها آلاف الشهداء، فكان استنزال

يحيى بن عبد الله من هذه المنطقة بأمان الرشيد حلاً لهذا القلق كما هو معروف.

ولما سار الخليفة الرشيد إلى بلاد الري عام ١٨٩هـ وفد إليه مرزبان بن جستان، صاحب الديلم مقدماً الطاعة، فأكرمه الرشيد وأعاده إلى بلاده.

ولما أعطى الخليفة المأمون ولاية المشرق إلى طاهر بن الحسين، قامت الإمارة الطاهرية (٢٠٥هـ-٢٥٩هـ) وبموجب هذا الأمر أصبحت بلاد الديلم وما جاورها تابعة إدارياً هذه الإمارة، ويبدو أن هذا الأمر لم يرق لحكام هذه المناطق وبالذات أصبهبذ طبرستان الذي واصل تمرده على الدولة العربية، مخالفاً الإمارة الطاهرية، زمن الخليفة المعتصم (٢١٨هـ-٢٢٧هـ)، وإلى أن صلب بجانب المتمرد بابك الخرمي في سامراء، وكانت بدايات انتشار الإسلام في بلاد الديلم عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م عندما دخل الحسن بن زيد العلوي بلاد طبرستان وتملكها إلى عام ٢٧٠هـ/٨٨٤م وقام مكانه أخوه محمد بن زيد الذي ملك بلاد الديلم.

وازداد اعتناق الديالمة للإسلام عندما دخل الحسن بن علي العلوي الملقب بالأطروش بلاد الديلم في حدود عام ٢٨٩هـ وأقام فيها نحو ثلاث عشر سنة يدعو الديلم إلى ترك المجوسية واعتناق الإسلام، ولما كسبهم إلى جانبه دعاهم للخروج معه إلى طبرستان في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م فسيطر عليها بعد أن انتزعها من نفوذ السامانيين.

مات الحسن بن علي الأطروش سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، واستمرت هذه الإمارة إلى عام ٣١٦هـ/٩٢٨م حيث مقتل الحسن بن القاسم، وقد تنازع أمرها قادة الجيش، ومن أشهرهم سرخاب بن وهوذان الذي اشتبك في حروب طاحنة مع السامانيين منهم ماكان بن كالي الديلمي، لبلى بن النعمان، وأسفار بن

شيردويه، ومرداويج بن زيار، وقد عرف هؤلاء بروح المغامرة العسكرية لهم في ظل إمارة ضعيفة تحتضر، وهكذا نجد (ماكان بن كالي) يقفز لاحتلال موقع عمه الراحل سرخاب ويخلفه في قيادة الجيش، أما (أسفار بن شيرويه) الذي كان من أبرز قادة الجيش في إمارة الأطروش، فقد انحاز إلى السامانيين.

كان لبلى بن النعمان القائد الديلمي الأول الذي قتل وهو يقود جيش الديالمية ضد الإمارة السامانية، فتولى مكانه ماكان بن كالي القيادة ولكن أحد قواد (ماكان) وهو أسفار بن سيردويه خرج عليه، ولمع نجمه، وتعاون مع قائد ديلمي آخر هو مرداويج بن زيار، فأحرزا نصراً مؤزراً ضد ماكان، ولكن سرعان ما قتل أسفار في سنة ٣١٦هـ فآلت سلطاته إلى مرداويج وأخيه، وشمكير، وكان انتصار مرداويج هو السبب المباشر في ظهور بني بوية.

ـ ظهور بني بويه:

ترجع تسمية البويهيين إلى اسم أبيهم بويه بن فناخسرو الملقب بـ(أبو شجاع)، بدأ نجم هذه الأسرة في الظهور حينما التحق بويه وأولاده الثلاثة، علي وحسن وأحمد، بخدمة القائد مرداويج بن زيار الديلمي.

وتؤكد بعض الروايات على فقر هذه الأسرة، وتشير بأن أبا شجاع بويه وأباه وجده من أسرة فقيرة تمارس حرفة صيد السمك، أو حرفة الاحتطاب، ودلت بعض الروايات ارتفاع شأن هذه الأسرة على ضوء حلم رآه أبو شجاع بويه، والحلم بحد ذاته يدلل على مجوسية هذه الأسرة لارتباطها بالنار.

ولكن احتراف الجندية والدخول في خدمة القادة الديالمة مرتزقة بسبب فقر هذه الأسرة، هو الذي مكنها من الظهور، وذلك في أواخر أيام إمارة الأطروش عندما كان (ماكان بن كالي) قائد جيش هذه الإمارة.

تعاون مرداويج بن زيار وماكان بن كالي على إسقاط أسفار بن شيرويه أو قتله لكنهما اختلفا بعد حين فانقض مرداويج على حليفة ماكان فهزمه، فكانت النتيجة أن سيطر مرداويج بن زيار على الري وأصفهان وطبرستان في حوالي عام ٣١٤هـ، وأسس إمارة وراثية عرفت باسم الإمارة الزيارية، وباستيلائه على الأحواز كبر طموحه، وبدأ يفكر جدياً في الهجوم على بغداد من أجل استعادة دولة الفرس بمركزها في لميسفون وكان يقول (أنا أرد دولة العجم وأبطل دولة العرب).

أما بنو بويه فإنهم بعد هزيمة ماكان انحازوا إلى مرداويج بن زيار بعد أن استأذنوا سيدهم الأول ماكان، معللين الأمر بخفض النفقات، فأذن لهم ولغيرهم. رعى مرداويج بن زيار الوافدين عليه ولاسيما العائلة البويهية، وقرر توظيف طاقاتهم العسكرية في إرساء إمارته، فقلد علياً بن بويه (ولاية الكرنة) الواقعة بين همذان وأصفهان وذلك سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م، كما استعان مرداويج بالحسن ابن بويه وأخيه أحمد في أعمال أخرى مهمة.

قبل أن يصل علي بن بويه إلى ولاية الكرج أرسل مرداويج أوامره إلى وزيره أبي عبد الله الحسن بن محمد الملقب بابن العميد، وأخيه وشمكير بن زيار اللذين كانا في الري ليمنعا علي بن بويه من الدخول إلى مقر ولايته، لكن الوزير لم يمتثل لأوامر مرداويج وإنما سهل لعلي بن بويه مهمته لجيمل له عليه.

ولهذا تعد هذه المرحلة الخطوة الأولى في هجرة البويهيين جنوباً بعيداً عن قبضة مرداويج، وقد ساعدت علي بن بويه في مسيرته هذه عدة ظروف منها: علاقته بالحسين بن محمد العميد، وقدرته العسكرية والإدارية، وبعد نظره

في القضايا السياسية، والأهم من ذلك الظروف السياسية العامة في المنطقة التي تحرك فيها، فقد كان السامانيون آنئذٍ متصرفين إلى درجة كبيرة باتجاه ما وراء النهر، وكانت الخلافة العباسية في الغرب تعاني من أزمات سياسية داخلية متمثلة بصراع الإداريين فيما بينهم من أجل الوصول إلى منصب الوزارة وفيما بينهم وبين قادة الجيش أمثال مؤنس الخادم من جهة أخرى، فقد كان مؤنس متنفذاً ودخل في صراع مع الخليفة المقتدر، كما أن الخليفة المقتدر كان مستسلماً لتدخل النساء ومنصرفاً عن متابعة شؤون الدولة في الوقت الذي انفصلت فيه عدد من المناطق الهامة اقتصادياً كالبصرة والموصل، وكان قرامطة البحرين يشنون هجمات متوالية على المدن كالبصرة والكوفة ووصلوا سنة ٣٢٥هـ/٩٢٧م إلى بغداد، أما من الناحية الإدارية فإن الخلافة أولت مسؤولية أعمال الخراج والمعادن من كل من فارس وكرمان إلى ياقوت، وقلد الخليفة ابن ياقوت المظفر ولاية أصبهان.

دخل علي بن بوه الكرج وعامل أهلها معاملة جيدة واستخرج الأموال التي كان مرداويج قد بعثه من أجلها، وفي كرج رحب علي بالقواد الذين أخرجهم مرداويج من خدمته وضمهم إلى قوته، فبلغ حجم قوته بعد ذلك حوالي ثلاثمائة رجل، فسار بهم إلى همدان، وتهيأت لعلي بفتحه همذان الأموال الكثيرة، التي ساعدته على استخدام الجنود وجلبهم إلى جانبه، سار بعد ذلك إلى أصبهان التي كانت خاضعة لعامل العباسيين المظفر بن ياقوت، لكن علي بن بويه لم يبتدر في الحرب وفضل الدخول في مراسلات معه فبعث إلى المظهر رسالة عرض فيها موافقته في الانضمام إلى جيشه وخدمة الخليفة لكن المظفر رفض الطلب مما جعل حالة الحرب بين الطرفين لا مفر منها، وقد التقى الطرفان على بعد ثلاثة فراسخ من أصبهان، هنا أيضاً توفرت عدة ظروف

لصالح علي بن بويه منها: استئمان الديلم والجبل الموجودين في جيش ابن ياقوت عندما بلغهم فضل علي وحسن معاملته للجند والأرزاق الجيدة التي يدفعها، وبانضمام هؤلاء أصبحت كفة علي راجحة فقوي جانبه وانتصر في المعركة واستولى على أصبهان.

لم يقف مرداويج مكتوف الأيدي حيال الهجمات السريعة التي حصل عليها علي بن بويه فاتبع خطة جديدة للحد من قوته، فبعث رسالة إلى علي يعتب فيها عليه لتمرده وخروجه وقدم له الضمانات لبدء علاقات جيدة بينهما، في الوقت نفسه فإنه أوعز إلى أخيه وشكمير بالتوجه بجيش ضخم إلى أصبهان لقتال علي بن بويه، ولما علم علي بالخطة بادر إلى ترك أصبهان والتوجه نحو أرجان التي كانت حينئذ تابعة لابن ياقوت، ولم يقو أبو بكر هذا على الوقوف بوجه التقدم البويهي فاضطر إلى الانسحاب إلى رامهرمز تاركاً أرجان تقع في أيدي علي بن بويه، فدخلها واستخرج شيراز.

صار التقدم البويهي ونجاحات علي بن بويه العسكرية خطراً على مرداويج والإمارة الزيارية فحسب بل على ياقوت أيضاً فاتفقت كلمتهم في مجابهة علي سوية، لهذا بادر علي بانسحاب من نوبذجان ومتوجهاً إلى كرمان، فدخل في طريقه اصطخر والبيضاء وبالقرب من منطقة على الطريق إلى كرمان تقابل علي مرة أخرى مع جيش ياقوت، ووقعت معركة فاصلة بين الطرفين يوم ٢٢ جمادى الأخر ٣٢٢هـ/٩٣٣م حددت مستقبل البويهين العسكري، فقد تألف جيش ياقوت من سبعة عشر ألف رجل من ساجية وحجرية والرجالة المصافية وغيرهم من الديلم في حين كان مع علي ثمانمائة رجل، لقد أثبت علي في هذه المعركة مقدرة حربية على عكس ياقوت، فكان علي يحذر جنده من أن ينصرفوا وينشغلوا في نهب الخزائن فينشغلوا بها ويعطوا فرصة

سانحة لجيش ياقوت المندحر من أن ينقض عليهم ثانية، وبذلك كسب علي الجولة.

علاوة على ذلك، بعد انتصار علي بن بويه لم يعمل على التشهير بأسرى رجال ياقوت وكان هدفه كما أوضحه (نعدل عن هذا إلى العفو عمن أظفرنا بالله بهم حتى أعدائنا ونشكر الله على هذه النعمة..)، تقدم علي بعد هذه المعركة إلى الزرقان ثم الدبنكان، وفي هذا الوقت وفد عليه الجنود مستأمنين فأحسن إليهم قولاً وفعلاً وأحسن في سيرته في المدن التي دخلها وتوجه بعد ذلك إلى شيراز وعسكر في ضواحيها وأعطى لأهلها الأمان على أن ينصرفوا إلى أعمالهم آمنين، ولما بلغه أن ياقوت قد ترك البلد أرسل جماعة من الديلم إليها لضبط أمورها، وقد ثار الناس على أصحاب علي فوجه أخاه أبا الحسين أحمد لإقرار الأوضاع، فنادى أحمد بن بويه في البلد بأن يخرج أتباع ياقوت ومن وجد منهم بعد هذا الإعلان فسوف يقتل فاستقرت الأوضاع في شيراز ، لقد توجه اهتمام علي بعد إلى وصل إلى هذه المرحلة من الانتصارات إلى الحصول على موافقة الخليفة بشرعية ما حصل عليه، فدخل في مكاتبات مع الوزير بن مقلة، حالفاً له أغلظ الإيمان بالطاعة وباذلاً ثمانية آلاف درهم للحصول على موافقة الخليفة، وقد حصل على ذلك إذ أرسل الوزير الخلع مع يحيى بن إبراهيم المالكي الكاتب، وقد أوصى الوزير هذا الرسول أن لا يسلم الخلعة واللواء إلآ بعد أن يتسلم الأموال التي وعد بها علي، لكن علياً استطاع أن يخدع الرسول فتسلم الخلعة واللواء دون أن يعطي شيئاً.

لم يقطع مرداويج الأمل باللحاق بعلي بن بويه والتخلص منه لأنه لا سيما بعد نيله شرعية الخليفة لتوسعاته أصبح منافساً خطيراً له، فقد نظم حملة قوية من أصفهان هدفها مهاجمة علي من جهة الأحواز فأرسل لذلك جيشاً قوياً مكوناً

من ألفين وأربعمائة رجل من الجبل والديلم إلى الأحواز لقطع الطريق على علي ابن بويه فيكون حاجزاً بينه وبين الخلافة فلا يبقى أمامه منفذاً عدا كرمان، أما بالنسبة إلى ياقوت فإنه لم يكن بإمكانه محاربة جيش مرداويج لذلك اضطر إلى الانسحاب تاركاً الباب مفتوحاً أمام تقدم جيش مرداويج نحو الهدف المذكور آنفاً، كانت الأحواز آنذاك خاضعة لأبي عبد الله البريدي، وقد وجد هذا نفسه في مأزق اتجاه قوة مرداويج الكبيرة فاجتمع مع ياقوت لمجابهة الجيش وحده عن التقدم في عسكر مكرم لكنهما فشلا أيضاً وانسحبا تاركين أمر الأحواز لمرداويج، وبانسحاب ياقوت وأبي عبد الله البريدي صار علي بن بويه وجهاً لوجه أمام مرداويج، فرأى من الحكمة أن يكاتب مرداويج عارضاً عليه أن يعلن ولاء الطاعة وأن يقيم الخطبة باسم مرداويج وأن يرسل إليه الأموال مع أخيه الحسن كرهينة، فوافق مرداويج على هذا العرض وقلد ولاية أرجان لعلي بن بويه.

عاد المتحالفان ياقوت والبريدي مرة أخرى لمحاربة البويهيين وحدثت موقعة بين الطرفين في عسكر مكرم انهزم فيها ياقوت، وأتبعه علي إلى مهرمز، أما البريدي فإنه بعد هزيمة ياقوت طلب من علي الصلح وفق شروط اتفقا عليها.

كانت نتيجة هذه التطورات السياسة أن أصبح علي بن بويه متفرداً في المنطقة وصارت بلاد فارس بصورة شرعية من حصته، علاوة على ذلك فإن مقتل مرداويج عام ٣٢٣هـ/٩٣٤م أضاف إلى علي قوة أخرى وزاد في تفرده، ففي تلك السنة قتل الجنود الأتراك مرداويج لأنه كان يعاملهم معاملة سيئة، وقد جاء هذا الحادث بنتائج إيجابية لعلي بن بويه، فقد بقي من الناحية السياسية القوة الديلمية الوحيدة للديلم والخليفة العباسي على السواء، كذلك فإن عدداً من جنود

مرداويج الأتراك وغيرهم لجأوا إلى علي بن بويه ودخلوا في خدمته فتقوت لذلك مكانته العسكرية.

فالخارطة السياسية لمناطق نفوذ البويهيين كانت ٣٢٤هـ/٩٣٥م تتكون من الآتي: بلاد فارس كانت من حصة علي بن بويه، أصبهان صارت تابعة للحسن بن بويه، وفي هذه السنة أيضاً انصرفت أنظار علي لتوسيع رقعة ممتلكاته باتجاه كرمان، فعهد أمر فتحها ومحاربة البلوص والقفص فيها إلى أخيه الأصغر أحمد بن بويه إذ ضم إليه جيشاً يتكون من كبار الديلم ويبلغ تعداده ألف وخمسمائة رجل ديلمي وخمسمائة رجل من الأتراك سار أحمد إلى سجستان فدخلها دون حرب ثم توجه إلى عاصمة كرمان وصيرفت، بعد أن عين على كل مدينة افتتحها أحد قواده، وفي صيرفت، جاءه رسول القفص والبلوص باذلا الأموال غير أن أحمد أصر على دخول العاصمة ثم ينتظر أوامر وتعليمات أخيه عليه، وتم الصلح بين الطريفين على أن يدفع البلوص والقفص ألف ألف درهم سنوياً وأن يقيموا الخطبة للبويهيين.

الفصل الثاني: دخول البويهيين بغداد وسيطرتهم على العراق

توجهت أنظار أحمد بن بويه بعد أن أخضع كرمان نحو العراق بتشجيع من أخيه، فكانت الأحواز المنطقة التي بدأ أحمد يطمع في الحصول عليها وأخذها من البريديين وبذلك تصبح عملية الوصول إلى بغداد ميسورة، ففي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م توفرت الفرصة لذلك عندما استنجد به أبو عبد الله البريدي ضد أمير الأمراء، فاتصل أحمد بأخيه طالباً المساعدة العسكرية وبذلك أصبح بإمكانه السيطرة على السوس وحصن مهدي ثم أخيراً على سوق الأحواز، فاضطر البريدي إلى الهرب إلى البصرة، ومن الجدير بالذكر أن البريديين لم يقفوا مكتوفي الأيدي اتجاه توسع أحمد بن بويه إذ أفلحوا سنة ٣٢٧هـ-٣٢٨هـ/ ٩٣٨م-٩٣٩م استرجاع المناطق التي سبق أن احتلها أحمد بن بويه، واضطر لذلك للانسحاب إلى أصفهان.

وفي سنة ٣٣٢هـ/٩٤٥م دخل أحمد بن بويه واسط لكن توزون أمير الأمراء أسرع في التوصل إلى صلح مع الحمدانيين وتوجه لمحاربة أحمد وأفلح في دحره إلى العرس، واستجمع أحمد قواته ثم عاد الكرة ضد واسط ففتحها وطرد منها أتباع البريديين، وبقي فيها إلى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م عندما حاربه توزون وأبعده عنها، لقد ساعد الغزو البويهي عدة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية فيها، فقتل أبو عبد الله البريدي سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م وضع خليفته ابن شيرزاد، واضطراب وضع الجند والأهالي وسوء الأحوال الإجتماعية، وتفاقم الأزمة المالية، ثم دخول متقلد المعاون لواسط في طاعة البويهيين، ففي ١١ جمادى الأول ٣٣٤هـ/٩٤٥م تحرك أحمد بن بويه من الأحواز قاصداً بغداد ونزل في باحس فاضطرب الناس واستتر الخليفة المستكفي بالله وابن شيرازاد فكانت منذئذ بداية الاحتلال العسكري البويهي.

أراد أحمد بن بويه أن يخضع القوى السياسية المتنفذة في العراق، فقام وزيره وكاتبه الحسن بن محمد المهلبي بالتفاوض مع ابن شيرازاد أمير الأمراء السابق، واستخدمه على الخراج وجباية الأموال، ثم التقى بالخليفة المستكفي بالله الذي استتر عند دخول البويهيين، وقد استقبله الخليفة مسروراً، أعقب ذلك وصول أحمد بن بويه إلى الخليفة وبايع الخليفة واستحلف له ولعدد من الشخصيات بأغلظ الأيمان، فلبس أحمد الخلع وتلقب منذ ذلك بلقب معز الدولة، وتلقب علي بن بويه بلقب عماد الدولة، والحسن بن بويه بلقب ركن الدولة، ثم ضربت ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. لم يكتف معز الدولة بهذا الموقف بل عزم على إزاحة الخليفة، والمجيء بشخص آخر يختاره هو كي تكون جميع الأمور بيده، إذ لم تمض فترة على دخول أحمد بن بويه بغداد حتى قبض على الخليفة، بصورة مهينة اثنان من الديلم جذباه إلى الأرض ووضعا عمامته في عنقه وجراه ماشياً إلى دار معز الدولة واعتقل فيها ونهبت داره، وجيء بالفضل ابن المقتدر بالله إلى الخلافة وتلقب بالمطيع لله.

لقد أشار بعض المؤرخين إلى أن سبب عزل الخليفة يرجع إلى اشتراكه في حركة سياسية تهدف إلى التخلص من معز الدولة ومن بين الذين شاركوا في هذه الحركة علم القهرمانة الذي لعب دوراً بارزاً في تقليد الخلافة للمستكفي وتقريبه إلى توزون بدلاً من المتقي لله، فتذكر الرواية أن علم هذه عملت مأدبة دعت إليها جماعة من قواد الديلم لتأخذ البيعة للمستكفي وعزل معز الدولة، وهناك رواية أخرى تعزو تلك الحادثة إلى أن معز الدولة أراد أن ينتقم من المستكفي لعلاقته الجيدة مع الحمدانيين، وأنه كاتبهم وعرض منصب إمرة الأمراء عليهم بدلاً من معز الدولة، أما السبب الرئيسي فهو استراتيجي، أن معز الدولة كان يبغي من دخوله بغداد السيطرة على مقاليد الأمور وتسييرها وفق أهوائه ورغبات الديالمة وأن الخليفة العباسي يقف على رأس الهرم

الإداري، فهو الذي يتمتع بالسيادة والسلطة وعلى الرغم منح المستكفي لمعز الدولة وأخويه الألقاب والخلع ورحب بدخول البويهيين لكنه في قرار نفسه لم تجد فيهم الحل السليم لإقرار الأوضاع، لذلك فإن عزله والمجيء بآخر خاضع لتأثير معز الدولة ونفوذه يبدو أكثر واقعية لتغيير الأوضاع بما يتلاءم والسيطرة الديلمية الجديدة.

أما من الناحية السياسية فإنه منذ تلك الفترة فصاعداً أصبح الأمير البويهي مركز الثقل لا الخليفة، فالأول هو الذي يقرر شؤون الدولة الإدارية والاقتصادية والعسكرية، ومع أنه نجح في إخضاع الخليفة لنفوذه وسطوته فإنه ظل يرتاب من تحركاته وأعماله ففي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م عندما توجه ناصر الدولة الحمداني نحو بغداد محارباً معز الدولة أحضر هذا الخليفة وجعله تحت المراقبة، بعد أن استتبت الأمور استحلفه على أن لا يبغيه سوءاً ولا يمالي عليه عدواً.

كان الحمدانيون القوة السياسية الثانية التي جلب معز الدولة في سبيل إخضاعها لسيطرته، امتدت فترة حكم الحمدانيين في الموصل وحلب في ٣١٧هـ- ٣٩٤هـ/٩٢٩-١٠٠٣م، فقد ولدت الإمارة الحمدانية في ظروف سياسية مهمة فالعباسيون خلال فترة الخليفة المقتدر انشغلوا في تدبير أمورهم الداخلية ونزاعاتهم مع الجيش الإداريين ولم يعطوا اهتماماً خاصاً للشؤون الخارجية خاصة في علاقتهم بالهجمات البيزنطية على أرض العروبة، ولم يكن الإخشيديون قادرين على تحمل مسؤولية قتال البيزنطيين فنشطت لهذه الأسباب حملات البيزنطيين العسكرية، في هذه الظروف ارتفع نجم الحمدانيين في الدفاع عن الثغور، وعلى الرغم من انصرافهم لهذه المهمة الثغرية الخطيرة فإنهم كانوا محل ثقة الخليفة العباسي، إذ كان يعتمد عليهم كلما اشتدت الأزمة الداخلية

في بغداد، واضطر في عدد من المرات إلى أن يستنجد بهم ضد أمير الأمـــراء وأن يلتجئ إليهم هرباً من تنفيذ الأمراء الأجانب.

وقد ظل الحمدانيون يشكلون قوة سياسية يعد لها حساب خلال الاحتـــلال البويهي، فبعد فترة قصيرة جداً من دخول معز الدولة بغداد سار ناصر الدولـــة الحمداني في حملة عسكرية من الموصل ونزل في سامراء ضد البويهيين فـــي الوقت الذي نزل فيه أخوه أبو العطاف جبير بن عبد الله في باب قطربل ببغداد، واستقبله الأهالي فتأزمت أحوال معز الدولة بتوجيه ناصر الدولة أيضـــاً إلـــى العاصمة ونزوله في الجانب الغربي منها ثم عبوره إلى الشرق ودخوله بغـــداد، كادت الأمور تصير إلى جانب الحمدانيين فتكون نهاية للغزو البويهي لا ســـيما أن معز الدولة كان في ظروف اقتصادية عسيرة لانعدام الأقوات في الجـــانب الغربي بينما كانت الأقوات متوفرة للحمدانيين إذ تأتيهم من الموصل، لـــولا أن شاءت الصدف أن يدبر حيلة نجحت في النهاية، إذ خطط وكأنه تاركاً الجـــانب الغربي ومظهراً أنه يريد العبور من الجهة العليا لقطربل فسارت جيوش نـــاصر الدولة بإزائه من الجانب الثاني مما أوجد ثغرة نفذ منها قائد معز الدولـــة أبـــو جعفر الصيمري، فعبر النهر وفي هذه الأثناء عاد معز الدولة بجيشه فاضطرب جيش ناصر الدولة وانكسر فملك الديلم الجانب الشرقي وأحرقوا دوره ونـــهبوا وقتلوا الناس لوقوفهم إلى جانب الحمدانيين، وانسحب ناصر الدولة إلى عكـــبرا وكاتب معز الدولة في الصلح فتقررت بنوده في السنة ٣٣٥هـــ/٩٤٦م، ولـــم تستمر هذه العلاقة الجيدة طويلاً إذ توترت في عدة مرات، وكـــان البويـــهيون يجردون الحملات العسكرية لإرغام الحمدانيين وإخضاعهم وذلك لعـــدم إيفـــاء الحمدانيين بوعودهم المالية التي كانوا يتفقون على دفعها للبويهيين سنوياً، ومـــع أن نجاحات معز الدولة العسكرية لم تكن صارمة فإنه استطاع في سنة ٣٤٧هـــ

دحر ناصر الدولة فهربا هذا إلى حلب مستجيراً بأخيه سيف الدولة، وقد توسط سيف الدولة في النزاع وتحول الطرفان البويهي والحمداني إلى الصلح.

وتتمثل القوة السياسية الثالثة بالبريديين، أطلق اسم البريديين على ثلاثة أخوه هم: أبو عبد الله البريدي، وأبو يوسف البريدي، وأبو الحسن البريدي، ويقال أن أباهم كان متولياً أعمال البريد، ولا يعرف شيئاً عن أصلهم إلا أن أبرزهم كان أبو عبد الله، فقد نجح في استخدام ثلاثة أسلحة للوصول إلى السلطة والتنفيذ هي: المال، الحيلة، والخداع، ثم الدخول في المصاهرات السياسية، وقد شغل وأخوه أبو يوسف في بداية منصب عمال في الأحواز، لكنهما استطاعا أن يستغلاّ الظروف السياسية خلال فترة الأمراء فجمعا الجنود المرتزقة، وصار البريديون بعد ذلك قوة لا يستهان بها ونجحوا في احتلال بغداد، فتقلد أبو عبد الله منصب الوزارة وإمارة الإمراء، وقد صد البريديون البويهيين في محاولتهم احتلال الأحواز وواسط، ولكنهم بعد مقتل كبيرهم أي عبد الله ضعفوا ولم يبق منهم أثناء دخول معز الدولة بغداد إلا أبو القاسم البريدي، وفي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م بعد أن تفرغ معز الدولة من حربه مع الحمدانيين توجهت أنظاره إلى البصرة لأخذها من البريديين، فجرد حملة برية وأخرى نهرية ضد المدينة، ولم يستطع أبو القاسم البريدي على مجابهة هذه الحملة العسكرية فاضطر إلى الهرب تاركاً البصرة لتقع في قبضة البويهيين، وبدخول معز الدولة البصرة صار العراق من الشمال إلى الجنوب خاضعاً لسيطرته.

لم تمض إلا سنوات قليلة على هيمنة معز الدولة على الأمور في العراق حتى واجه مشكلة سياسية جديدة، برزت هذه المشكلة بظهور قوة سياسية في منطقة مهمة من الناحية الاستراتيجية وهي البطائح، والبطائح مجموعة كبيرة من الأهوار تمتد من واسط والكوفة شمالاً إلى البصرة جنوباً، وقد أولتها الخلافة العباسية نظراً لأهميتها الاستراتيجية اهتماماً كبيراً.

فقد خضعت هذه المنطقة منذ سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م حتى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م لسيطرة عمران بن شاهين، وقد لعب عمران هذا دوراً سياسياً بارزاً في شؤون المنطقة من العراق، وشكلت نشاطاته السياسية خطراً كبيراً على سيادة البويهيين، ليس هناك معلومات عن أصل عمران بن شاهين، وأن ما ذكر في المصادر يشير إلى أنه كان من قرية اسمها الجامدة وأنه قد هرب من السلطة إلى البطيحة، ونظراً لضيق الموارد الاقتصادية في المنطقة وصعوبة التوغل في أهوارها وأنهارها لجأ إلى قطع الطرق على التجار والمارة القادمين من البصرة إلى بغداد، ابتدأ دوره السياسي في سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م عندما حصل على موافقة أبي القاسم البريدي في حماية البطيحة والأحواز التي فيها، وحينما سيطر معز الدولة على البصرة صار واجهاً لوجه أمام تعاظم نفوذ عمران الذي أخذ يزداد قوة بتكاثر أصحابه وتطور الموقف في السنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م فقد جرد معز الدولة حملة عسكرية بقيادة وزيره أبي جعفر الصيمري، وكادت الحملة تأتي بنتائج إيجابية لولا أن شاعت الظروف بتوقف الصيمري عن المضي قدماً في المعركة لوصول خبر من معز الدولة يأمره فيه بالتوجه إلى شيراز لتأزم موقف أخيه مع جنده فقوي جانب عمران كثيراً، وصار من المفروض أن يعيد معز الدولة الكرة فأرسل في سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م جيشاً بقيادة وزيره أبي محمد امهلبي والقائد الديلمي، روزبهان لكن الحملة فشلت واستولى عمران فيها على جميع الأسلحة والآلات الحربية في جيش معز الدولة فازداد نفوذه كثيراً وانقطع طريق البصرة النهري وتكاثرت شكاوى القواد الديلم والأتراك لما نالهم من مكاره بانقطاعهم عن ضياعهم في البصرة والأحواز، فأنفذ لذلك معز الدولة جيشاً ثالثاً بقيادة المهلبي ولكنها باءت بالفشل لمعرفة عمران الدقيقة بطرق البطائح ومنافذها، فاضطر معز الدولة للاستسلام

إلى الأمر الواقع إذ تصالح مع عمران، وقد أملى عمران شروطه في الصلح لذلك تعتبر هذه الانتكاسة الأولى في وجه التسلط البويهي على العراق.

نتيجة لذلك، فقد قلد معز الدولة البطائح وأطلق سراح أخوته، وفي المقابل أطلق عمران بن شاهين سراح القواد الأسرى، ولم ينه هذا الصلح حالة الاضطراب في العلاقات بين الطرفين، إذ خرج عمران في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م على بنود الصلح عندما ورده خبر غير صحيح بموت معز الدولة، فقام بأسر أموال وتجارة قادمة من الأحواز تابعة لمعز الدولة.

كانت الأوضاع الخارجية المعاصرة للغزو البويهي متشابكة، فهناك عدة قوى سياسية تطمع هي الأخرى السيطرة على بغداد أو اقتطاع بعض الأجزاء من العراق، كالإخشيديين في مصر، إذ يبدو أن كافور الإخشيدي الذي تولى إمرة الوصايا على الدولة بعد وفاة محمد بن طفج سنة ٣٣٤هـ، لم يكن خاضعاً للسلطة البويهية حتى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م، كذلك هناك الفاطميون الذين احتلوا مصر وحكموها بصورة مستقلة عن بغداد، وهناك قرامطة البحرين الذين شكلوا خطراً واضحاً لمعز الدولة، وقد تلقت البصرة والكوفة العديد من ضرباتهم وهجماتهم، وقطعوا طريق بادية البصرة والكوفة أمام الحجاج العراقيين، ويرجع توتر العلاقات بين البويهيين والقرامطة إلى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م عندما توجه معز الدولة لاحتلال البصرة، أثناء ذلك بعث القرامطة رسولاً إلى معز الدولة يستنكرون عبوره البادية دون أخذ الإذن منهم باعتبارهم سادة بادية الكوفة والبصرة، وتطور هذا التوتر إلى أن اشترك القرامطة مع حاكم عمان في حملة ضد البصرة سنة ٣٤٠هـ-٣٤١هـ/٩٥١-٩٥٢م، لكن الحملة باءت بالفشل، ويبدو أن القرامطة كانوا ضعفاء خلال هذه الفترة فلم يقوموا بأي عمل مناهض ضد البويهيين حتى سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م أيام إمارة عضد الدولة.

ويمكن القول أن السيطرة الفعلية لمعز الدولة على العراق لم تكتمل إلا في سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م تقريباً ماعدا البطائح، فقد اضطرته إلى التوصل لصلح مع عمران بن شاهين، وفي خارج العراق حصل على نفوذ بإخضاعه الإخشيديين والقرامطة وحاكم عمان.

مثل الأخوة البويهيين الثلاثة، عماد الدولة علي بن بويه وركن الدولة الحسن ومعز الدولة أحمد، الجبل الأول للبيت البويهي، وكان معز الدولة الحاكم الوحيد الذي حكم بغداد دون أن ينافسه في ذلك بقية الأخوان، فقد انصرف ركن الدولة وعماد الدولة إلى المناطق التي خضعت لهما، فكانت الرابطة العائلية التي ارتبط بها الأخوة الثلاثة قوية يسودها عنصر الاحترام لكبير العائلة، لكن هذه الرابطة العائلية انفصمت وضعفت بعد وفاة كبير الأخوة عماد الدولة، فأظهر عضد الدولة ابن الحسن بن بويه رغبة في أخذ السلطة من ابن عمه عز الدولة بختيار ابن معز الدولة مستعملاً القوة العسكرية، وقادت تلك الرغبة إلى أن يقتل ابن عمه، فكانت البادرة الأولى في النزاع بين أفراد العائلة البويهية أدت بمرور الزمن إلى أن تصبح تقليداً أدت إلى زعزعة أركان البيت البويهي.

حكم في الفترة الأولى في التسلط البويهي في العراق كل من معز الدولة أحمد بن بويه ٣٣٤هـ-٣٥٦هـ، وابنه عز الدين بختيار ٣٥٦هـ-٣٦٧هـ وعضد الدولة أبي شجاع فناخرر بن ركن الدولة ٣٦٧هـ-٣٧٢هـ، وتقسم هذه الفترة بعدة سمات، من الناحية السياسية، عمل الأمراء البويهيون خلال هذه الفترة على كبح جماح القوى السياسية المتنفذة في العراق كالبريديين في البصرة والحمدانيين في الموصل، وعمران بن شاهين في البطيحة، وضبية بن محمد الأسدي المتنفذ في عين التمر وقد حاربه عضد الدولة سنة ٣٦٩هـ، وانتصر عليه، وحسنوية بن الحسين الكردي المسيطر على منطقة الجبل، والقرامطة في البحرين.

علاوة على ذلك، فإن أوائل الحكام انشغلوا في السيطرة على تمردات جيشهم من الديلم والأتراك، كتمرد روزبهان بن ونداد خرشيد الديلمي ضد معز الدولة سنة ٣٤٥هـ، وتمرد الحبشي في البصرة على أخيه بختيار سنة ٣٥٧هـ، وتمرد الديلم على بختيار سنة ٣٥٦هـ، وانشغال بختيار في النزاع مع قائدة التركي سبكتكين الحاجب سنة ٣٥٨هـ.

أما من الناحية الإدارية فقد اتخذ جميع أولئك الحكام بغداد مركزاً تحكمهم ولم يفارقوها أو يتخذوا مكاناً ماعدا فترة قصيرة خلال حكم بختيار إذ أجبرته الظروف السياسية إلى أن يتوجه إلى الأحواز هرباً من سبكتكين، وقام معز الدولة وعضد الدولة بعده أعمال وتنظيمات إدارية وعمرانية في بغداد، فعمل معز الدولة على تثبيت سلطته البويهيين في العراق بينما عمل عضد الدولة على إعادة توحيد قوتهم وسيدتهم بعد أن ضعفت كثيراً أيام حكم بختيار بن معز الدولة، قام معز الدولة بسد البثوق في بعض أنهار بغداد فأدى هذا الإصلاح إلى تحسين وسائل ري الأراضي، وقام عضد الدولة ببعض أعمال عمرانية منها بناء المنازل والأسواق والمساجد والمستشفيات، واهتم بالأنهار وبناء القناطر، وتعقب اللصوص وقطاع الطرق وضربهم بقوة، بينما كان بختيار بن معز الدولة ضعيف الإدارة متردداً ومتخاذلاً في أوقات المحن، وقد اشتدت خلال سنين حكمه الضائقة المالية، فكان لهذا السبب يصطنع تجريد الحملات العسكرية ضد الأعداء من أجل توفير الأموال، كما حدث في سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م عندما جرد حملة ضد عمران بن شاهين والحمدانيين وقد شن هجوماً على القواد الأتراك في جيشه للحصول على إقطاعاتهم وممتلكاتهم.

ومن الناحية الاقتصادية، فقد جلب سوء تصرف معز الدولة الاقتصادي إلى الخراب والدمار للأراضي الزراعية الخصبة في العراق لقلة خبرته في هذه الأمور، فقد وزع الأراضي الخصبة كإقطاعات إلى جنوده وقواده الأتراك

والديالمة في مقابل رواتبهم عندما اشتدت به الضائقة المالية ولم يكن بوسعه توزيع الأرزاق والرواتب على الجند، وقد ألحت عليه الأزمة المالية فصادر الكتاي في سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م لتوفير الأموال لبناء قصره.

وحكم في الفترة الثانية أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة الملقب بصمصام الدولة ٣٧٢هـ-٣٧٦هـ، ثم تولى الإمارة شرف الدولة أبو الفوارس شيرزل بن عضد الدولة ٣٧٦هـ-٣٧٩هـ، وأعقبه أبو نصر فيروز خواشاد ابن عضد الدولة الذي لقبه الخليفة الطائع بلقب بهاء الدولة وضياء الملة ٣٧٩هـ-٤٠٣هـ، وتوالى على الحكم بعد موت بهاء الدولة ابنه أبو شجاع الملقب بسلطان الدولة ٤٠٣هـ-٤١١هـ، وقد زاد في لقبه فصار يلقب عماد الدين شرف الدولة مؤيد الملة مغيث الأمة سيف أمير المؤمنين جاء بعده مشرف الدولة الذي تلقب بلقب شاهنشاه ٤١٢هـ-٤١٦هـ.

المقب ذلك فترة اضطراب في وراثة الحكم البويهي عندما تسلم الجنود الأتراك زمام الأمور فترددوا بين وريثين، أبو طاهر فيروز شاه بن عضد الدولة وأبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة،وأخيراً نصبوا الأول منهما وقد لقب بجلال الدولة وحكم ٤١٨هـ-٤٣٥هـ، وبعد موته تسلم إمارة البويهيين أبو كاليجار الذي لقبه الخليفة محيي الدين وحكم ٤٣٦هـ-٤٤٠هـ، جاء بعده ابنه الأكبر أبو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم وكان آخر حكم البويهيين على العراق ٤٤٠هـ-٤٤٧هـ، عندما دخل طغربك المدينة أبقى على الملك الرحيم أولاً ثم قبض عليه بعد فترة وجيزة وسجنه ثم نفاه إلى قلعة طبرك في الري فمات هناك.

ومما تتصف به هذه الفترة من الحكم البويهي، من الناحية السياسية اشتداد هجمات القرامطة على العراق بعد موت عقد الدولة فهجموا على الكوفة، الاصطدام بيدر بن حسنويه الكردي المتسلط على منطقة الجبل، ظهور قوة

الأعراب وتسببهم في إزعاج الحجاج والمراكز المدينة، كالأصيغر الأعرابي الذي اعترض الحجاج سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م، وقد لاقى الحجاج المتاعب من الأصيغر في سنة ٣٨٥هـ و ٣٩٤هـ، كذلك ظهور قوة بني رعب من بني هلال إذ قطعوا الطريق على الحجاج عدة مرات آخرها سنة ٤٢٦هـ، وفي هذه الفترة أيضاً برزت على مسرح الأحداث عدة قوى عربية ذات أحوال قبلية ولعبت أدواراً سياسية مهمة في المنطقة التي سيطرت عليها كإمارة بني مزيد من بني أسد في الفرات الأوسط، وإمارة بني عقيل في الوصل، أيضاً فإن إمارة البطيحة ظلت تتمتع باستقلالها خلال هذه الفترة، ومن السمات السياسية المهمة الأخرى سيادة النزاعات العائلية بين أفراد البيت البويهي من أجل الوصول إلى السلطة وبينهم وبين عناصر جيشهم كالديلم والأتراك فتقلص لهذا النفوذ البويهي إلى أن صار في حدود سنة ٤٢٢هـ كما يذكر ابن الجوزي لا يتعدى العاصمة وواسط والبطيحة (وليس به – أي جلال الدولة– من ذلك إلا الخطبة).

فقد وقع سلطان الدولة في نزاع مع أخيه أبو الفوارس وتوصلا بعدها إلى اتفاق، ثم دخل في نزاع مع أخيه الأصغر مشرف الدولة وتوصلا بعد ذلك إلى تسوية سياسية، ووقع الملك الرحيم، آخر الحكام البويهيين في نزاع مع أخيه أبي المنصور فولاذ وأخيه الآخر أبي علي واستغاث بالسلاجقة ضد أخيهم الملك الرحيم.

أما من الناحية الإدارية فإن أكثر أمراء هذه الفترة لم يتخذوا بغداد عاصمة لملكهم، فقد قضى بهاء الدولة الأربع سنوات الأولى من حكمه البالغة أربعاً وعشرين سنة في بغداد تحول بعد ذلك إلى واسط والبصرة حيث مكث ست سنوات بينما أمضى ما تبقى من حكمه في شيراز تاركاً مقاليد الأمور في العراق بيد أحد نوابه، وقد ركز بهاء الدولة على اهتمامه لشؤون بلاد فارس، وأرسل في سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م أبا علي بن أستاذ هرمز الديلمي المعروف

بعميد الجيوش إلى بغداد وظل عميد الجيوش حاكماً على العراق مدة ثماني سنوات وبعد وفاته سنة ٤٠١هـ/١٠١٠ عين بهاء الدولة أبو غالب بن خلف وزيره المعروف بفخر الملك، لقد أثبت كل في هذين الرحلتين كغاية إدارية متميزة إذا استطاعا أن يسيطرا على الأوضاع المضطربة في بغداد، فقد سادت الفتن الطائفية والنزاعات المسلحة بين أهالي المحلات وتسلط العيارون واللصوص، وتصاعد تصادم الديلم والأتراك، واتخذ صمصام الدولة الذي تولى الإمارة بعد بهاء الدولة شيراز مركزاً لحكمه تاركاً بغداد لابن سهلان الملقب بفلك الملك، وبينما كان عميد الجيوش وفخر الملك محبوبين في بغداد كان ابن سهلان مكروهاً من قبل الأتراك والأهالي على السواء الأمر الذي شجع سلطان الدولة على المجيء إلى بغداد ٤٠٩هـ واستقراره لها من سنة ٤١١-٤١٣هـ، ومكث خليفته مشرف الدولة سنتين في بغداد من ٤١٤- ٤١٦هـ.

لقد اتصف أمراء هذه الفترة بالضعف وعدم الكفاية، فكان أبو الفوارس ابن بهاء الدولة ظالماً سكيراً، وانصرف جلال الدولة باعتراف الجند الديلم إلى الشراب واللهو، حتى أنه اضطر سنة ٤٢٣هـ عندما اختلت الأمور وانقطعت عنه الموارد من الأطراف إلى أن يبيع ثيابه وآلاته في الأسواق.

أما من الناحية الاقتصادية، فإن الأعمال العمرانية لم تساعد على إعادة الرخاء إلى الأراضي الزراعية التي خربت أكثرها، ولم يفلح أمراء هذه الفترة في معالجة الأزمة المالية، فكانت السبب الرئيسي في استمرار شغب الجند وتصارعهم فيما بينهم، ومن أهم نتائج هذه الأزمة أن راح الأمراء يصادرون الناس تعويضاً عن ذلك ويدفعون الضرائب على التجار وأصحاب المهن ويستحدثون ضرائب ثقيلة أخرى جديدة.

الفصل الثالث: العلاقات بين الخلافة العباسية والبويهيين

لقد أشار المؤرخون إلى أن وضع الخليفة العباسي صار ضعيفاً جداً أيام البويهيين، إذ اعتدى البويهيون على سلطاته وصلاحياته وامتيازاته فشاركوه بذكر أسمائهم وألقابهم على النقود إلى جانب اسم الخليفة، وأخذت أسماؤهم منذ أيام عضد الدولة تذكر في خطبة الجمعة، وكان ضرب الطبول أوقات الصلوات الخمسة من امتيازات الخليفة لكن البويهيين شاركوه في هذه أيضاً فأخذت تضرب أمام دورهم ثلاث مرات (في الغداء والمغرب والعشاء) وتوسعت زمن جلال الدولة فصارت تضرب خمس مرات يومياً، علاوة على ذلك، فإن البويهيين أضفوا على أنفسهم ألقاباً ضخمة وفي بعض الحالات أرغموا الخليفة على الموافقة لمنحهم مثل تلك الألقاب فلقب عضد الدولة نفسه شاهنشاه بينما لقب جلال الدولة نفسه سنة ٤٢٩هـ لقب ملك الملوك، وقد رفض قاضي القضاة الماوردي الموافقة على مثل هذا اللقب.

بينما كانت ألقاب الجيل الأول من البيت البويهي مفردة غلب على ألقاب من أعقبهم الصفة المركبة فكان لقب عضد الدولة وتابع الملة، وتضاعف في لقب بهاء الدولة إلى بهاء الدولة يتلقب بلقب عماد الدين شرف الدولة مؤيد الملة مغيث الأمة صفي أمير المؤمنين، أما لقب أبو كاليجار فكان شاهنشاه الأعظم ملك الملوك محيي الدين الله وغياث عباد الله وقسيم خليفة الله.

تقف اعتداءاتهم عند هذا الحد بل صادروا أكثر الضياع السلطانية واقطعوا لقوادهم وحددوا للخليفة مرتباً يومياً قدره ألفي درهم ثم قطعها معز الدولة وعوضه بربع ضياع في البصرة يقدر بحوالي مائتي ألف دينار سنوياً ثم تناقص فبلغ خمسين ألف دينار.

لكن الخليفة ظل محتفظاً بسلطاته الدينية في تعيين القضاة وأئمة المساجد والنقباء وولاة الحسبة وأمراء الحج، وكان أيضاً يتمتع بحق تولية ولاية العهد، وتفويض الأمراء على حكم البلاد.

مرت علاقة البويهيين بالخليفة العباسي بمرحلتين تبعاً لموقع الأمراء البويهيين السياسي والعسكري، ففي المرحلة الأولى التي امتدت من دخولهم بغداد حتى فترة حكم شرف الدولة وصمصام الدولة كان النفوذ الديلمي متعاظماً فتجرؤوا على الخليفة واعتدوا على امتيازاته وتطاولوا عليه شخصياً، فالخليفة المستكفي هو الذي منح معز الدولة وأخويه الألقاب، واستقبل معز الدولة ورحب بالبويهيين،وجوبه بعد فترة وجيزة باعتداء قاس، إذ دخل عليه اثنان من الديلم وجذباه من يده وطرحاه أرضاً وكان معز الدولة حاضراً المشهد، واقتاده ماشياً وعمامته في عنقه إلى دار معز الدولة حيث اعتقل ونهبت داره وسملت عيناه ثم عزل.

وفي سنة ٣٦١هـ/٩٧١م احتاج بختيار المعروف بضعفه وانصرافه للعبث واللهو، الأموال فطلبها من الخليفة المطيع لله مدعياً بأنه يحتاجها في حربه ضد الروم فاضطر الخليفة إلى أن يبيع ثيابه وبعض إنقاذ داره حتى وقد (شاع ببغداد بين الخاص والعام وعند من ورد من حاج خراسان وغيرهم من الواردين عن الأقطار أن الخليفة صودر وكثرت الشناعات..).

يعد خلع المستكفي بالشكل المهين والمجيء بالمطيع لله بدلاً منه البداية الحقيقة لمخطط معز الدولة في فرض سيطرته على الخلافة باعتبارها أهم قوة سياسية في العراق، فقد هدف من وراء هذه العملية إشعار الخليفة الجديد بفعل البويهيين في تنصيبه، ولذلك يذكر المسعودي، زالت أكثر رسوم الخلافة

والوزارة وصار المطيع مغلوباً على أمره، إذ أنه على الرغم من ورود كلمة الوزارة في بداية أمر معز الدولة فإنه خصص للخليفة كاتباً يدير إقطاعاته وشؤونه وكان المعز أيضاً ولكنه يتمتع بسلطات أوسع من سلطات كاتب الخليفة وتشابه سلطان الوزير، وخصص للخليفة مرتباً محدوداً أنقص بمرور الزمن وقد بلغت سيطرة الأمير البويهي أوجهاً ومن عضد الدولة لأنه صار باعتراف عن الخليفة مطلق السلطة في إدارة دفة الدولة، جاء في العهد الذي خلعه الخليفة على عضد الدولة ما نصه (قد رأيت أن أفوض إليك ما أوكله لله تبارك وتعالى إلي من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي وما نحو داري فتول ذلك مستخيراً لله فيه).

وتكررت إهانة البويهيين للخليفة في زمن بهاء الدولة إذ ألقى القبض عليه بعد سنتين فقط من توليه إمارة البيت البويهي وكان قد خلع عليه اللواء والألقاب، وقصة القبض على الخليفة تشابه الصورة التي تم فيها القبض على الخليفة المستكفي إذ تقدم أتباع بهاء الدولة إلى الخليفة الطائع وجذبوه من سريره ثم تكاثر عليه الديلم ولقوه في كساء وحمل إلى بعض الزبازب.

وفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م حاول معز الدولة الاعتداء على سلطات الخليفة بتعيين قاضي القضاة فقلد أبا العباس عبد الله بن الحسن بن أبي شوارب القضاء على جانبي بغداد ومدينة أبي جعفر المنصور، لكن الخليفة امتنع عن استقبال ابن أبي الشوارب (ولم يأذن له أن يصل إليه هذا العمل إلى أن رضخ معز الدولة لموقف الخليفة فعزل القاضي عام ٣٥٢هـ، وتم تعيين أبي بشر بن أكتم بدلاً منه وخلع عليه الخليفة وأمره ألا يوافق عليه أية وثيقة أحكام وسجلات سبق أن نظر بها ابن أبي الشوارب، كذلك فإن الخليفة لم يستسلم لتصرفات بختيار بن معز الدولة الشائنة وانصرافه إلى ملذاته تاركاً أمور الدولة، فعندما

طلب منه سنة ٣٦١هـ/٩٧١م أن يمده بالأموال بحجة أنه يروم محاربة الروم قال له الخليفة قولة تعد صرخة لموقفه فقال (الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإلي تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لي فرع إلا القوت القاصر عن كفائي، وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم في هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله)، علاوة على ذلك فإن الخليفة الطائع لله الذي أعقب والده على أمر الخلافة كان كارهاً لبختيار، وأنه في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م كان مع بختيار في حربه ضد عضد الدولة فلما وجد موقف بختيار العسكري ضعيفاً (امتنع عن المقام وبرز متوجهاً إلى بغداد).

فالخليفة العباسي لم يقف مكتوف الأيدي تجاه الغزو الديلمي على الرغم من سعة نفوذ البويهيين، كان البويهيون لا يفرطون بموقف الخليفة إلى جانبهم لما فيه من دعم في جانب الأهالي، فالناس يولون أهمية كبيرة للخلافة، وإن إرضاء الخليفة تعني الحصول على تأييد الناس.

وفي المرحلة الثانية من النفوذ البويهي ابتداءً بفترة حكم بهاء الدولة حتى سنة ٤٤٧هـ تتجلى الأحداث عن تصاعد في قوة الخليفة وفعاليته في الأمور السياسية والاجتماعية، فأخذ يفرض آراءه على أمراء البيت البويهي، ويرغمهم على التراجع عن سياستهم وسوء تصرفاتهم لاسيما خلال فترات انشغال البويهيين بصراعاتهم الداخلية.

كان من الطبيعي أن يحدث تصادم بين الخليفة في محاولاته العملية في إعادة هيبة وقوة الخلافة وبين الأمير البويهي، وكانت نتائج هذا الصراع إيجابية

بالنسبة إلى الخليفة ففي سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م قلد بهاء الدولة قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبيين للشريف أي أحمد الحسين بن موسى في شيراز وامتنع الخليفة القادر بالله من السماح له بالنظر في أمر القضاة وترددت المراسلات بين القادر بالله والأمير البويهي ثم انتهت إلى صالح موقف الخليفة، ووقعت مجابهة أخرى بين الخليفة والأمير البويهي مشرف الدولة أظهرت أحداثها يقظة الخليفة وحذره من تحركات البويهيين ومحاولاتهم إضعاف جبهة الخليفة ومؤيديه.

ففي سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م جمع الوزير المغربي الأتراك والمولدين ليقدموا ولاء الطاعة لمشرف الدولة وكلف مشرف الدولة المرتضي ونظام الحضرتين وقاضي القضاة ابن أبي الشوارب وجمع من الشهود الحضور فأدت اليمين طائفة منهم، فظن الخليفة أن مشرفاً يحاول تشكيل تحالف من هؤلاء للوقوف ضده، لذلك أسرع بالاتصال بمن تبقى من البارزين ومنعهم من أداء اليمين، ثم إنه أنكر على المرتضي والزنيني وقاضي القضاة حضورهم ذلك المشهد دون أخذ الإذن منه واستدعاهم إلى دار الخلافة وعزم الخروج ضد مشرف الدولة فلما علم هذا بالأمر انزعج لعدم معرفته سبب ذلك.

يمكن القول أن مكانة الخليفة العباسي خلال الفترة البويهية ارتبطت بالظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالبيت البويهي، وكانت العلاقة بين الخليفة والبويهيين علاقة يشوبها الشك والحذر لاسيما من الجانب البويهي وهي أيضاً مرتبطة بقوة البويهيين العسكرية وعلاقاتهم بجندهم الأتراك والديلم، فضلاً عن ذلك فإن الحالة المالية للأمير البويهي كان لها تأثير كبير على تقوية أو إضعاف جانبه اتجاه الجند والخليفة على السواء، لكن الملاحظ على أن الخليفة ابتعد عن الصراعات السياسية للبويهيين واتجه نحو تثبيت سلطاته وامتيازاته

الدينية والدفاع عن الخلافة العباسية بهذه الوسيلة ضد الفاطميين والمعتزلة لذلك فإنه قد كشف من ردوده على حججهم ودفع الفقهاء والمحدثين فارتفعت مكانته في صفوفهم.

ونظراً لاتباع الخليفة العباسي هذا الاتجاه يكون قد مثل سياسية متميزة، فالخطر الفاطمي أبلغ أثراً من التدخل في النزاعات البويهية الداخلية، خاصة أن هناك نوعاً من الثبات في الهيئة الحاكمة البويهية القائمة على مبدأ الوراثة على عكس ما شهدته فترة أمير الأمراء من قلق وتغيير في الجهاز الإداري تبعاً لتغير الأمير فهو بانصرافه عن أمور البويهيين والجند قد يكون خلص الخلافة من مسؤولية مباشرة تجاه تذبذب الجند الديلم والأتراك وتقلب رغباتهم إلى العنف في حالة فشل الخزينة لسد أفواههم، والدليل على ذلك أنه ماعدا مرة واحدة لم يحدث طيلة الحكم البويهي أي تحرك عسكري من الجند ضد الخليفة بشكل مباشر، ولم يطالبونه بالأموال بينما كانت المجابهة على أشدها بينهم وبين الأمير البويهي في الاتجاه الديني للخليفة القادر بالله بعد سياسة مهمة للوقوف بوجه الفاطميين وتخليص الخلافة العباسية من خطرهم لاسيما أن الفاطميين كانوا يسعون إلى الوصول إلى العراق وقد عملوا على نشر دعوتهم كما هو الحال بالنسبة إلى أبي كاليجار والعقيليين والمزيديين، ومع ذلك فإنه لم يهمل الجبهة الداخلية تماماً فقد قام بمحاولات عديدة لاتخاذ مواقف مهمة من القوى المتصارعة.

الفصل الرابع: سقوط البويهيين

لم يكن ضعف البويهيين وتدهور سلطتهم على العراق وبالتالي انـــهيارها وليد أسباب قد ظهرت في أواخر سني حكم الأمراء البويهيين، أو أنها تتحـــدد بفترة زمنية معينة، فالغزو البويهي لبغداد سنة ٣٣٤هـــ قد حمل معه عوامـــل الضعف منذ الأيام الأولى،ويمكن تقسيم العوامل التي أدت إلى سقوط البويـــهيين إلى ما يلي:

ـ العوامل الداخلية:

- الصراع الأسري:

جمع علي بن بويه عماد الدولة شمل إخوانه، أحمد بن بويه معز الدولـــة، والحسن بن بويه ركن الدولة، وتنقل بهم من خدمة أمير ديلمي إلى آخر،وقـــاد هجرتهم إلى شيراز، فبدأ ينظم إمارته بمساعدة إخوانه، فهو الذي أصلح أخطـاء أخيه معز الدولة في كرمان،وهو الذي أنقذه من حبائل البريدي في الأحواز، ثـم سيرة لاحتلال بغداد، ولما مات عماد الدولة في سنة ٣٣٨هـــــــ/٩٤٩م تولـــى الأمر أخوه ركن الدولة وكان مطاعاً من جميع أفراد البيت البويهي: يمثله أخوه معز الدولة في تكريس السيطرة البويهية في بغداد عاصمة الخلافة العباســـية، وقبل وفاة ركن الدولة في سنة ٣٦٦هـــ/٩٧٦م، بدأت بوادر الانشقاق بين أفراد البيت البويه وكان الانقسام الأول في سنة ٣٥٧هـــ/٩٦٧م عندما تمرد ؟؟؟؟؟ بن معز الدولة على أخيه عز الدولة بختيار الذي خلف أباه في أحكام السيطرة على بغداد وتمكن بختيار من قمع جماع أخيه وسجنه ولم يطلق سراحه إلا بشـــفاعة عمه ركن الدولة، وتمرد عضد الدولة ابن ركن الدولة حاكم شيراز فـــي عـــهد

أبيع قبل وفاته فطمع في بغداد وأراد احتلالها منتزعاً إياها من ابن عمه عز الدولة بختيار وذلك في سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م، ولما تفاقم الأمر لجأ ركن الدولة إلى تهديد ابنه عضد الدولة، عندئذ يرجع عضد الدولة إلى شيراز تاركاً ابن عمه ممثلاً لبغداد مما يدل على أن السياسية البويهية لم تكن واحدة، فمعز الدولة بختيار يسير في اتجاه، وابن عمه عضد الدولة يسير في اتجاه، وركن الدولة بالري يسير في اتجاه يسعى جاهداً من أجل المحافظة على تماسك الأسرة البويهية.

ولما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦هـ آلت رئاسة البيت البويهي إلى عضد الدولة الذي سار بقواته في سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م جنوب العراق، واحتل بغداد وقتل ابن عمه عز الدولة بختيار بعد صراعات دامية عانى منها العراق الأمرين، وتجدد الانشقاق بين عضد الدولة وأخويه مؤيد الدولة وفخر الدولة، وخلف له المتاعب بعد وفاة عقد الدولة ٣٧٢هـ/٩٨٢م وزاد الصراع بين أولاده الثلاثة –صمصام الدولة، شرف الدولة، بهاء الدولة– كما حاول عمهم فخر الدولة أن يكون طرفاً في هذا الصراع.

كان أول من تولى الأمر صمصام الدولة، وظل مقيماً في بغداد فترة حتى غلبه عليها أخوه شرف الدولة وذلك في سنة ٣٧٦هـ/٩٨٦م، فاعتقل أخاه وأرسله إلى شيراز.

عند وفاة شرف الدولة في سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م تولى مكانه الأخ الثالث بهاء الدولة، فعادت الصراعات من جديد، حيث أسرع الجند الأتراك بإطلاق سراح صمصام الدولة من السجن، وتجدد القتال بين الأخوين، ودمرت البصرة والأحواز من جراء هذه الحرب، وانتهت بمقتل صمصام الدولة نسبة

٣٨٨هـ/٩٩٨م، وبعدها هدأت الأمور بين أفراد البيت البويهي حتى وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م اضطربت الأمور بعد وفاته، فتقاسم أولاده البلاد، مقام الأخ الأكبر سلطان الدولة الذي ولي الأمر عن سنة ٤٠٣هـ-٤١٥هـ بإعطاء البصرة لأخيه جلال الدولة، وإعطاء كرمان لأخيه قوام الدولة، وجعل بغداد من حصة مشرق الدولة، وأقام هو في شيراز، فأول المتمردين قوام الدولة الذي هاجم شيراز فتصدت له جيوش سلطان الدولة فانهزام من كرمان إلى خراسان ومنها إلى غزنة فأمده صاحبها محمود بن سبكتكين بقوات أعادته إلى كرمان سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م، وتصدت له جيوش سلطان الدولة فهرب مرة أخرى إلى همدان ومنها إلى البطائح، ثم تصالح مع أخيه.

وفي سنة ٤١١هـ/١٠٢٠ تمرد مشرف الدولة على أخيه وقطع الخطبة في بغداد لأخيه سلطان الدولة، ثم إن جلال الدولة في البصرة حاول من ناحيته أيضاً أن يكون كما كان البريدي من قبل، وعند وفاة سلطان الدولة سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ترك الأمر بعده مشرف الدولة الذي توفي سنة ٤١٦هـ/١٠٤٣م، وكان آخر أمراء بني بويه خسرو فيروز -الملك الرحيم- الذي عاصر سيطرة السلاجقة على العراق سنة ٤٤٧هـ.

- **التمرد العسكري:**

قامت الإمارة البويهية على أكتاف الديالمة في بداية الأمر، ولكن زعماء هذه الإمارة استعانوا فيما بعد بالعنصر التركي ففتحوا بذلك باب الصراع بين عناصر الجيش، وبدأت بوادر هذا التمرد في سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م عندما حصل نزاع بين معز الدولة وخاله أصفهدوست كبير قواد الديالمة، الذي لم يرشح لتطور العلاقة بين معز الدولة وقادة الترك، وأكبر تمرد قام به الديالمة هو في

سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م بزعامة الأخوة الثلاثة روزبهان بن ونداد هذا التمرد، وتصدى لهذا التمرد وبعد معارك عنيفة تمكن من إفشاله وتخلص من القائمين به.

وما إن انتهى معز الدولة من دحر زعماء التآمر حتى قام بطرد جميع الديالمة الذين أبدوا التآمر من جيشه، وعهد إلى وزيره أبي محمد المهلبي مسؤولية مرافقة الجامعات المطرودة من الجيش إلى الحدود تحت حراسة مشددة ثم منح قادة الأتراك رتبة جديدة وأغدق عليهم الأموال.

في الوقت الذي أضعف هذا التمرد عنصر الديلم في الجيش البويهي، عزز مكانة العنصر التركي فيه، فزاد طمعه وسيطرته على الأموال، وبعد وفاة معز الدولة تولى الأمر ابنه عز الدولة بختيار الذي أساء إلى كبار الديالمة وصادر أمواله، فتمرد عليه أصاغر الديلم وطالبوه بإطلاق الأموال، كما أصروا على إعادة الجنود الديالمة الذين طردهم معز الدولة من الخدمة ولما أجابهم بختيار إلى ذلك مضطراً، تعقد الموقف فتمرد عليه الأتراك وقد غاضبهم عودة قوة الديالمة، وساند بختيار الديالمة وحرضهم على نهب أموال الأتراك وبخاصة في البصرة والأحواز، مما أدى إلى تمرد الأتراك عليه سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م بزعامة سبكتكين الحاجب الذي سيطر على بغداد فأحرق دار الإمارة البويهية وأسر من فيها وأجلاهم إلى واسط، ثم سار سيكتكين إلى واسط من أجل إنهاء السلطة البويهية في العراق إلا أنه توفي فجأة وتولى أمر الأتراك الفتكين الذي ألحق خسائر فادحة بجيش بختيار الذي طلب العون من عضد الدولة، كما استنجد بعمران بن شاهين والحمدانيين مقابل بعض التنازلات، وقد أحرج تمرد الأتراك وضع السلطات البويهية في العراق، كما شجع هذا الأمر تآمر عضد

الدولة على بختيار، ولذلك ساهم قادة الجيش المتصارعين في زيادة ضعف وانحلال الأسرة البويهية.

- العوامل الخارجية:

من أهم العوامل الخارجية التي عملت على سقوط الإمارة البويهية ما يأتي: :

- قيام الإمارة الغزنوية ٣٥١هـ-٥٨٢هـ:

ساعد على انهيار السلطة البويهية سواء عن طريق المنافسة العسكرية على بعض مناطق النفوذ، أو بما أبدته هذه الإمارة من نشاط واسع في تعزيز مركزية الخلافة العباسية ومدها بالقوة المعنوية وتمكينها من الوقوف بوجه المحاولات البويهية التي استهدفت إسقاطها، وفي سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م تمرد بعض قادة الجيش على الأمير نوح الساماني، الذي طلب بدوره العون من أمير غزنه سبكتكين نائب السامانيين فيها فأنجده، ولم علم المتمردون بقدوم النجدة الغزنوية راسلوا فخر الدولة ابن ركن الدولة البويهي وطلبوا مساعدته لهم لإسقاط السامانيين، وقمع القوات الغزنوية المتقدمة، فسارع فخر الدولة البويهي للإنجاد وأرسل قواته، وبعد قيام معارك حامية خسر الجيس البويهي وانهزم قادته الذين كتبوا إلى فخر الدولة بالأمر، فأسعفهم بالمال وأنزلهم جرجان، أما سبكتكين فقد خرج في هذا الموقف بتوسع سلطانه في المشرق حيث ولاه الأمير الساماني نوح بن منصور إقليم خراسان مكافأة له على قمع المتمردين، ولقبه ناصر الدولة.

توفي سيكتكين سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وتولى الأمر ابنه محمود الغزنوي الذي أحكم السيطرة على منطقة خراسان في سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م وريثاً للإمارة السامانية، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله، وبعدها سعى لتوسيع ممتلكاته، فسيطر على سجستان، كما أسقط السلطة البويهية في الري وبلاد الجيل، بعد أن قبض على مجد الدولة آخر الحكام البويهيين فيها، وكتب إلى الخليفة القادر بالله يخبره بكل هذه الأمور، فاسند له الخليفة العباسي ولاية خراسان والجبل والسند والهند ولقبه يمين الدولة.

ـ الإمارة السلجوقية:

بدأت الإمارة السلجوقية في الظهور اعتباراً من سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م، وبدأت هجرتها الكبرى، وسوف تزيل التسلط البويهي من بلاد إيران والعراق وتحل محله، وهذا ما سنتناوله في الفصل اللاحق.

الباب الخامس

الخلافة العباسية في عهد التسلط السلجوقي

(٤٤٧-٥٧٥هـ / ١٠٥٥ ١١٧٩م).

الفصل الأول: أصل السلاجقة وقيام دولتهم.

الفصل الثاني: سيطرة السلاجقة على إيران.

الفصل الثالث: السلاجقة في العراق

الفصل الرابع: الخلافة العباسية والسلاجقة.

الخلافة العباسية في عهد التسلط السلجوقي

(٤٤٧هـ ٥٧٥هـ / ١٠٥٥م ١١٧٩م)

الفصل الأول: أصل السلاجقة وقيام دولتهم

أولاً: موطنهم وأصلهم:

السلاجقة مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم (الغز) أو (التغزغز) ويميل بعض المؤرخين إلى إيجاد علاقة بين هؤلاء الغزو (الهونغ – نو) الذين احتاجوا مقاطعات الصين الغربية حوالي عام ١٢٠٠ق.م وبين خلطائهم من قبائل الهون الذين دحرهم الصينيون عام ٢٥١م, وقد أطلق على هذه القبائل الغزية أسم السلاجقة نسبة إلى رجل تزعمها يدعى سلجوق بن دقاق. ويبدو أنه هو الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته، ثم قادها ونزل بها ارض الإسلام، إذ جاوروا السامانيين والالخانيين والغزنويين واعتنقوا الإسلام الذي كان سائداً وعملوا في جيوشها مقاتلين مرتزقة.

فعلى سبيل المثال ذكر أن السلطان محمود بن سبكتيكن الغزنوى كان قد استعان بهم في جيشه أثناء غزواته ضد الهند- وكان يدفع لهم أجور لقاء ذلك ويشير البيهقي بقوله: وهم جند مأجورون يحاربون في جيش من يدفع لهم الأجور. لأنهم يمتازون عن سائر الجند المرتزقة بالجرأة في القتال والاعتزاز بالنفس وبالكبرياء والاستقلال في الفكر وهو كالرحل يميلون إلى النهب والسلب وليس من اليسير السيطرة عليهم. " ويرجع الفضل إلى سلجوق في توطيد كيان السلاجقة وتوحيدهم تحت زعامته وزعامة أبنائه وأحفاده، من بعده ومنذ ذلك الحين عرف هؤلاء الذين قادهم سلجوق بالسلاجقة منذ عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

بدأت هجرة السلاجقة من موطنها الأصلي في سهول تركستان خلال القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة تحت ضغط ظروف قاهرة فقد اضطر السلاجقة بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان إلى ما وراء النهر. استقروا قرب شواطئ نهر سيحون واتخذوا مدينة (جند) قاعدة لهم. ثم انتقلوا منها في عهد ميكائيل بن سلجوق إلى (نور بخارى) وهي من أعمال بخارى نفسها., وبعد زوال الدولة السامانية عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م توزعت أملاكها بين القراخانين والغزنونيين، فاستفاد السلاجقة من هذا التوزيع السياسي الجديد وعملوا على توسيع رقعة بلادهم فأخذوا ينتقلون بين مدينة نور بخارى شتاء وصفد صيفاً.

كان السلاجقة يعيشون حياة قبلية فلم يألفوا حياة المدن والاستقرار بل دأبوا على النقل والارتحال طلباً للرزق وانتجاعاً لمواطن الكلأ. فكانت جذور الحياة القبلية راسخة في أعماق نفوسهم مما أثر في دولتهم فاعتمد سلاطينهم اعتماداً كبيراً على القبائل التركية وكونوا من أفرادها جيشاً كامل العدة والعدد وأصبحوا في فترة وجيزة قوة يخشى بأسها ويحسب حسابها.

ثانياً: اعتناقهم للإسلام:

عبد السلاجقة قبل اعتناقهم عناصر الطبيعة كالشمس والقمر إضافة للإله أوماي. الذي اعتبروه حامياً لأطفالهم إلا أنه ليس لدينهم كتاب مقدس، لكن بعد استيطانهم الجديد في بلاد ما وراء النهر اعتنق قسم منهم الديانة اليهودية والمسيحية. والحقيقية أن السلاجقة منذ فجر تاريخهم كانوا هدفاً لمبشري مختلف الأديان فقد كان البوذيون أول المبشرين الذين تسللوا إلى آسيا الوسطى من الهند وذلك في القرن الثالث الميلادي. ثم جاءهم المانويون وتبعهم المسيحيون.

ومما لاشك فيه أن كلا من هؤلاء قد اجتذب نحوه جماعة من هذه القبـائل ولم يكن للمسيحية تأثير كبير عليهم. كذلك فإن البوذية لم تنتشر بشكل واسع بين صفوفهم إذ سرعان ما فسحت المجال للساسانيين الذين حــل محلــهم التجــار العرب وذلك بين القرنين السابع والثامن الميلادي وتمركزوا في آسيا الوســطى بأعداد متزايدة لغرض الوصول إلى الصين. وعلى الرغم من أن وجودهم فــي أسيا الوسطى قد وضع حداً للسيطرة الفارسية إلا انهم لم يستطيعوا في بــادئ الأمر التأثير دينياً على الغز، وعلى أية حال فان تزايدهم المستمر بــدأ يؤكــد وجودهم وكيانهم وحتى أواسط القرن التاسع الميلادي أسست الجاليــة العربيــة الجوامع في أغلب مدن إقليم أموداريا (حوض نهر جيحون) الكبرى، وقد شعر الغز بواقعية وعظمة الدين الإسلامي فأعتنق السلاجقة الإسلام في نهاية القــرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ثالثاً: ظهورهم على مسرح الأحداث وقيام دولتهم:

كانت مناطق سكنى السلاجقة في ذلك الوقت تجاور ممتلكات الســامانيين والالخانين والغزنويين. وهم من الدول الإسلامية، فأدى جوار الســلاجقة إلــى زيادة انتشار الإسلام بينهم، ويسر لهم فرصة التقرب مــن حكــام المســلمين المجاورين لهم. والتدخل أحياناً – في المنازعات التي تحدث بينهم. ففي عــام ٣٩٤هــ / ١٠٠٣م هرع إسرائيل (أرسلان) بن سلجوق لمساعدة الســامانيين الذين اصطدموا بالقرخانيين، وخرج من هذا الصراع بمكســب يحــق لقبيلتــه الانتفاع بمناطق الرعي حول خراسان أي في إقليم السامانيين بــالذات. وكــان لتعاظم قوة السلاجقة هذه أثرها في نفس الغزنويين وأدرك السلطان الغزنــوي محمود بن سبكتكين مدى الخطر الذي يكمن وراء ازدياد قوة السلاجقة في بــلاد ما وراء النهر وخشي أن يكونوا شوكة في ظهره تشغله عن مواصلــة جــهاده

لنشر الإسلام في ربوع الهند وكان السلاجقة آنذاك يواصلون غاراتهم على المناطق المجاورة لهم في محاولة لتوسيع منطقة نفوذهم في تلك البلاد واستطاع السلاجقة بعد استقرارهم في بلاد ما وراء النهر أن يجهزوا أنفسهم بالأموال والعتاد. ومما زاد في مخاوف محمود الغزنوي قول إسرائيل بن سلجوق متحدياً: أن باستطاعته جمع مئة ألف محارب بمجرد إرسال سهم من سهامه إلى بني قومه وباستطاعته مضاعفة ذلك العدد لو ارسل قومه لهذه الغاية لذا دبر محمود الغزنوي حيلة للقبض على إسرائيل فأرسل رسالة إلى السلاجقة يطلب فيها الإسراع في إرسال شخص ينوب عنهم.

وحين وصلت رسالة محمود إلى السلاجقة اختاروا أن يرسلوا إليه إسرائيل وكان المقدم المحترم بينهم ويذكر أن الأخوة اقترعوا فوقعت القرعة على إسرائيل فسار إسرائيل إلى محمود الغزنوي لمقابلته مع أشخاص معدودين من خواصه فأكرم محمود وفادته ورحب به ودارت بين محمود الغزنوي وإسرائيل محادثة فهم منها السلطان محمود بقوة السلاجقة وكثرة جيوشهم. فرأى من الصواب حسب رأيه أن يحتجز إسرائيل عنده، وبذلك خالف ونقض العهد لقيامه بعمل يخالف العرف والتقليد الإسلاميين وحمل السلطان محمود الغزنوي إسرائيل بن سلجوق إلى الهند وحبسه في قلعة كالنجر، وبقى في تلك القلعة مدة سبع سنوات ثم حاول السلاجقة إنقاذه من سجنه ولكن حراس القلعة اكتشفوا الأمر فشددوا القيود عليه وظل سجيناً حتى مات عام ٤٢٢هـ/١٠٣٠م.

كانت لتلك الحادثة أثرها المؤلم في نفوس السلاجقة الذين صمموا على الثأر كما ازدادوا حذراً وحيطة وتولى قيادتهم ميكائيل وقد نجح في نقلهم إلى إقليم خراسان وتتضارب الروايات حول كيفية انتقالهم إلى خراسان، فيذكران ميكائيل امتنع على السلطان محمود الغزنوي ومال عنه ولم يمل إليه، فغاظ السلطان تمنعه، فقبض عليه واعتقله ثم عبر به وبأصحابه إلى خراسان وهناك

رواية مغايرة مفادها أن السلاجقة أرسلوا إلى السلطان محمود الغزنوي رسالة جاء فيها: أن مقامنا أصبح يضيق بنا، وان مراعينا أصبحت لا تفي بحاجة مواشيننا فأذن لنا أن نعبر النهر وان نجعل مقامنا بين (نسا) و(باورد) ومهما يكن من أمر، فقد دارت على ما يبدو مناقشات في داخل البلاط الغزنوي حول مسألة السماح بعبور السلاجقة فقد ذكر أن ارسلان الحاجب- وهو أحد المقربين من السلطان محمود الغزنوي- كان قد نصح السلطان بان لا يسمح للسلاجقة بالعبور وخوفه منهم بقوله: أني أرى في أعين هؤلاء عين الهول، وأنهم لمعروفون بالجرأة والقوة والحول والرأي عندي أن تقطع إبهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره، ولا يخاف شره" وقيل أن السلطان لم يقبل بهذا الرأي حيث رد على ارسلان بالقول: انك لقاسي القلب".

اتصل الالخانيون بالسلطان محمود الغزنوي الذي كان آنذاك مقيماً بالقرب من نهر جيحون وحذروه من وجود السلاجقة قرب بلاده ومن تطلعهم إلى الوثوب عليها وخوفوه من احتمال قيامهم بالاستيلاء على ممتلكاته أثناء غيابه في بلاد الهند في حين نصحه الملك القرخاني (قدرخان) بان يستظهر بهم ويستعين بقوتهم بالرغم من تخوف السلطان محمود فقد سمح لهم بعبور نهر جيحون إلى إقليم خراسان عام ٤١٦هـ / ١٠٢٥م. وأثناء إقامتهم في خراسان تقربوا من حاكمها أبي سهل احمد بن الحسن الحمدوني فعين لهم مروج دندانقان فاستقروا بها وبما قاربها. والواقع أن نجاح السلاجقة في الانتقال إلى إقليم خراسان كان من عوامل تثبيت أقدامهم ودعم مركزهم في الإقليم المذكور فقد تهيأت لهم الفرصة لإقامة دولة قوية تستطيع الوقوف في وجه الغزنويين فيما بعد وكان ميكائيل يدرك تماماً مدى قوة خصمه ومكانته في العالم الإسلامي نتيجة تأييد الخلافة العباسية له. لذلك تجنب الزعيم السلجوقي التورط في خوض المعركة مع السلطان محمود إلا إذ كان واثقاً من قوة السلاجقة وقدرتهم على

تحقيق النصر فشرع في تدعيم قوته العسكرية استعداداً للانقضاض على الدولة الغزنوية واقتلاع جذورها من إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر. ولم يلبث سكان بعض المدن في إقليم خراسان مثل أهل (نسا) و(باورد) أن اشتكوا إلى السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٨هـ /١٠٢٧ وطلبوا منه إبعاد السلاجقة من جوارهم فأمر السلطان عامله على طوس بإجلائهم عن تلك المناطق فجرت عدة معارك بين الجانبين كان النصر فيها حليف السلاجقة، مما اضطر السلطان محمود إلى الخروج إليهم بنفسه في عام ٤١٩هـ/١٠٢٨م ودارت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها السلاجقة إلى بلخان ودهستان بعد أن فقدوا أربعة آلاف من خيرة فرسانهم.

ومهما يكن من أمر فإن السلطان محمود الغزنوي لم يستطع طرد السلاجقة من خراسان أو القضاء عليهم نهائياً بل على العكس فإنهم استطاعوا أن يجمعوا شملهم مرة أخرى ويستعدوا لجولة جديدة تحت زعامة جفري بك (داود) وطغرلبك (محمد) أبني ميكائيل وواتتهم الفرصة عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م عندما مات السلطان محمود، فأخذوا يوسعون أملاكهم وينشرون نفوذهم على الجهات المجاورة لهم، حتى شمل نفوذهم أكثر جهات خراسان. وأدى توسع السلاجقة إلى الاصطدام بوالي نيسابور وهي قاعدة الغزنويين في خراسان فدخلوا معه في حروب طاحنة اضطر فيها إلى الاستعانة بقوات السلطان مسعود الذي تولى بعد أبيه محمود، غير أن السلاجقة حققوا نصراً كبيراً على قوات والي نيسابور ثم على مسعود نفسه بعد ذلك، واضطره إلى عقد صلح معهم، وترك المنطقة لهم، ثم رحل إلى الهند لتفقد شؤونها. وفي أثناء ذلك وصل إليهم رسول من قبل الخليفة العباسي القائم بأمر الله هو أبو بكر الطوسي حاملاً كتاباً من الخليفة يطلب فيه منهم الالتزام برعاية الناس وعمارة البلاد التي وقعت في أيديهم وقيل أنهم احترموا رسول الخليفة احتراماً كبيراً وحملوه الهدايا والخلع.

وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة. ويرجع البيهقي أسباب انتصارهم هذا إلى خفتهم وبأسهم في القتال إذ يقول كان السلاجقة خفافاً لا تعوقهم مؤنهم عن الحركة ولا يرتبطون بهذه المؤن وكانوا مطيعين لقوادهم الثلاثة لا يخالفون لهم رأساً وهؤلاء الثلاثة كانوا يتشاورون في كل ما يصدرون من أمر أما الغزنويون فكانوا مترفين فجنودهم ينفرون إلى الحرب وعليهم من الملابس والدروع ما يعوق حركاتهم بسرعة وكانوا مرتبطين ارتباطاً شديداً بما معهم من المتاع، وأما قادتهم فقد كانوا مسيرين للحرب برأي السلطان لا بآرائهم ولم تكن أراء السلطان تصدر عن روية وتدبير، إنما كان الاستبداد يسيطر عليها.

أبدى السلاجقة بعد نظر وحكمه، فبعد انتصارهم على السلطان مسعود لم يتعجلوا الأمور قبل أن تتمكن أقدامهم في الجهات التي حصلوا عليها وإنما رأوا أن يهادنوا السلطان وان يحصلوا على كل ما توصله إليهم المهادنة من كسب فأرسل إليه يعتذرون عما حدث منهم، وبأنهم إنما كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن منازلهم وأبنائهم ولولا ذلك ما قاتلوا ولا رفعوا حساماً في وجه السلطان وهم لذلك يطلبون عطف السلطان وعفوه وقد جاء ذلك في رسالة كانوا قد بعثوا بها إليه نصها ما يلي: "وقد أخطأنا في اختيار سوري للوساطة والشفاعة عند السلطان فإنه متهور ولا يرعى المصلحة في عواقب الأمور وانتهى الأمر إلى أن يسير السلطان إلينا جيشاً. ومعاذ الله ما كنا نجرؤ على امتشاق الحسام في وجه الجيش المنصور، ولولا أنهم انفضوا على دورنا كما تنفض الذئاب على الحملان واعتدوا على نسائنا وأطفالنا مع أنا كنا حاملين على الأمان فلم نجد أبدا من أن ندافع عن أنفسنا. والنفس عزيزة وان نؤكد ما ذكرنا أول الأمر، ووكل ما حدث لم يكن إلا من قبيل عين حاسدة أصابت الجيش المنصور على الرغم منا وأننا لا نبغي غير السلم".

كان السلاجقة يبغون من وراء طلب الصلح أن ينالوا وقتاً من الراحة والاستقرار، وليكسبوا شيئاً من البلاد يعترف السلطان بحقهم في ولايتها. وفعلاً وبعد محادثات ومفاوضات بين رسل السلاجقة والسلطان ومستشاريه تم الاتفاق على ما يلي:

١-تعطى لكل واحد من هؤلاء خلعة ومنشور ولواء.

٢-تعطى إلى بيغو (وهو الابن الثالث لميكائيل) وطغرلبك وجفري بك ولايات (نسا) و(فراوة) و(دهتسان).

٣-أن يذهب القاضي أبو نصر الصيني ويسلم الخلع بنفسه.

٤-أن يأخذ القاضي أبو نصير الصيني عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان.

٥-أن يقتصر هؤلاء على هذه الولايات الثلاث.

٦-أن يأتي أحد هؤلاء الثلاثة إلى الدركاه (البلاط) ليكون في خدمة السلطان.

وقد نظمت هذه الاتفاقية وكتب في (دهستان) باسم جعفري بك و(نسا) باسم طغرلبك و(فراوة) باسم بيغو، ثم وقعها السلطان ووجهت إليهم رسائل منه، فخوطبوا بلقب الدهقان واعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم في خلع الولاة، تشمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة وسرج وكمرسن ذهب برسم التركمان وثلاثين ثوباً غير مخيطة لكل واحد منهم. وحصل السلاجقة بمقتضى هذا الصلح على اعتراف صريح من السلطان مسعود بنفوذهم مما كان له أثر واضح في ترسيخ أقدامهم في خراسان واشتد بأسهم وازدادت قوتهم ولاحت عليهم إمارات الملك، وعلامات الحكم ومخايل السلطان.

استراح السلاجقة بعد هذا الصلح وأتيحت لهم الفرصة لتقوية مركزهم بعد أن اعترفت بهم الدولة ولاة من قبلها، فأخذوا في توسيع رقعة أراضيهم التي

خاضت بهم نظراً لتوارد القبائل في غزنة فأحس رجال الدولة بالخطر، فاجتمعوا إلى السلطان الذي كان قد ركن إلى الصلح مع السلاجقة فأعرض عن خراسان والسلاجقة وتفرغ لأمور الهند، واخذ يحذرونه مغبة إهمال أمر خراسان وقالوا له كما يروي ابن الأثير إن قلة المبالاة بخراسان من أعظم سعادة السلجوقية، وبها يملكون البلاد ويستقيم لهم الملك. ونحن نعلم انهم إذا تركوا على هذه الحال استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى غزنة وحيئنذ لا ينفعنا حركاتنا.

عندئذ نقض السلطان الصلح وأمر والي خراسان بضرب السلاجقة وطردهم، لكن هذا أجاب بأن أمر السلاجقة قد علا بحيث لا أستطيع أنا ولا غيري أن نقاومهم " فسير مسعود قواته لحرب السلاجقة ولكن هؤلاء راوغوها وما زالوا يستدرجونها حتى إذا ما وجدوا فرصة هاجموها، فالحقوا بها هزيمة فادحة على باب مدينة سرخس عام ٤٢٩ هـ /١٠٣٧م ثم تقدم طغرلبك إلى مدينة ينسابور فدخلها وجلس على عرش السلطان مسعود، وأعلن قيام دولة السلاجقة، ونادى بنفسه سلطاناً باسم "طغرلبك السلطان لمعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب" ثم فرق عماله في النواحي وسار اخوة جفري بك داود إلى مدينة هراة فاستولى عليها.

تعد سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧ بدء قيام دولة السلاجقة لان طغرليك باشر مهامه كسلطان فعلي لهم منذ ذلك التاريخ وبذلك أصبح للسلاجقة كيان سياسي، ورقعة فسيحة من الأرض وحاكم له الزعامة التي منحها إياه رعاياه. فقد اجتمع رجال البيت السلجوقي فوحدوا صفوفهم وانتخبوا طغرلبك رئيساً لهم وسلطاناً عليهم. وبذلك استكملت الدولة الشكل ولم يبق إلا استكمال الصفة الشرعية بالحصول على موافقة الخليفة العباسي صفة الشرعية يرضى عنها الناس، لذلك

بدأوا بمراسلة الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢هـ - ٤٦٧هـ) من اجل إصدار أمر التقليد وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً.

لم يمر إعلان دولة السلاجقة بسهولة فان السلطان مسعود ما كاد يسمع باعتلاء طغرلبك عرشه في نيسابور وتلقبه بالسلطان (طغرلبك الأول) حتى خرج بنفسه على رأس قواته لتأديب السلاجقة، ولكن هؤلاء الحقوا به هزيمة حاسمة عند (داندا نقان) عام ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، انقلب بعدها مدحوراً إلى غزنة، وغنم السلاجقة من معسكره مالا حصر له من الذهب والفضة والملابس والدواب. ورجع طغرلبك إلى نيسابور عزيزاً منصوراً وهو جالسٌ على سرير الملك الذي كان لمحمود بن سبكتكين – وابنه مسعود في نيسابور، ونهى وأمر، وأعطى وأخذ وأبرم ونقض وأحكم وقوض وجلس يومي الأحد والأربعاء لكشف المظالم، وبسط المعدله وبث المكارم كما استولى السلاجقة حينئذ على جميع البلاد فسار بيفو إلى هراة فدخلها وسار جفري بك داود إلى بلخ فملكها.

كانت موقعه داندانقان موقعه حاسمة في تاريخ السلاجقة والغزنويين على السواء. فإنها أنهت الصراع بين هاتين القوتين، فلم يعد الغزنويون بعدها يفكرون في مهاجمة السلاجقة أو مناوأتهم ولم يحاول أحد من حكام الأقاليم في ذلك الوقت التصدي لهم، فقوى أمرهم وتوافد الجند إليهم من جميع أطراف خراسان، فقويت دولتهم، كما أنها ظفرت برضاء الخليفة العباسي عنها واعترافه بها، بذلك انحسرت الدولة الغزنوية عن إيران وبلاد ما وراء النهر لتحل محلها الدولة السلجوقية.

الفصل الثاني: سيطرة السلاجقة على إيران:

بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوي عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م في معركة داندانقان، قرر حينها الذهاب إلى غزنة، ومنها إلى الهند ليقضي فصل الشتاء بها على عادة والده، واخذ معه أخاه محمداً واستصحب الخزائن وكان عازماً على الاستنجاد بالهنود لمحاربة السلاجقة ثقة بعهودهم. إلا انه سرعان ما اختلف مع أخيه محمد فانقسم الجيش الغزنوي إلى قسمين والتقى الطرفان المتنافسان في عراك شديد، قتل على أثرها السلطان مسعود بعد أن اعتقل في قلعة كيكي في الهند.

في الوقت نفسه كان السلاجقة يعملون على توحيد صفوفهم فقد ذكر أن طغرلبك كان قد عقد اجتماعاً ضم أخاها جفري بك وعمه موسى بيغو، وأبناء عمه كما ضم غيرهم من رجالات السلاجقة، وتدارسوا الخطوات التي ينبغي أن تتلو قيام دولتهم. فتعاهدوا جميعاً على أن يظلوا متحدين متماسكين وإلا يدعوا للتفريق والتنازع سبيلاً إلى قلوبهم حتى يظلوا أقوياء ظافرين كما أكدوا اتفاقهم على تعيين طغرلبك قائداً على جيوشهم وسلطاناً على دولتهم وتعاهدوا على أن يدينوا له بالولاء دائماً ومع أن طغرلبك كان أصغر سناً من أخيه جفري بك إلا انه كان قوي الشخصية متوقد الذكاء فائق الشجاعة عظيم التدين، وهي صفات حببت فيه الجند ورجال القبائل فالتفوا حوله واسلموا قيادهم له.

أخذ طغرلبك بالتوسع ففي عام ٤٣٣هـ / ١٠٤١م ضم طغرلبك إلى إقليمه مدينة جرجان وطبرستان وتقدم نحو خوارزم وامتلكها، وأمتلك إبراهيم اينال وهو أخو السلطان طغرلبك من أم، مدينة همذان، وسيطر على البلاد المجاورة لها، ومن ثم التقى طغرلبك وإبراهيم إينال وسارا سوية إلى كرمان

وحاربا أهلها ولكن الملك أبا كاليجار سير الجيوش الكثيفة لصد السلاجقة، وترك طغرلبك كرمان لشدة المقاومة. ونحن ندرك منذ هذه اللحظة أن مجال النشاط السلجوقي اتسع حتى غطى كل الأقاليم الإيرانية في بحر قزوين إلى المحيط الهندي، فإن قوة كرمان لم تكن قادرة على طول المدى على أن تقف بين السلاجقة وبين الوصول إلى المحيط الهندي.

ولكي يضمن السلطان طغرلبك وحدة الأراضي التي سيطر عليها بقوة السلاح، فقد قرر أن يعين لأدارتها رجال من أقربائه وخاصته، فعين كل واحد منهم على ولاية من الولايات وسيره إليها وسمع له بان يفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها، على أن يضم ما يفتحه إلى منطقة نفوذه دون منازع، فاختص جفري بك بأكثر خراسان على أن يتخذ مدينة مرو داراً لملكه. وتنصب موسى على ولاية بست وهراة وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي التي يستطيع فتحها وتنصب قاورد وهو اكبر أولاد جفري بك على ولاية الطبسين ونواحي كرمان واختص إبراهيم اينال بقهستان وجرجان ولأبي الحسن بن موسى هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور- وهي ولاية متداخلة في ولاية أبيه موسى. أما طغرلبك فقد اتخذ مدينة الري داراً لملكه. نجح طغرلبك في بناء كيان قوي للغز السلاجقة الذين سيصبح لهم تأثير عظيم في سياسة المشرق العربي الإسلامي وامتداده إلى البحر الأبيض المتوسط في القرنين الخامس والسادس الهجريين وهذا التقسيم يحدد على وجه التقريب المجال الذي وصل السلاجقة إلى إشغاله، ولم يبق حتى هذا الوقت للدولة التي أنشأها السلاجقة إلا أن تستكمل آخر عنصر من مقوماتها وهو الحصول على اعتراف الخليفة العباسي بقيام دولتهم فان مثل هذا الاعتراف وحده بحكم نظم هذا العصر هو الذي يكسب الدولة شرعيتها بحكم المناطق التي يسيطرون عليها.

بدأ السلاجقة الاتصال بالخليفة العباسي القائم بأمر الله، إذ كتبوا له رسالة شرحوا فيها مبررات سيطرتهم على أملاك الغزنويين، وعلى إظهار ولائهم للخلافة وحبهم للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

لم يتوقف زحف السلاجقة حتى وصول رد الخلافة إنما أخذوا في تنفيذ خطتهم للسيطرة على إيران كلها، قائمة كل واحد منهم إلى ولايته ليستولي على ما يقدر عليه من إقليم إيران، وحين وصل رسول الخليفة لم يكن طغرلبك موجوداً بمدينة الري، فاضطر للبقاء بها ثلاث سنين في أثنائها خاض طغرلبك حروباً كثيرة لإتمام سيطرة السلاجقة على إيران. إذ كان عليه أن يقضي على البقية الباقية من نفوذ البويهيين في كل إيران والعراق، وقد ساعدته الحالة السيئة في المشرق العربي الإسلامي فانتصر في حروبه جميعاً.

بدا طغرلبك تنفيذ خطته عام ٤٣٣هـ/١٠٤١م، فولى وجه شطر جرجان وطبرستان فاستولى عليها من يد آنوشيروان الزياري الذي قبل أن يكون والياً عليها من قبل طغرلبك فكان هذا إيذاناً بسقوط الدولة الزيارية من إيران.

ثم توجه في عام ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م إلى خوارزم فتمكن من ضمها إلى أملاك السلاجقة هي وما جاورها ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة الري التي كانت قد وصلتها قوات السلاجقة بقيادة إبراهيم إينال فتسلمها واصلح عمارتها واتخذها مقراً لحكومته وفي الري قابله رسول الخليفة فأكد له طغرلبك عزمه على زيارة بغداد في الوقت المناسب.

وفي الفترة بين عام ٤٣٤هـ إلى ٤٤٦هـ / ١٠٤٢ – ١٠٥٤ أفلح طغرلبك أن يضع يده على كل أجزاء إيران الغربية، فاستولى على قزوين وأبهر وزنجان وهمذان وإقليم أذربيجان، فخضع له بذلك أمراء الديلم، كما

أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان التي قاومت كثيراً حتى توجه إليها بنفسه، وفي عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م توجه لفتح اصفهان والأجزاء الجنوبية من إيوان، فاستولى عليها وعلى إقليم فارس، وبذلك اسقط الحكم البويهي في هذه المنطقة، وفي عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م توجه بنفسه إلى إقليم اذربيجان ليؤكد سيطرة السلاجقة عليه، فدخل تبريز، ومد بحدوده إلى بلاد الروم، حتى حاصر (ملاذكرد) وضيق عليها ونهب ما جاورها من البلاد وأخرجها وما زال في غزوته حتى بلغ أرزن الروم.

ويلاحظ أن السلاجقة منذ أول أمرهم اتجهوا إلى الثغر الرومي، وبدأوا يصبغون حركتهم بصبغة الجهاد الديني، فوجهوا القبائل الغزية التي وفدت عليهم في الجهات الغربية من إيران إلى قتال الروم والتوسع في بلادهم منذ عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م على يد إبراهيم اينال. ومنذ ذلك التاريخ اصطدم السلاجقة بالروم، وتولوا عن العالم العربي الإسلامي أمر الثغر الرومي، ولم تكن حروبهم حروب كر وفر ثم عودة إلى خط الثغور، وإنما كان اتجاه فتح وامتلاك، فقد اقتطعوا جزءاً من آسيا الصغرى وأقام به فرع من السلاجقة عرف باسم سلاجقة الروم وبدخول السلاجقة أسيا الصغرى على هذا النحو مهدوا لقيام الدولة العثمانية التي قامت على يد قبيلة غزية تركية، كتب لها أن تقضي بعد ذلك على بيزنطية وتوغل في أوروبا.

في عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م كان طغرلبك قد فرغ منم فتح إيران وبسط نفوذ السلاجقة عليها وعلى بعض البلاد المجاورة لها. وبذلك اطل على العواق فأخذ يستعد للسيطرة عليه.

الفصل الثالث: السلاجقة في العراق:

أولاً دخول السلاجقة للعراق وأسباب ذلك:

في الوقت الذي كان السلاجقة يثبتون مراكزهم في خراسان تقهقر الغزنويون باتجاه الركن الجنوبي الشرقي من العالم العربي الإسلامي، ثم اتسعوا غرباً ليضموا أقاليم إيران جميعاً. كان النفوذ البويهي يتهاوى أمام ضربات معاول الهدم التي تتوالى على بنيانه المتداعي فالخلافات بين رجال البيت البويهين تمزق حكمهم وتبدد قوتهم في صراعات أسرية، وفروع البويهيين في أقاليمهم يعمل كل واحد منهم منفصلاً عن الآخر بل يسعى بعضهم لقهر بعض والاستيلاء على ما بيده، وحتى في الوقت الذي داهمتهم القوات السلجوقية الزاحفة، لم يتكتلوا أمام الخطر الذي يهددهم جميعاً، بل نراهم منشغلين في خلافاتهم بقلم بعضهم أظفار بعض، ويتيحون بذلك للسلاجقة فرصة اخذ ما بأيديهم غنيمة هنية، فلم تلبث أقاليم الجبال وما وراءها غرباً أن سقطت أمام زحف طغرلبك. كما سقطت الأقاليم الجنوبية والوسطى من إيران في يد قواته كما رأينا من قبل. ولم يبق في يد بويه غير العراق، فكان يموج بالفتن بين الكتل المختلفة من الجند الديالمة والأتراك كما يعمه الاضطراب بسب الخلافات العنصرية.

وكانت مشكلة البويهيين الأخرى إلى جانب خلافاتهم الأسرية، وجود الكثير من الجند الأتراك في جيوشهم، وهؤلاء جماعة قد تستخدم الدولة في حالة قوتها وحزم ملوكها، ولكنها تكون من أشد الأخطار على كيانها إذا ما دب الضعف فيها أو إذا ما تنازع رجال البيت الحكم فيما بينه. وقدر رأينا مثلاً لذلك

في حالة الخلافة العباسية قبل عصر بني بويه، فقد خدم الأتراك الدولة في عصر قوتها أيام الخليفة المعتصم وابنه الواثق. ثم في عهد انتعاش الخلافة على يد الموفق وابنه المعتضد ولكنهم حين أحسوا من الخلافة ضعفاً ورأوا في البيت العباسي تفككاً بعد الواثق سيطروا على الشؤون العامة في دار الخلافة وأهانوا الخلفاء واستبدوا بهم واربكوا الدول بجشعهم وتسلطهم ولقد تكررت المأساة في أواخر العصر البويهي، لم يتمتع المتأخرون من ملوك بني بويه من نفاذ البصيرة وبعد نظر لكي يتحاشوا به ما وقعت فيه الخلافة من قبلهم فاستكثروا من الأتراك في جيوشهم وكان أخطر ما في الأمر أن الجند البويهيين كانوا من الديلم، وبين الديلم والترك عداء تقليدي لذلك دب الشقاق بين الفريقين ولم يتخذ البويهيين سياسة حكيمة لإزالة الجفوة بين الطرفين وإنما لجأوا إلى السياسة الهدامة وهي محاولة ضرب كل فريق منهما بالأخر، والوقوف في موقف التوازن بينهما فيقربون هذا الفريق حتى إذ أحسوا منه تغلباً، قربوا الفريق الآخر، ففي حوادث ٣٧٩هـ يشير ابن الأثير أنه وقعت الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم واشتد الأمر ودام القتال بينهم خمسة أيام، وبهاء الدولة في داره يراسلهم في الصلح فلم يسمعوا قوله، وقتل بعض رسله ثم أنه خرج إلى الأتراك وحضر القتال معهم فاشتد وأرسل الديلم، فاستقر الحال بينهم وحلف بعضهم لبعض وكانت مدة الحرب اثني عشر يوماً ثم أن الديلم تفرقوا فمضى فريق بعد فريق وأخرج بعضهم وقبض على البعض فضعف أمرهم، وقويت شوكة الأتراك واشتدت حالهم.

وحينما توسع السلاجقة ووصلت أخبار توسعهم ونفوذهم في العراق، كان أبو الحارث البساسيري قائد الأتراك يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة

تامة، ولم يكن الخليفة أو الملك البويهي (الملك الرحيم) يملكان شيئاً أمام قوة هذا القائد وجنوده وكانت الأحوال تنذر بالخطر على الدولة البويهية وعلى الخلافة العباسية نفسها فأما الدولة البويهية فكانت كل أملاكها في إيران قد ضاعت منها وسقطت في يد السلاجقة وأصبحت مهددة في العراق نفسه، ولم يكن الملك الرحيم على وفاق مع قائده جنده وهو الباسيري الذي استبد بالسلطة واستفحل أمره ببغداد حتى أصبح لا يقطع أمراً دونه ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه، وصار يشرف على ما يدخل بيت المال من الإيراد.

أما الخلافة العباسية فقد كانت مهددة بالنفوذ الفاطمي الذي وصل إلى أعالي الشام وأطل على مشارف العراق حين استولت القوات الفاطمية على حلب عام ٤٤١هـ /١٠٤٩م، ومما زاد في خطورة وضع الخلافة تقرب بني بويه من الفاطميين واعتناق عدد كبير من عسكر البويهيين والأتراك والديلم للمذهب الفاطمي، وميل البيساسيري نفسه إليهم وانحيازه لهم بعد أن ساءت علاقته بالخليفة القائم بأمر الله.

والحقيقة أن البساسيري لم يعد مجرد رئيس فرقة من الأتراك بل أصبح المنفذ المطلق في شؤون العراق وصار يلقب (بكافل الخلافة) وطارت شهرته وخطب له من على المنابر في العراق والأهواز وجبيت له الأموال لهذا حاول الخليفة تطبيق سياسة فيها كثير من الذكاء وبعد النظر تلك هي اصطناع شخصية وتقليدها بعض المسؤوليات كي يتمكن عن طريقها التقلص من نفوذ البساسيري وبالتالي ضربه لاسيما وان ظروف البويهيين السياسية آنذاك كانت مشجعة ومساعدة لمثل هذه الخطوة. ولقد وجد في شخصية أبي القاسم بن مسلمة ما يطمع فيه فعينه وزيراً ومنحه الألقاب الفخمة مثل (رئيس الرؤساء)

و(جمال الورا ومشرف الوزرا) وأعطاه صلاحيات سياسية وإدارية إذا فليس من الغرابة بمكان أن تتصادم الخاصة وتزداد الحزازات الشخصية ويظهر مجال الحقد والحسد والكراهية بين الطرفين وبصورة سريعة فالبساسيري سيد البلاد وصاحب السلطة والنفوذ آخذ يشعر بان تعيين ابن مسلمة لم يكن أمراً اعتباطيا بل ضربة مباشرة موجهة ضده.

ويتضح هذا بقوله قالها الباساسيري مره إلى الخليفة ما أشكو الأمن رئيس الرؤساء الذي خرب البلاد واطمع الغز وكاتبهم".

ومما زاد في نفوز الخليفة القائم بأمر الله من البساسيري وحمله على الحد من نفوذه أن رئيس الرؤساء (وزير الخليفة ابن مسلمة) أشاع أن البساسيري كان يراسل اليازوري وزير المستنصر بالله الفاطمي بمصر مستهدفاً خلع القائم بأمر الله، فلما تحقق عند الخليفة صحة ما نسب إلى البساسيري، أرسل إلى الملك الرحيم يخبره بأن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء وان للخليفة على الملك عهوداً وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره" فأبدى الملك الرحيم استعداده لأبعاد البساسيري في بغداد ويبدو أن الأخير كان قد وقف عن ما تضمنته رسالة الخليفة فبادر بالرحيل عن بغداد إلى الحلة حيث نزل على أميرها دبيس بن مزيد، ثم اضطر إلى الرحيل عنها إلى مدينة الرحبة في بلاد الشام بعد دخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧هـ/١٠٥٤. كان من نتائج هذه الأحداث التي جرت في عاصمة الخلافة بغداد وأن عجلت في تدخل السلاجقة في شؤون العراق وبالتالي السيطرة على مقاليد الأمور فيه. ويؤيد ذلك ابن الأثير حين قال" كانت

هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرلبك العراق، والقبض على الملك الرحيم".

ومما زاد في اندفاع السلطان السلجوقي وتصميمه على احتلال العراق وإزالة كل خطر قد يأتي من قبل البويهيين أنه في محرم من عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م قام فولاذ أحد قواد البويهيين بالهجوم على شيراز والاستيلاء عليها وقطع الخطبة فيها للسلطان طغرلبك وخطب باسم الملك الرحيم وبالرغم من عدم إغفال ما لهذه الأحداث من أهمية في اندفاع السلاجقة نحو العراق والسيطرة عليه إلا انه في الوقت نفسه لا يمكن تجاهل العوامل الأخرى ألا وهي أطماع السلاجقة السياسية والاقتصادية في أرض العراق.

وفي العام نفسه (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) كانت جيوش السلاجقة على أتم استعداد لدخول العراق، فقد فرغ طغرلبك من أعماله في ضم كل أقاليم إيران واطمأن إلى أحوال دولتهم بها فبادر بالعودة من الري في ذلك العام إلى همذان واظهر أنه يريد الحج، وأصلح طريق مكة، ومن ثم التوجه إلى مصر لإزالة المستنصر بالله الفاطمي. كما انه أرسل الأوامر إلى أصحابه بالدينور وفرسيسين وحلوان وغيرها من الأعمال يأمرهم بتأمين ما تحتاجه عساكره من الأقوات والعلوفات ثم تقدم بقواته عن طريق حلوان، وهو الطريق السهل الذي يوصل بشكل سريع إلى قلب العراق.

وكان الملك الرحيم آنذاك مقيماً في واسط ولكنه غادرها إلى بغداد عندما كتب الخليفة يستدعيه للحضور لتلافي أمر البساسيري فوصلها في منتصف رمضان عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م.، واتفق مع الخليفة على أن يخطب لطغرلبك على منابر العراق على أن يذكر بعده اسم الملك الرحيم سلطان الدول البويهي

كما تقرر أن يبذل أصحاب الملك الرحيم الطاعة إلى السلطان السلجوقي، وخطب لطغرلبك ببغداد يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ولقب بالسلطان ركن الدولة أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل الساعد الأيمن لأمير المؤمنين والمدافع عن العقيدة وحامي الخلافة وحين وصل موكب السلطان إلى النهروان أرسل يستأذن الخليفة دخول بغداد فأذن له وكان يرافق السلطان وزيره عميد الملك أبو نصير الكندري فخرج وزير الخليفة (رئيس الرؤساء) لاستقباله ومعه أرباب المناصب وأصحاب المراتب، وقاضي القضاة والشهود والجنود والنبوة فأرسل طغرلبك وزيره أبا نصر الكندري في جماعة من الأمراء ليكون في استقبالهم، ووصل رئيس الرؤساء إلى السلطان وابلغه رسالة الخليفة واستقبالهم له والملك الرحيم وأمراء الأجناد، وفي اليوم الخامس والعشرين من رمضان عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م دخل طغرلبك بغداد ونزل بباب الشماسية.

لم يجد الملك الرحيم سبيلاً إلى المقاومة بعد أن فارقه قائد جنده، فاعترف بالأمر الواقع واصبح تابعاً للسلطان السلجوقي ومع أن الملك البويهي قبل أن يكون تابعاً فان السلطان السلجوقي. لم يشأ أن يبقى إلى جانبه أحد ينافسه أو تخشى مغبة وجوده فأمر بالقبض على الملك الرحيم وأرسله مقيداً إلى الري على الرغم من العهد الذي أعطاه له ولأصحابه وعلى الرغم من تأييد الخليفة له، ويبدو أن طغرلبك أراد التخلص من الملك الرحيم بتحريض العامة ببغداد ومهاجمتهم لعسكر لسلطان فأسقط اسمه من الخطبة في آخر رمضان عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وقضى بذلك على آخر أمل للبويهيين في الحكم وأسدل الستار على دولتهم لتحل محلها الدولة السلجوقية.

ثانياً: موقف الخليفة القائم بأمر الله من السلاجقة:

إن التدهور الاقتصادي والسياسي والاضطرابات الاجتماعية التي سادت الفترة التي سبقت دخول السلاجقة العراق، دفعت الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن يفكر جدياً بالتخلص من السيطرة البويهية ويمكن ألان نتلمس ذلك من دراسة كتاب (الأحكام السلطانية) للفقيه الماوردي حيث يكشف لنا محاولات الخليفة لاستعادة سلطته والظاهر أن الخليفة أمر الماوردي بتأليف كتاب يكون دليل عمل نظري أو منهجاً للإدارة العباسية بعد استقلالها مبيناً فيه واجبات الخليفة وأبعاد سلطته المغتصبة منبهاً على ضرورة مراقبة الأمراء مسوغاً الثورة عليهم عندما لا تتفق أعمالهم والسنة بوجه خاص موضحاً شرعية الاستعانة بالآخرين لوضع حد لإمارتهم.

أن توجه الخليفة القائم بأمر الله لإنهاء سيطرة البويهيين رافعة مراسلات وتبادل الوفود الدبلوماسية بين الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي طغرلبك تم الاتفاق خلالها على بعض الأمور المهمة منها:

١- صون الخلافة والحفاظ على هيبتها.

٢- الإبقاء على الملك البويهي (الملك الرحيم) لفترة من الوقت لحين مغادرته بغداد.

٣- الحفاظ على الأمن والنظام في الداخل.

وبعد دخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م نجد أن العلاقات بين الخليفة وطغرلبك أخذت تتسع وتتعمق وتتوثق خاصة بعد أن أمر الخليفة بمخاطبة طغرلبك (ملك المشرق والمغرب) أي المسؤول السياسي والعسكري

عن دعم الخلافة العباسية والحقيقة أن الخليفة العباسي كان يهدف من وراء ذلك ضرب خصومه السياسيين في مصر وبلاد الشام وهم الفاطميون والقضاء على النفوذ البويهي الفارسي في كل من العراق وإيران وأخيراً توج الخليفة القائم هذه العلاقات بالزواج من (ارسلان خاتون خديجة) ابنه جفري بك أخي طغرلبك.

وكدأب المتسلطين الأجانب لم تكن مواقف السلاطين السلاجقه الجدد تختلف كثيراً عن سابقيهم فمنطق السيطرة والاستبعاد والاستغلال كان دائماً هو المنطق بحكم تصرفات المتسلطين. فقد أثارت تصرفات السلطان طغرلبك في نفس الخليفة الشك والريبة حين اعتقل الملك البويهي الرحيم دون أخذ الإذن من الخليفة القائم. فقد عد الخليفة هذا التصرف تحدياً وإهانة موجهة إليه وقد عبر الخليفة عن استيائه البالغ لهذا الحادث وأرسل إلى السلطان ينكر عليه ذلك ويهدده بمغادرة بغداد وقال، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريعة يزداد، وحرمة الحريم تعظم وأرى الأمر بالضد وقيل أن السلطان اكتفى بإطلاق سراح بعض أصحاب الملك الرحيم وصادر اقطاعاتهم فتوجه معظم إلى البساسيري وانحازوا إليه.

كذلك أمر طغرلبك بمصادرة أموال الأتراك البغداديين وانتشر السلاجقة في نواحي بغداد فكثرت أعمال النهب والتخريب وأسرفت عساكر السلطان في ذلك فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل – وهي بلدة على الفرات بين بغداد والكوفة– ومن الشرقي إلى النهروان واسفل الأعمال وخرب السواد وأجلى أهله عنه.

ولم يكتف السلطان بمصادرة أموال الملك الرحيم وأمر الأجناد بل امتدت يده إلى أموال الخليفة نفسه، فبينما كان القائم بأمر الله مستغرقاً في أحزانه التي سببتها وفاة ولده وولي عهده محمد في أواخر عام ٤٤٧هـ أرسل السلطان وزيره عميد الملك الكندري إلى الخليفة وهو في مجلس العزاء يطلب أموالاً فلما استعظم الخليفة مقدارها، أشاروا عليه بأن يطلق يده في أموال الحريم، فعظم ذلك على القائم بأمر الله وأجاب على رسل السلطان بأن مال الحريم ما زال مصوناً وقد جرى فيه ما رأينا مكافأته في ولدنا.

ونتيجة لهذه الأحداث والتصرفات التي بدأها السلاجقة اتجاه الخليفة القائم أن جعلت العلاقات تمر بفتور حتى قيل أن السلطان السلجوقي مكث اكثر من ثلاثة عشر شهراً دون أن يحظى بمقابلة الخليفة العباسي،ويبدو أن السلاجقة أحسوا بذلك الفتور الذي طرأ على العلاقات القائمة بينهم وبين الخليفة فأرادوا توثيق هذه العلاقات وإعادة الثقة إلى نفس الخليفة العباسي. في الوقت نفسه حاول الخليفة أن يعلي من هيبة الخلافة فاصدر الأوامر إلى السلطان طغرلبك بالمسير إلى بلاد الشام لإقامة الخطبة له على منابر الإسلام هناك. وقيل أن السلطان أجاب بأنه أمر العساكر أن يتجهزوا ويبعثوا بإحضار خركاواتهم (أي خيامهم) وأولادهم وأهلهم ليتوجهوا معه إلى بلاد الشام.

وعلى أية حال فان السلاجقة قنعوا في هذا العصر بأن يحكم العراق نواب من قبلهم يتمتعون بسلطات عسكرية وإدارية واسعة ووضعوا تحت تصرفهم حامية من الجند السلاجقة لضمان سيطرتهم التامة على هذا الإقليم وفوض إلى هؤلاء النواب أمر ضمان مدن العراق وإرسال الأموال إلى خزنة

السلطان، هذا ولم يتخذ السلاجقة بغداد مقراً لحكمهم كما كان الحال فـــي عـــهد بعض أمراء بني بويه.

الفصل الرابع: الخلافة العباسية والسلاجقة:

أولاً: الأسرة السلجوقية بعد وفاة السلطان طغرلبك:

حين مات السلطان طغرلبك عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م لم يكن له وريث يرث عرش السلطنة من بعده، فبرزت مشكلة ولاية السلطنة بعد وفاته، وأصبحت مثار التنافس بين أفراد الأسرة السلجوقية.

وكان أخوه جفري بك قد توفي من قبله في عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م تاركاً عدداً من الأبناء كان أكبرهم الب ارسلان الذي خلف أباه في حكم خراسان وما وراء النهر وكان على حكمها حيث مات عمه عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م وكان طبيعياً أن يعد ألب ارسلان نفسه أحق أفراد الأسرة السلجوقية بعرش السلطنة كما كان له وزير قوي النفوذ عظيم الكفاية هو أبو علي حسن ابن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك وكان هذا الوزير على ما يبدو واسع الطموح يرغب في أن يكون وزيراً لسلطان السلاجقة وكان طغرلبك قد تزوج بأرملة أخيه جفري بك بعد موته ولها ابن منه يسمى سليمان فاستطاعت أن تؤثر في السلطان حتى اختار ابنها ولياً للعهد بالرغم من صغر سنة، ونفذ وزير طغرلبك أبو نصر الكندري وصيه مولاه، فأجلس سليمان على عرش السلطنة بمدينة الري وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه.

لم يقبل الب ارسلان سلطنة أخيه الأصغر، فصمم على السير إلى الري، ولقي تصميمه هذا هوى في نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقي فاختاروا جانبه، بل أن بعضهم نادى به سلطاناً وخطبوا له في قزوين باسم عضد الدولة ألب ارسلان محمد بن داود جفري بك وخشي الكندري مغبة الأمر، فانضم إلى

ألب ارسلان وأمر بان تقرأ الخطبة باسمه في الري وبأن يكون سـليمان وليـاً لعهده. وبذلك استتب الأمر للسلطان آلب ارسلان في ذي الحجة عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م واعترف به رئيساً للبيت السلجوقي وسلطاناً على السلاجقة.

لكن أميراً سلجوقياً آخر رأى أنه أحق بالسلطان هو (فتلمش بن إسرائيل) ابن عم جفري بك وسار إلى الري بقواته واستولى عليها وأعلن نفسه سـلطاناً على السلاجقة هو الآخر فأسرع عندئذ ألب أرسلان ومعه وزيره نظام الملـك إلى الري على رأس جيش كبير والتحم مع فتلمش في معركة طاحنة بـالقرب من مدينة الري انتهت بانتصار الب ارسلان وقتل فتلمش ودخل الب ارسـلان الري عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م.

وفي الوقت الذي أخذت فيه أوضاع السلاجقة في السير نحو الاسـتقرار خلال عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥ ظهرت مشكلة جديدة أخرى يقودها عم السـلطان الب ارسلان المدعو (بيغو) الذي كان حاكماً على هراة، والذي عـز عليـه أن يكون تابعاً لأبن أخيه، فأعلن العصيان وحاول الاستقلال بالمناطق الخاضعـة لحكمه، فأدرك الب ارسلان أن عليه أولاً أن يثبت أركان حكمه في جميع أجزاء دولته، بتأديب المتمردين وإقرار هيبة السلطان في كل أنحاء الدولة، حتى يتجـه إلى تحقيق أهدافه في التوسع لذلك توجه نحو هراة فقاتل عمه (بيغو) والحق بـه هزيمة عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م جعلته يتعهد بعدها بإطاعة السلطان وانتهز الـب ارسلان فرصة وجوده في إيران فقام بتأديب كل من تخشى ثورتهم من الأمراء التابعين للسلاجقة، فأعاد بذلك الأمن إلى نصابه في جميع أنحاء خراسان ومـا وراء النهر، ثم رجع إلى مدينة نيسابور ثم أخذ بعد ذلك يتفقد أجـزاء دولتـه المترامية الأطراف، وقد استغرقت هذه الجولة نحو خمس سنوات أقـر فيـها

الأمن في كل البلاد التي دخلت تحت نفوذ السلاجقة وقبل أنه فوض إمارة خوارزم إلى ولده ارسلان ارغون ثم أخذ العهد من أمراء دولته بولاية العهد من بعده لابنه ملكشاه وخلع على الأمراء وأمرهم بالخطبة لولده في جميع البلاد الخاضعة له.

وبعد انتصار السلطان الب ارسلان في معركة ملاذكرد ضد البيزنطيين توجه عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٥م إلى الشرق لقمع فتنة قام بها الألخانيون حلفاؤه فعبر نهر جيحون وهاجم القلاع الثائرة واستولى عليها ولما قبض على قائدها وكان يسمى يوسف الخوارزمي أراد السلطان أن يقتله بنفسه لشدة عناده وشتمه للسلطان ولكن هذا هاجمه بسكين كان يخفيها وطعنه طعنة قاتلة مات منها بعد أيام ودفن في مدينة مرو بعد حكم دام تسعة أعوام ونصف تقريباً.

تولى عرش السلاجقة بعد مصرع ألب ارسلان ولده وولي عهده ملكشاة الذي كان يرافق أباه في حملته ضد الالخانين فلما قتل عاد إلى نيسابور في ربيع الآخر عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ واعتلى عرش السلطنة.

وفي بداية حكمه واجه ملكشاه مشكلة التنافس على العرش التي أثارها عمه قاورد الذي كان يرى انه أحق بالسلطنة من أبن أخيه فبادر بالمسير إلى الري وأرسل إلى ملكشاه يقول: أنا الأخ الكبير وأنت الولد الصغير وأنا أولى بميراث أخي لسلطان الب ارسلان".

وحاول نظام الملك إقناع قاورد بترك العصيان حقناً للدماء إلا أن قاورد أصر على موقفه ظناً منه أن عساكر ملكشاة سوف تنحاز إلى جانبه عند اللقاء باعتباره الأخ الأكبر للسلطان الب ارسلان ونجح ملكشاة ونظام الملك في دخول

الري قبل وصول قاورد واستعد للقائه، ودارت الحرب بينهما بظاهر همذان في شعبان من عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م فانهزم بقتله وأقر كرمان بيد أولاد عمه قاورد وأهدي إليهم خلعاً أقر بها عيونهم واستمال قلوبهم وعاد إلى الري.

ارتفعت منزلة الوزير نظام الملك بعد هذه الموقعة فرد السلطان الأمور كلها إليه وأقطعه طوس مسقط رأسه، وأفاض عليه بالخلع ولقبه ألقاباً من جملتها لقب (أتابك) ومعناه الأمير الوالد.

ويبدو أن نظام الملك وأولاده قد استغلوا هذه المكانة والمنزلة التي حباهم بها السلطان السلجوقي فهيمنوا على مقاليد الأمور في الدولة حتى انهم تجاوزوا كل حدود ما دفع السلطان ملكشاه إلى أن يوجه رسالة إلى وزيره يطلب فيها وضع حد لمثل تلك التصرفات جاء فيها: "إن كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم وأن كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلتزم حد التبعية والنيابة وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيرة.

ولما وصلت رسالة السلطان إلى نظام الملك كان رده منبئاً عن اعتداده بنفسه واستمساكه بمركزه وكان يحمل من التهديد للسلطان اكثر مما كانت تحمل رسالة السلطان له.

وحين أحيط السلطان علماً بقول نظام الملك لم يجرؤ على عزله من شدة حفيظته عليه، وإنما سلك طريق المؤامرة للإيقاع به دون أن تثور من وراء ذلك فتن وقلاقل حتى تم قتله عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

ولم يعمر السلطان طويلاً بعد نظام الملك فقد توفي بعـد ذلـك بخمسـة وثلاثين يوماً بعد زيارة قام بها إلى بغداد في نفس ذلك العام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وقيل انه مات مسموما بتدبير من (خردك) أحد اتباع نظام الملك وبموت نظـام الملك والسلطان انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم ولم تعد الدولة في هـذا العهد تخضع لسلطان واحد، بل كان يتنازعها أكثر من سلطان في وقت واحـد، ولم يعدهم أمراء السلاجقة نصرة الإسلام وتوسيع أملاك السلاجقة وإنما كـان همهم القضاء على بعضهم حتى يخلو الجو للمنتصر منهم ومن ثم وقعوا فـي حروب أسرية أدت إلى إضعافهم جميعاً وسقوطهم آخر الأمر.

برزت مشكلة التنافس على العرش بعد وفـاة ملكشـاه وكـان التنـافس منحصراً بركيارق الابن الأكبر لمشلكاه يؤيده اتباع نظام الملـك وبيـن أخيـه الأصغر محمود وابن تركان خاتون يناصرها الوزير تاج الدين الشيرازي الذي خلف نظام الملك في منصبه.

ثانياً: جهود الخلفاء العباسيين في استعادة هيبة الخلفاء:

ظهرت في بداية دخول السلاجقة عام ٤٤٧هـ/١٠٥٤م بادرة أول عـدم وفاق بين العباسيين والسلاجقة فكما ذكرنا سابقاً أن الوزير العباسي بناء علـى أوامر من الخليفة العباسي القائم كان قد خرج في موكب عظيم مـن القضـاة والنقباء والأشراف واعيان الدولة لمقابلة السلطان السلجوقي طغرلبك وإبلاغـه رسالة الخليفة من أن الوزير استحلف السلطان طغرلبك للخليفة والملك الرحيـم ولأمراء الأجناد ولكن طغرلبك عندما دخل بغداد ألقى القبـض علـى الملـك الرحيم، وحدثت في بغداد حوادث اضطرابات ونهبت بعض المحـال العامـة،

فعظم الارجاف ببغداد، وفت في أعضاد الناس وشغب الأتــــراك فـــي بغـــداد، وقصدوا ديوان الخلافة مما أدى إلى غضب الخليفة واستيائه من الحالة الجديدة. إذ يبدو أن الخليفة كان يتوقع عكس ما حدث وما جرى لذا نـــراه يكتــب إلـــى السلطان طغرلبك رسالة ينكر فيها ما حدث للمكل الرحيم وأصحابه ونهب بغداد ويقول الخليفة في رسالته: إنما خرجوا إليك بأمري وأماني فأنا أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً منـــي أن تعظيــم الأوامــر الشريفة تزداد وحرمة الحريم تعظم وارى الأمر بالضد".

هذه هي البادرة الأولى في بداية الخلاف أو أنها بداية الشك في إخـــلاص السلاجقة وسوء نيتهم وصدق من قال: " لم يترك الـــترك ورداً إلا شـــفوه، ولا حسناً إلا شفوه، ولا ناراً إلا أرشـــوها، ولا داراً إلا شـــعثوها ولا عصمـــة إلا رفعوها ولا رحمة إلا وضعوها، أجفل الملوك من خوف أقدامهم وتنحوا عـــن طريق ضرامهم، فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها ومالؤوا مالكها وأرعبـــوا ساكنيها. وأسكنوها الرعب، وغلبوا ولاتها وولوها القلب".

كانت الظروف المحيطة بالخليفة العباسي القائم بأمر الله ســيئة ومعقــدة فالأخطار تهدد الخلافة وأعظم تلك الأخطار تمرد أبي الحــــارث البساسـيري ودعوته للفاطميين حكام مصر هذا بالإضافة إلى تردي الأوضاع الاقتصاديـــة والسياسية والاجتماعية في البلاد في ظل البويهيين، مما دفع الخليفة إلى اللجوء إلى قوة السلاجقة كمحاولة للخروج من تلك المحن وإعادة قوة الخلافة وهيبتها.

هكذا شعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بان لا حول له ولا قــوة إذا أن السلاجقة هيمنوا على كافة الأمور في البلاد بما فيها الموارد المالية، التي ربمـــا

قد تساعده في اتخاذ أي إجراء ضد السلاجقة. فقد ذكر أن طغرلبك أمر أن تنقل موارد العراق المالية إلى خزانته بدلاً من خزانة الخليفة.

وقد ساءت العلاقة بين الخلافة والسلاجقة إلى الحد الذي أخذ فيه السلاجقة يتطاولون فيه على الخلافة متمثلة في شخص الخليفة نفسه في أحداث عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م حصلت جفوة بين السلطان ملكشاه والخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧هـ-٤٨٧هـ) فبعث ملكشاه إلى الخليفة يقول له" " لا بد أن تترك بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً وبدأت أمارات الضعف على الخليفة وراح يتوسل إلى السلطان ملتمساً منه أن يمهله شهراً ولكن السلطان كان شديداً على الخليفة حيث أجابه: " لا يمكن أن تؤخر ساعة، ثم التجأ الخليفة إلى وزير السلطان وطلب منه أن يسأل سلطانه بتأجيل موعد خروجه من بغداد عشرة أيام ليتسنى له الاستعداد للرحيل. ولم ينجح الخليفة من هذه المحنة إلا بموت السلطان قبل نهاية المدة.

وفي عهد الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧هـ/ ٥١٢م) بدأ الصراع يدب بين أفراد الأسرة السلجوقية، وقد لعب الخليفة دوراً كبيراً في تعميق ذلك، فكان يستجيب لكل غالب منهم فيصدر له الاعتراف بالسلطنة وتخطب له، وقد يعترف بأكثر من واحد في وقت واحد. وهو بذلك يرقب الفرصة لاستعادة هيبة الخلافة إلا أن موته حال دون ذلك.

شهدت الفترة التي أعقبت وفاة الخليفة المستظهر، نشاطاً ملحوظاً في الكفاح والنضال من أجل اسعادة هيبة الخلافة، والعمل على التخلص من الحكم السلجوقي الذي طغى في البلاد فالخليفة الجديد المسترشد بالله (٥١٢هـ/ ٥٢٩هـ) وصف بأنه فحل بني العباس ونجيبهم وفاضلهم وأشجعهم.

فقد عاصر الخليفة الجديد الانقسامات التي ابتليت بها الأسرة السلجوقية والنزاعات الشديدة فيما بينهم من اجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ أضف إلى ذلك أنه أحس بالظلم والآلام التي كان يعاني منها العراقيون بصورة عامة والخلافة بصورة خاصة من حكمهم المضطرب والتدخل السافر في شؤونهم وقد عبر الخليفة عن أحاسيسه هذه بقوله: " فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون".

أتاحت هذه الظروف للخليفة الجديد العمل على استعادة نفوذ الخلافة وتدعيم مركزها فشرع أولاً في محاربة أمير الحلة دبيس بن صدقة نظراً لما كان يثيره من قلق واضطراب لمجاورته بغداد، ولحماية الخارجين على الخلافة فقد ورد أن أبا الحسن بن المستظهر أخو الخليفة كان قد لجأ إلى دبيس بن صدقة بالحلة، فقدم له دبيس كل الحماية والمساعدة ومن ثم شجعه على الاستيلاء على واسط وما جاورها ثم أعلن نفسه خليفة ولقب بالمستنجد بالله. وفي عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م أطلق أمير الحلة، عفيفاً خادم الخليفة وكان مأسوراً عنده وحمله رسالة فيها تهديد للخليفة بإرساله الجند لقتاله وتخريب بغداد فانتهزها الخليفة فرصة لإظهار بأس الخلافة فجهز الجيوش وسار على رأسها لحرب دبيس وبهذا الخصوص يذكر المؤرخون "أن الخليفة حين استدعى العساكر، احتشد لديه جموع هائلة من بينهم الأمير سليمان بن مهارش أمير حديثة فيمن معه من بني عقيل وقرواش بن مسلم.

تمكن الخليفة من إنزال الهزيمة بدبيس وألجاه إلى الفرار حتى استقربه الأمر عند الملك طغرلبك بن السلطان محمد وعاد الخليفة إلى بغداد مظفراً منصوراً.

وليجعل الخليفة بغداد مستعدة للحرب قادرة على الصمود أمر ببناء سور بغداد، ويعد هذا من الإعمال الجليلة للمسترشد، وسيحمي هذا السور بغداد من الغارات والاعتداءات كما شرع في التدخل في شؤون السلطنة متظاهراً بالدفاع عنها عاملاً على إصلاح شانها فبعد وفاة السلطان محمد ظهرت عدة قوى سلجوقية تنازع السلطنة.

وحتى بعد هيمنة السلطان سنجر على الأمور فان النزاعات لم تنته ومع أن الخليفة امتثل لأمر السلطان محمود عام ٥١٦هـ/١١٢٢م بان يجعل أخا عثمان بن نظام الملك (وزير السلطان) وزيراً له فإنه في عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م عزله وأعاد وزيره السابق. وفي عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م عندما صمم السلطان محمود على السير إلى بغداد لمحاولة السيطرة على سلطة الخليفة المتزايدة فان الخليفة حاول أن يؤخر مجيئه معتذراً بعدة أسباب وحينما رفض السلطان ذلك ترك الخليفة يعد جيشاً لملاقاته كما انه عندما توفي السلطان محمود عام ٥٢٥هـ/١١٣٠م طالب كل من الملك مسعود بن محمد والملك داود بن محمود الخليفة بان يذكر أسمها في الخطبة إلا أنه منعه وقال أن الحكم في الخطبة يعود إلى السلطان سنجر.

والحقيقة أن الخليفة كان يهدف من ذلك إرباك أوضاعهم السياسية وزيادة الشقاق بينهم ثم إرضاء السلطان سنجر الذي كان يقطن في خراسان بعيداً عن مركز الخلافة وفي عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م بلغ العداء حده الأقصى بين الخليفة والسلطان مسعود، فيقطع الخليفة خطبة السلطان مسعود في بغداد وبالإضافة إلى ذلك فانه جمع الجيوش وسار إلى محاربته. ولكن الخيانة وقعت في جيشه الذي كان يضم عدداً من أمراء السلاجقة ورجالهم.

وهكذا سقط المسترشد شهيداً وأول خليفة عباسي خرج مجاهداً منذ العهد البويهي من أجل استقلال الخلافة وأعادة هيبتها، فكان خير مثال يحتذيه الخلفاء من بعده، وقد سار الخلفاء على نهجه في مقاومة السلاجقة وأضعاف نفوذهم.

تولى الخلافة بعد المسترشد ولده الراشد بالله عام ٥٥٩هـ/ ١١٣٤م. وقد كانت خلافة الراشد امتداداً للمجابهة التي بدأها أبوه ضد السلاجقة ومنذ أن تولى الخلافة وهو يحمل للسلاجقة العداء والكراهية ويسعى إلى الثأر من الذين فتكوا بوالده كما اخذ يعمل على تكوين حلف قوي يواجه به السلطان مسعوداً الذي أصبح له نفوذ عظيم بعد مقتل الخليفة المسترشد بالله وكانت الشرارة التي أدت إلى احتكاك الخليفة الراشد بالله بالسلطان مسعود السلجوقي هو عندما طالب الأخير الخليفة بمبلغ كبير من المال مقداره أربعمائة ألف دينار. فقد عد الخليفة مثل هذا الطلب االإهانة موجهة إليه شخصياً لذا امتنع عن تقديم مثل ذلك المبلغ ووقف موقفاً حازماً إزاء ما عزم عليه رسول السلطان في التهجم على دار الخلافة وتفتيشها.

واتصل الخليفة بالملك داود بن محمد صاحب أذربيجان وتعاهد معه على حرب السلطان مسعود واتفقا مع عماد الدين زنكي صاحب الموصل على الغرض نفسه وانضم إلى حلفهم أطراف كثيرون ثم قام الخليفة بقطع الخطبة لمسعود في العراق والخطبة إلى داود لذلك اضطر مسعود إلى التوجه نحو بغداد، فحدث اضطراب في بغداد ولما وصل مسعود إلى أطراف بغداد قام بحصارها، فعاث العيارون في بغداد، وأحدثوا فيها الفوضى فأفسدوا على الخليفة كل تنظيماته وخططه ومما زاد في الطين بله أن بعض الأمراء المحالفين للخليفة قد تخلوا عنه، مما أضطر الخليفة إلى مغادرة بغداد في صحبة

عماد الدين زنكي إلى الموصل تاركاً بغداد لمسعود، وانهزم داود إلى بلاده كعادة كل متسلط غازي.

إلا أن الخليفة الشرعي الراشد بالله لم يلق السلاح بل كون حلفاً مع أمير الموصل عماد الدين زنكي وبعض الأمراء الآخرين، واتفقوا على حرب مسعود فلما أحس مسعود بتجمعهم ونشاطهم سار لقتالهم إلا انه مني بهزيمة كبيرة وأسر كل أمير كان معه، فقتلوا جميعاً وعندما أحس مسعود بعدم قدرته على مواجهة وحسم الموقف عسكرياً اضطر إلى اللجوء إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الخليفة وقد تم له ذلك بعد أن استعان ببعض الخراسانيين الذين نفذوا جريمتهم بالخليفة أثناء ما كان يتنزه في اصفهان بعد انتصاره على قوات مسعود.

أن مقتل الخليفة الراشد بالله كان له اثر كبير في نفوس المسلمين عامة والعراقيين خاصة وأن استشهاده من أجل تثبيت دعائم الخلافة العباسية حفز النفوس وأيقظها بل ألهب الحماس الوطني والديني في صدور الخلفاء والأمراء والعامة وسنرى لهذا النزاع الذي نشب بين السلاجقة والخلافة تأثيره الكبير في دعم الخلافة وتقويتها وفي أضعاف السلاجقة وانهيارهم.

ومنذ أن نصب السلاجقة المقتفي لامر الله خليفة في بغداد بدأت الأمور تسير في غير صالحهم، فالخليفة المقتفي لأمر الله كان قد حمل فكرة سيئة عن حكم السلاجقة وسياستهم اتجاهه فهم الذين جردوه من كل ما يملك من الخيول والممتلكات كي يكون تحت رحمتهم وأسيراً عندهم فاخذ يراقب الحوادث ويتحين الفرص لضرب السلاجقة فهذا السلطان سنجر كان قد انهزم أمام الخطائين في عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١ والصراعات بين أفراد البيت السلجوقي في إيران والعراق والحالة الاقتصادية تزداد سوء مما أدى إلى تبرم الناس.

لذا بدأ المقتفي يحكم استعداده بتقوية الجيش وتدريبه ويأمر العامة بجمع السلاح. ويحفر الخنادق حول بغداد ويصلح السور والعامة التفت حول الخلافة وتتعاون معها من اجل إنقاذها من حكم السيطرة السلجوقية. بينما كان السلطان مسعود منهك القوى نظراً لكبر سنه، وبسبب الحروب والمنازعات التي كان قد خاضها وحين توفي عام ٥٤٧هـ/ ١١٢٥م فقدت الدولة السلجوقية ركناً كبيراً وأخذت تتداعى وتموج بالفتن والمنازعات في حين قوى جانب الخليفة وأصبح هو السيد المطاع وصاحب الكلمة العليا في دولته. وأخذ يسترد امتيازاته بل ويسيطر على الاقطاعات السلجوقية ويضعف قوة الأمراء وقد برز إلى جانب الخليفة وزيره أبا المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الفزاري الملقب (بعون الدين) وكان شخصيته فذة وكان كاتباً بليغا فصيحاً عالماً بالنحو واللغة والفقه والأحاديث والقرآن العظيم المجيد وتفسيره كما كان حسن التدبير للأمور والسياسية وقد تعاون الوزير ابن هبيرة مع الخلافة معاونه صادقة حتى انه في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م قاد الجيوش التي أمر بها الخليفة المقتفي وحارب السلاجقة وتمكن من هزيمتهم.

ومنذ ذلك الوقت اتبعت الخلافة سياسة مزدوجة فهي تضرب السلاجقة بعضهم ببعض وتشجع بذلك قيام الخلافات بينهم ثم تحارب إن وجدت فرصة للحرب وتنتصر فيعلو قدرها ويضعف شأن خصومها فحين طلب السلطان محمد ابن محمود بن محمد ابن ملكشاه من الخليفة المقتفى أن يخطب له على منابر بغداد رفض الخليفة طلبه.لأن الخليفة استمال أحد أقطاب البيت السلجوقي وهو سليمان شاه بن محمد عم السلطان محمد بن محمود، وكان سليمان شاه هذا

قد حضر قصر الخليفة وحلف له على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لا يتعرض إلى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد.

وهكذا انقسم السلاجقة فيما بينهما بتشجيع من الخلافة كل أمير يريد السيطرة وتنازع على السلطنة ملكشاه أخو السلطان محمد بن محمود وعمه (سليمان شاه)وكذلك (ارسلان بن طغرل) وكان كل واحد من هؤلاء من يؤازره ويؤيده وسيطر ملكشاه على الاحواز ومضى إلى أصفهان فلما قاربها أرسل إلى حاكمها ابن الخجندي واعيان البلد في تسليم البلد فامتنعوا عن ذلك وقالوا لأخيك في رقابنا يمين ولا نغدر به، ولذا شرع ملكشاه في الفساد والمصادرة بأهل القرى وسار سليمان شاه إلى همذان ولكن الأقدار غيرت الموقف فمات ملكشاه مسموماً عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وتوفي كذلك سليمان شاه في العام التالي وفي نفس عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م توفي الخليفة المقتفي لأمر الله بعد أن حكم أربعاً وعشرين عاماً قضاها بمناهضة السلاجقة وتدبير الملك وتوحيد الصف وبعث الهمة والعزيمة في النفوس كما كان عاملاً مهماً وكبيراً في التطويع بكثير من المظاهر السلجوقية ووقف بإصرار وعناد أمام السلاطين والملوك السلاجقة وأنه كان أول خليفة يتمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه.

بويع بالخلافة من بعده ولده المستنجد بالله (٥٥٥هـ/ ٥٦٦هـ) وقد ضعف السلاجقة في فترة حكم هذا الخليفة واستمرت المنازعات والمنافسات فيما بينهم، ولعب الأتابكة ، مربو أولاد الأمراء والسلاطين دوراً فعالاً في التحكم بأمور السلطنة وتم الاتفاق فيما بينهم على تعيين أحد الأمراء الضعفاء عليهم وكان صغيراً وقام الأتابك (ايلدكز) أتابك أذربيجان بالسيطرة على أمور السلطنة في العراق وصار هو الحاكم الفعلي حتى توفي عام ٥٦٨هـ/

١١٧٢م. فاحتل ابنه جهان بهلوان مكانه وقيل أنه أرسل رسولاً إلـــى الخليفـــة المستنجد بالله وحمله طلبات السلطان الجديد ولكن الخليفة أهان الرســـول ورده في الوقت عينه بلغت الخلافة من القوة بحيث أرسل الخليفة الجيـــوش لتـــأديب وإزاحة من تحالف مع السلطان ضد الخلافة في العراق وبذلك أعـــاد ســـيطرة الخلافة على مدينة الحلة بعد أن قضى علـــى حكومتـــها المواليـــة للســـلطان السلجوقي.

إلا أن الخليفة المستنجد بالله لم يسلم من التآمر بعد أن حقق الكثير لصالح أهل العراق والخلافة ففي عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م حيث مات الخليفة ميتة غـــير طبيعية. وبويع بالخلافة ابنه الحسن ولقب المســـتضيئ بـــأمر الله (٥٦٦هـــ/ ٥٧٥هـ) وفي عهد هذا الخليفة المستضيئ لم يحاول السلاجقة التعرض إلـــى الخلافة في العراق لسببين أحدهما أن زعماء السلاجقة بلغوا من الضعف درجة بحيث تمكن فيها الأتابكة من السيطرة عليهم والآخر هو أن الخليفة العباسي قـــد تعالت مكانته حينما حقق صلاح الدين الأيوبي هيمنته على مصر منهياً بذلـــك الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وإعادة الخطبة والسكة للعباسيين وكـــان لذلك أهمية كبيرة في العالم العربي والإسلامي.

الباب السادس

الخلافة العباسية في عصرها الأخير

(٥٧٥هـ - ٦٥٦هـ / ١١٧٩م - ١٢٥٨م)

الفصل الأول: الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥هـ - ٦٢٢هـ)

الفصل الثاني: آخر الخلفاء العباسيين

الفصل الثالث: المغول وسقوط الخلافة العباسية

الخلافة العباسية في عصرها الأخير

(٥٧٥هـ ٦٥٦هـ / ١١٧٩م ١٢٥٨م)

الفصل الأول: الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥هـ ٦٢٢هـ)

في عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ توفي الخليفة المستضيئ بأمر الله وولي الخلافة من بعده ولده الناصر لدين الله وفي عهد الناصر لدين الله بلغت الخلافة العباسية في عصورها الأخيرة قمة مجدها من النفوذ والقوة حكم ٤٦ سنة حقق خلالها إنجازات عظاماً خلدته وأثارت الإعجاب به. ولهذا الخليفة النصيب الأوفر في القضاء على النفوذ السلجوقي. وتحرير العراق نهائياً من الآثار البغيضة ومن أي مظاهر من مظاهر السيطرة والنفوذ وقد أيقن الخليفة الناصر أن الطامعين في السلطة والمتطلعين إلى السلطة غالباً ما يتفقون مع من يتجاوب معهم من أفراد العائلة العباسية لتقليص نفوذ الخليفة ثم التخلص منه. فكان الخليفة حذراً واحتاط لذلك فقرر إلزام أفراد العائلة العباسية بعدم الظهور للناس أو الخروج من دور الخلافة إلا بإذنه.

تصدى بعد ذلك لإنهاء نفوذ وتسلط السلاجقة في إيران ووضع حد لطلباتهم بإعادة الخطبة لهم ببغداد فلما تلقى الخليفة طلباً من السلطات رد عليه بهدم دار السلطنة ببغداد . وقد اغتنم الخليفة المنافسات والصراعات بين الأمراء والسلاطين التي تأججت بعد وفاة الأتابك جهان بهلوان عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦ المنفذ والحاكم باسم السلطات طغرل في همذان فأعد الخليفة جيشاً لمساعدة قزل أرسلان. إلا أن الجيش خسر المعركة مع السلطان السلجوقي عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٨م. عاود قزل أرسلان بمساعدة جيش الخلافة بالتحرك صوب همذان التي تمكن من الاستيلاء عليها في نفس ذلك العام. وأثناء ذلك هرب السلطان

السلجوقي طغرل إلىإقليم أذربيجان وظل قزل ارسلان يطارده حتى تمكن منه، فوقع أسيراً في أيدي رجال الجيش حيث سجن في قلعة بأذربيجان.

توجه قزل ارسلان بعد ذلك إلىهمدان مقر الحاكم السلجوقي فأخذ يبحث عن سلطان رمزي من السلاجقة يجلسه على عرشهم في العراق، واتجه تفكيره إلىسنجر بن سليمان شاه فأخرجه من السجن ليجلسه على العرش ووزع الاقطاعات على الأمراء ثم توجه إلى اصفهان، وتزوج بالخانون زوجة أخيه جهان بهلوان، فتهيأت له جميع أسباب الحكم ولم يلبث أن وصلته رسالة من الخليفة الناصر لدين الله تظهر رضاه وموافقته على أن يلي قزل ارسلان نفسه عرش لسلطنة فأعلن نفسه سلطاناً في عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م.

استبد السلطان الجديدة قزل ارسلان بالأقاليم التي أصبحت تحت سيطرته كما أن بقية الأمراء السلاجقة في العراق قد حقدوا عليه بسبب هذه المنزلة فتم التعاون بينهم وبين زوجته خانون وابنها قتلوغ اينانج بن جهان بهلون وهكذا اتفق الجميع على التخلص منه فأرسلوا إليه من قتله وهو نائم على فراشه وذلك عام ٥٨٧هـ/١١٩١م.

تحركت مرة أخرى المنازعات والصراعات بين الأمراء بعد مقتل قزل ارسلان فاستغل السلطان السلجوقي طغرل الثالث المعتقل في أذربيجان ذلك وهرب من السجن واستطاع خلال فترة قصيرة أن يجمع جيشاً من أنصاره السابقين ليتمكن من استعادة السلطنة من جديد حيث تمكن من دخول همذان مرة أخرى عام ٥٨٩ هـ /١١٩٣م.

فكر الخليفة الناصر لدين الله في البحث عن قوة جديدة تكون مواليه للخلافة من اجل إنهاء الحكم السلجوقي نهائياً وكانت هذه القوة على مقربة من السلاجقة تراقب الأحداث عن كثب هذه القوة هي قوة الدولة الخوارزمية.

كان الخوارزميون يسيطرون على بلاد ما وراء النهر وكانت لهم حروب طويلة مع السلاجقة أرسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى حاكم خوارزم

علاء الدين تكش يدعوه إلى مساعدته في إنهاء حكم السلاجقة. وقيل أن حاكم خوارزم قد استجاب على الفور وهيأ جيشه خاصة أن الخليفة وعده بان يحل محل السلاجقة في حكم جميع الأقاليم التي كانت تحت سيطرتهم.

تقدم الجيش الخوارزمي من نيسابور إلى الري. ولما علم السلطان السلجوقي طغرل الثالث وأرسل رأسه إلى بغداد وكان ذلك عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م. ولقد سر الخليفة بذلك وسير وزيره مع خلع سلطانية لعلاء الدين تكش وأمر بتوليه على جميع أقاليم السلطنة السلجوقية لم يحاول السلاجقة بعد مقتل طغرل الثالث ادعاء السلطنة فانتهت سلطنتهم نهائياً في عهد الخليفة الناصر لدين الله.

هكذا انتهت بمقتل طغرل الثالث الدولة السلجوقية في العراق وان كان الخوارزميون صاروا يدعون انهم ورثة السلاجقة إلا أنهم لم يبلغوا نفوذ سابقيهم. ومهما يكن من أمر فإن الخلافة بعد مقتل طغرل صارت في حل من أي ارتباط مع السلاجقة وتمتعت الخلافة باستقلال تام وانصرف الخليفة إلى البناء والعمران واصبح الخليفة الناصر لدين الله نفوذ كبير وخطب له في كل أنحاء البلاد العربية الإسلامية.

إلا أن علاقات الود والتعاون بين الخليفة الناصر لدين الله والخوارزمين لم تدم فتأزم الوضع بينهما خاصة بعد أن تعاظمت قوة الخوارزمين وسيطروا على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي وقد أشار ابن الأثير إلى أن الخليفة الناصر هو الذي شجع المغول على ذلك الغزو قائلاً هو الذي أطمع التتر في البلاد فهو الطاعة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم وأخذوا يطالبون الخليفة الناصر بالخطبة لهم في بغداد. فرفض الخليفة ذلك بشدة فتأزمت العلاقات بينهم إلى درجة انهم قطعوا الخطبة باسمه في بعض الأقاليم التابعة لهم وهددوا بغزو العراق إلا انهم لم يفعلوا ذلك بسبب تعرضهم إلى الغزو المغولي حيث كانت نهايتهم.

إن نجاح الخليفة الناصر في إنهاء تسلط السلاجقة وتحرير العراق منهم لم يصرفه هذا عن العمل لحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي قامت نتيجة للتسلط الأجنبي فقد جاء عنه شغفة في علوم الدين والتأليف ورواية الحديث كما اهتم بالمدارس ومكتباتهم ففي عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل إليها من الكتب النفسية ألوفا لا يوجد مثلها.

كما ورد عنه حبه للفقراء ومساعدتهم ولا سيما الذين تضرروا معاشياً من جراء الهيمنة الأجنبية فأمر في عام ٦٠٤هـ /١٢٠٩م ببناء دور في جميع المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء في شهر رمضان. وسميت دور الضيافة يطبخ فيها لحم الضأن والخبز الجيد، وجعل في كل دار من يوثق بأمانته فكان بفطر كل ليلة من طعامه خلق لا يحصون كثرة.

وفي عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٩م أصدر أوامر أخرى برفع ضريبة المكوس على التجارات لتنشيط عملية التبادل التجاري. ولما كان نهر دجلة يهدد مدينة بغداد والقرى المحيطة بها في أثناء موسم الفيضان لذا فقد أولى الخليفة هذه المسألة اهتمامه فكان يشرف بنفسه على ترميم السدود لدرء الفيضان فقد أورد ابن الأثير أنه في عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٩م زادت دجلة زيادة كثيرة. ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابي ووقفا ظاهر البلد، فلم يبرحا حتى سد الخندق.

وعرف عن الخليفة الناصر لدين الله أنه اكثر الخلفاء العباسين استبزازاً وكان يختار من يتوسم فيه سعة العلم وقوة الشخصية والذكاء فقد استوزر ثلاثة عشر رجلاً لقب أربعة منهم بلقب وزير أما البقية فلقبوا بنائب وزير وكان معظم وزرائه يهابونه ويخافون المثول أمامه.

الفصل الثاني: آخر الخلفاء العباسيين

أولاً: الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢هـ-٦٢٣هـ)

أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله بن المستضيئ بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر، وكان عمره آنذاك اثنين وخمسين سنة فسلك سلوكاً جيداً وضرب مثلاً أعلى في أعمال البر والعدل والإحسان إلى الناس بحيث كان مثالاً لإعجاب معاصرية من المؤرخين فقد أثنى عليه المؤرخ ابن الأثير (المتوفي سنة ٦٣٠هـ) وكان معاصراً له وأعجب به إعجاباً شديداً وحمد سيرته.

ومن أفعاله الجميلة أمر بأخذ الخراج الأول من باقي البلاد جميعها فحضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التي يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت، ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفي دخل الباقي بالخراج، فأمر أن لا يؤخذ لخراج إلا من كل شجرة سليمة، وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء وهذا عظيم جداً.

ومن ذلك أيضاً أن المخزن (وهو بين المال) كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط، يقبضون بها المال، ويقطعون بالصنجة التي للبلد بتعامل بها الناس، فسمع بذلك الخليفة الظاهر فخرج خطه إلى الوزير ينكر عليه ذلك وأوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين ١/٥]. قد بلغنا أن الأمر كذا وكذا فتعاد الصنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب إليه يقول: أن هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان

في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار، فأعاد الجواب ينكر على القـــائل، ويقول: لو أن ثلاث مائة ألف وخمسين ألف دينار يطلق.

وتقدم إلى القاضي ان كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك اغتصــب منه يعيده إليه من غير إذن وأقام رجلاً صالحاً ولاية الحشرية وهم الأقـــارب الأباعد وليس أصحاب القروض- وبيت المال وقال له: أعط كل ذي حق حقــه واتق الله ولا تتق سواه كما اخرج كل من كامن في السجون وأمر بإعادة ما اخذ منهم، وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبــوس في حبس الشرع وليس له مال وعالج مشكلة ارتفاع الأســعار فــي الموصــل وديار الجزيرة، فسمع بحمل الغلات إليها، وأطلق ما هو مخزون من الحبــوب والأطعمة في مخازن الدولة، وبيعها بأسعار أقل من سعر السوق.

ويذكر ابن الأثيران الخليفة الظاهر لم يزل كل يوم يــزداد مــن الخــير والإحسان إلى الرعية فرضي الله عنه وأرضاه وأحسن منقلبه ومثواه فلقد جــود من العدل ما كان دارساً واذكر من الإحسان ما كان منسباً ولــم تطــل خلافــة الظاهر حيث توفي في رجب سنة ٦٢٣ هــ ولم تمض على خلافته اكثر مــن تسعة أشهر وعشرين يوماً.

ثانياً: الخليفة المنتصر بالله (٦٢٣هـ- ٦٤٠هـ):

وهو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر لله بن الناصر لديــن الله بويــع بالخلافة بعد وفاة والده الظاهر، وتلقب بالمنتصر بالله، تولى المنتصــــر ســنة ٦٢٣هــ / ١٢٢٥م والدولة العباسية مستمرة في نهضتها السياسية التي بدأ بــها الناصر لدين الله، وكان المستنصر شاباً نشيطاً يميل إلى العلم، لأنه نشأ نشــأة علمية، وترعرع في عصر الفتوة والقومية، والشعور بوجوب الاستقلال مــن

الأعاجم والقضاء على أثارهم. فالشعور الفياض بلغ أوجه في عصر هذا الخليفة الذي كان مثلاً رائعاً في الإصلاحات العمرانية والثقافية والاجتماعية والعسكرية. وحاول المستنصر جهده أن يصلح الأوضاع الذي كان يعتورها الضعف في ذلك الوقت وقد نجح إلى حد كبير.

وقد بدأ خلافته بالإحسان إلى الرعية سالكاً سيرة والده، حيث أمر فنودي في بغداد بإفاضة العدل وإن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها لتفضي حاجته، وتكشف مظلمته وعالج ارتفاع الأسعار، فأمر ببيع الغلات العائدة للخلافة بأسعار أقل من أسعار السوق مما أدى إلى رخص الأسعار وبذلك أنقذ الناس من الاحتكار واستغلال التجار.

وقد أهتم بعمارة المساجد والاضرحة، وأنشأ سنة ٦٢٦هـ الرباط المستجد بدار الروم في بغداد واسكنه جماعة من الصوفية وفي السنة نفسها تكامل بناء المسجد المعروف بقمرية بالجانب الغربي على شاطئ دجلة، وأمر أن تنقل إليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك، وجعل في المسجد خزانة للكتب وحمل إليها كتب كثيرة.

ما تقدم إلى نائب الوزارة بعمارة مساجد الكرخ، فشرع في ذلك، فلما تكاملت عمارتها رتب بها الأئمة والمؤذنين كما أمر بعمارة جامع البصرة وتجديد بنائه، وأنشأ مارستاناً هناك، وشرط أن تكون النفقة عليه من خالص أمواله ووقف عليه أوقافاً سنيه موفرة الحاصل.

وقد ترك الخليفة المستنصر أثاراً كثيرة لازال البعض منها باقياً لحد الآن، من اشهرها وأبقاها المدرسة المستنصرية، ومنها خان الخرنيني (قرب تكريت) وخان حربي وقنطرتها (على بعد ٩٠ كيلومتر شمال بغداد على طريق سامراء) وهي مشيدة على مجرى نهر الدجيل واهم ما تمتاز بها هذه القنطرة

الكتابة التي تمتد في شريط طويل بامتداد القنطرة من الجانبين ويبلغ طول هــذا الشريط المكتوب مائة متر،وهذه الكتابة مكونة من الأجر المثبت فـــي الجــص بمهارة فائقة.

وقد اهتم الخليفة المستنصر بالفتوة، واعتبر نفسه حامياً لهذا النظام ولبس سراويل الفتوة كما عني بتقوية الجيش، فإنه اتخذ عسكراً عظيماً حتـــى بلغــت جريدة جيشه على بعض الروايات نحو مائة ألف فـــارس. اســتعداداً لحــرب المغول ففي أيامه تعاظم خطر المغول، وتقدموا حتى وصلوا إلى خانقين وحاول المستنصران يمنع تقدمهم إلى العراق، فأرسل جيشاً كبيراً من بغداد، وحدثـــت بين الجيشين مقتلة عظيمة كما استطاع بهذا الجيش استرجاع اربل وتوابعها بعد وفاة أميرها كوكبرى. وأصبحت تابعة للحكومة المركزية في بغداد.

ولعل ابرز ما امتاز به الخليفة المستنصر حبه للأدب ورغبته في العلـــم وتشجيع الأدباء والعلماء وذلك مما ساعد على الحياة العلمية اشتغالاً ووســـعهم بعطاياه العظيمة كرماً وإفضالاً.

١.المدرسة المستنصرية:

ولعل تأسيس المدرسة المستنصرية ممن قبل الخليفة المستنصر خير دليل على حبه للعلوم ورغبته في نشره ورعايته للعلماء وطـــلاب العلــم وقــد أراد المستنصر أن تكون مدرسته هذه نموذجاً طيباً للتربية والتعليم فاختار لها أفضل المدرسين والمعيدين وخصص لهم الرواتب وما يحتاجون إليـــه مــن المــواد المعشية كما اهتم بمساكن التلاميذ وتغذيتهم وأوصى بالســـهر علــى راحتــهم وتعليمهم والاهتمام بتقويم أخلاقهم وإعدادهم للمستقبل إعداداً مرضياً.

كما حاول إدخال جميع العلوم العقلية والنقلية إلى المدرسة المستنصرية حيث ادخل إليها بالإضافة إلى مواضع الفقه وتفسير القرآن والعلوم العربية والأصول والفرائض والحساب والجبر والهندسة والطب وعلم الحيوان وبذلك يكون المستنصر قد خطا خطوة جديدة جرئية حين جعل منهاج الدراسة بها مشتملاً على العلوم العقلية والنقلية جميعاً.

بدأ المستنصر بناء مدرسته سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م على ضفة دجلة الشرقية وقد تكامل بناؤها في جمادي الآخرة سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م فكانت آية فنية رائعة. وقد احتفل بافتتاح المدرسة احتفالاً عظيماً، وكان يوماً مشهوداً حضر نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء وحضر الخليفة المستنصر واستقبل بعظيم الحفاوة والإجلال ووقف نائب الوزارة نصير الدين بن الناقد وبيده السجلات الخاصة بالمدرسة المستنصرية وأعلن افتتاح المدرسة مبيناً أقسامها ومرتباتها ومخصصاتها وتفاصيل إدارتها ووقفها وموظفيها وعدد طلابها ومناهج التدريس فيها.

وظلت المدرسة المستنصرية منذ أيام مؤسسها المستنصر وحتى بعد سقوط بغداد بفترة طويلة تؤدي رسالتها العلمية كأبرز المراكز المهمة للإشعاع الفكري في العالم العربي والإسلامي،حيث قصدها طلاب العلم من جميع أرجاء العالم العربي والإسلامي، وظلت هذه المدرسة بالإضافة إلى كل هذا أثراً عظيماً خالداً في نفوس العرب والمسلمين يحفزهم في استعادة مجدهم الخالد وماضيهم العظيم.

ولا يزال هذا البناء الشامخ الذي طاول الزمن عظيماً باقياً يعتبر بحق كما كان أثراً رائعاً من أثار تلك المدينة الزاهية فهو بالرغم من حوادث الزمن التي

مرت به ظل رابضاً كالطود يتحدى الحوادث ويهزأ بالنكبات، ولا يــزال مــن أعظم المعالم الحضارية في بغداد.

وقد جاء ذكر المدرسة المستنصرية على لسان الكثير مـــن المؤرخيــن والجغرافيين والرحالة العرب واتفقوا أنه ما بني على وجه الأرض احسن منها. وأنها جاءت في نهاية الحسن، ووصفها غريب، وحسن ترتيبها عجيب شــامخة إلى عنان السماء وهي اعظم من أن توصف وشهرتها تغني عن وصفها وهــي ولا زالت بدون منازع أجمل أثر في العراق يقف كالطود الشامخ يعــبر عــن مجده الغابر وعزه المندثر، ومستقبله المشرق.

٢. علاقة الخلافة العباسية بالدويلات الإسلامية في عهد المستنصر بالله:

اقتصر حكم الخليفة المباشر في العصر العباسي الأخير علــى العــراق، وهي الرقعة الممتدة من قرية العقر عند حدود اتابكية الموصـــل شــمالاً إلــى عبادان جنوباً، ومن القادسية غرباً إلى حلوان شرقاً.

أما بقية أرجاء العالم العربي والإسلامي فلم تكن ترتبط بالخلافة العباسـية سوى اعتبارات روحية ومعنوية، حيث ظل الخليفة العباسي يحظـــى بــاحترام شديد لدى معظم ملوك وأمراء الدويلات الإسلامية.

وكان الخليفة العباسي له دور فعال ومؤثر في حل معظم النزاعات التــي تحدث بين الملوك والأمراء وفي إيقاف الحروب التي تحصل بينهم أحياناً. كمــا له تأثير معنوي كبير في مجاهدة ملوك الأطراف للكفار.

ولم تكن هذه الدويلات الإسلامية ترتبط بالخليفة بمســـتوى واحــد مــن العلاقة فقد اختلفت قوة وضعفاً باختلاف الغرب والبعد عن العراق وربما كـــان ملوك وأمراء بلاد الشام ومصر من الأيوبيين اكثر ارتباطاً بالخليفة العباسي من

بقية الأقاليم فقد سادت العلاقة الودية بين حكام مصر والشام وبين الخليفة العباسي واستمرت حتى سقوط بغداد.

وقد لعب الخليفة العباسي دوراً مهماً في إحلال الوئام والوفاق بين حكام الشام ومصر وكان سلاطين وأمراء الشام ومصر يعتبرون أنفسهم خاضعين لخليفة العباسي وانهم من عساكره.

وكان الخليفة بدوره يعتبر السلاطين والأمراء في بلاد الشام ومصر تابعين له، وكان أهل العراق يعتبرون هؤلاء الأمراء والسلاطين مجاهدين ضد الصليبيين من أبطالهم الذين يفخرون بهم.

وقد ذهبت العلاقة بين السلاطين الأيوبيين وبين الخليفة العباسي المستنصر إلى ابعد الحدود حين تعرض العراق للغزو المغولي سنة ٦٣٥هـ، فقد شعروا بالارتباط المصير بينهم وبين العراق فأرسل الملك الكامل نجدة مكونة من عشرة آلاف جندي مساعدة للخليفة المستنصر في حربة للمغول، كما وصلت إلى الخليفة المستنصر إمدادات من نور الدين ارسلان بن زنكي صاحب شهرزور، ووصل عسكر من دمشق وعدتهم ثمانمائة فارس.

ولما شعر الخليفة المستنصر بان تهديد المغول مستمراً أرسل إلى ملوك الأطراف يستنجدهم فوصلت أول الإمدادات من صاحب بعلبك الذي أرسل ولديه الملك السعيد والمظفر عمر ومعهما ألف فارس.

أما علاقة الخليفة العباسي بالجزيرة العربية فقد كانت ضعيفة في أكثر الأحيان وذلك بسب وجود قوى كثيرة متصارعة فضلاً عن بعدها الجغرافي وصعوبة المواصلات غير أن الظروف تغيرت في خلافة المستنصر فقد استولى بنو رسول على مكة سنة ٦٢٩ هـ وأصبحت دولتهم تمتد من اليمن

جنوباً حتى مكة شمالاً واعترفوا بسيادة الخليفة وخطبوا للخليفة المستنصر بالله وانتظروا اعتراف الخليفة بهم.

أما الأندلس التي كانت قد خرجت من يد بني العباس منذ فترة طويلة فقد عادت في أيام المستنصر إلى حضيرة الخلافة تدين لها بالولاء والطاعة فقد خرج فيها محمد بن يوسف بن هود الجذامي على الموحدين وامتلك الأندلس سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م منادياً بالدعاء للخليفة العباسي المستنصر بالله، وقد وصله تقليد المستنصر بالله كحاكم على الأندلس وشاع ذكره هناك وملك مرسيه والمرية، وغرناطة ومالقة واشبيلة والجزيرة الخضراء.

وحين وصول الهدية والتقليد من قبل المستنصر سنة ٦٣١هـ إلى الأندلس فرح به ابن هود فرحاً شديداً وقرأه على الناس بالمسجد وقد لبس شعار العباسين السواد وبين يديه الراية السوداء.

أما علاقة الخلافة العباسية بمشرق العالم الإسلامي. فقد كانت متأزمة وعدوانية في معظم الأحيان فقد خضعت الدولة العباسية في أدوار ضعفها تحت هيمنته القوى الجديدة التي ظهرت من مشرق العالم الإسلامي من بويهيين وسلاجقة، حتى إذا ما تحررت الخلافة العباسية في عصرها الأخير ظهرت قوة جديدة هي الدولة الخوارزمية التي اعتبرت نفسها وارثة ممتلكات الدولة السلجوقية بما فيها العراق.

الفصل الثالث: المغول وسقوط الخلافة العباسية:

لقد ذكرنا سابقاً أن الخلافة العباسية في بغداد قد واجهت العديد من التحديات، خاصة تحديات الغزو الأجنبي. وان بعض القوى الأجنبية قد استطاعت بفعل عدة عوامل أن تفرض سيطرتها وتسلطها على العراق فترة قصيرة فقد تسلط البويهيون الديالمة والسلاجقة الأتراك أكثر من قرن من الزمان وعلى هذا الأساس أن ظهور التحدي السياسي والعسكري المغولي وما فرضه من أخطار كبيرة على الخلافة العباسية والمجتمع العربي الإسلامي لم يكن الخطر الوحيد الذي واجهه العباسيون غير أن هناك عدة عناصر حيوية تجعل من الهجوم التتري خطراً حقيقياً جلب معه نتائج وآثار لها أبعاد كبيرة منها- بالرغم من أن البويهيين الديالمة والسلاجقة قد أفلحوا في الاستحواذ على المؤسسات الإدارية والسياسية والاقتصادية للدولة العباسية غير انهم لم يجرأوا على أحداث تغيير في النظام السياسي العباسي وذلك بإلغاء أو تبديل نظام الخلافة العباسية.

صحيح أن هناك معلومات تفيد أن معز الدولة البويهي بعد سيطرته على بغداد في سنة ٣٣٤هـ حاول أن يحقق أطماعه ومخططاته بتبديل النظام السياسي العباسي واختيار خليفة آخر غير أنه إذا ما صحت هذه المعلومات، لم يفلح في تنفيذ أغراضه لأنه كان يخشى معارضة كبيرة من أهالي العاصمة، ولهذا فإنه لم يجرؤ على تغيير الخليفة العباسي. أما بخصوص المغول الذين لم يكونوا آنذاك أي في خمسينات القرن السابع الهجري، يدينون بالديانة الإسلامية، فإنهم ونقصد هولاكو وبتشجيع من بعض العناصر التي رافقت حملته قد عمل على إزالة الخلافة العباسية وتصفية البيت لعباسي بقتله آخر خليفة هو أبو أحمد

عبد الله المستعصم بالله ابن الخليفة المستنصر الذي تولى مقاليد الخلافة سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م. ولم تقف أطماعه عند هذا الحد إنما عمل على تصفية العائلة بقتله أبي العباس احمد بن المستعصم بالله. كذلك أقدم على قتل أعمام الخليفة وأنسابه.

إن المتسلطين الأجانب من بويهيين وسلاجقة لم يعملوا حينما سيطروا على بغداد على نقل الخلافة العباسية من المدينة، والواقع أن ما اتخذه الخليفة المعتصم ومن جاء بعده من إجراء بنقل الإدارة إلى سامراء لم يكن سياسة دائمة إذ لم يستمر العمل به، وسرعان ما عادت الأمور إلى نصابها فرجعت بغداد عاصمة للعباسيين كذلك فأن بعض الأمراء البويهيين والسلاجقة لم يستقروا في بغداد واتخذوا مدن شيراز أو همدان أو نيسابور أو مرو أو اصفهان مراكز لإدارتهم وكانوا معتادين على زيارة عاصمة الخلافة العباسية، ومع ذلك فإن هذه الاتجاهات لم تؤد إلى جعل بغداد مدينة ثانوية مقارنة بتلك المدن، وذلك لأن بغداد كانت تمثل عاصمة الخلافة العباسية المركزية. غير أن هجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ وما عمله هؤلاء من تهديد وتخريب لمعالم العاصمة الحضارية والعمرانية ومن قتل وسفك دماء لأهالي المدينة قد أدى كل هذا إلى أن تفقد العاصمة دورها المركزي الحضاري.

أولاً اصل المغول وتوسعهم:

١ـ أصل المغول:

المغول هم مجموعة من القبائل البدوية المترحلة التي كانت تنتشر في هضبة منغوليا الواسعة الرقة، تلك الهضبة التي تفاوتت طبيعتها الجغرافية بين جبال من جهة وصحارى مقفرة من جهة أخرى. فكانت السهوب الواسعة التي

تحدها صحراء جوبي من الجنوب تمثل مواطن استقرار هذه المجموعات من القبائل في فصل الشتاء حيث الدفء وتوفر الكلأ والمرعى، بينما تكون الجبال جبال الناي وجبال جانجاي وغيرها مواطن لسكانهم في فصل الصيف. وقد ذكر مواطن استقرار التتر هؤلاء في صحراء (ربما يقصد بها صحراء جوبي، وجوبي لفظة مغولية تعني الصحراء المجدية) متاخمة لبلاد الهند وكان يطلق عليها جين ماجين (وهو اصطلاح يقصد به الصين الجنوبية التي يسميها الهنود مهاجين أي الصين الكبرى).

وكانت هذه القبائل البدوية متعددة اشتهر منها قبائل التتر الذين كانوا تابعين لإمبراطورية كين الصينية وكذلك قبائل الكرايت الذين كانوا يقطنون الواحات المنتشرة في صحراء جوبي وكانوا من أقوى قبائل المغول، ومنه قبائل المغول، ومنها قبائل النايمان وهم من الأتراك وكانوا كالكرايت يدينون بالمسيحية ومنها قبائل (المغول) جنكيزخان، وكانت مواطن سكناهم هضبة منغوليا في شمال صحراء جوبي.

دون شك فان القوة والوحشية والعنف التي اتسمت بها أخلاق المغول وتصرفاتهم ما هي إلا انعكاس للتناقضات الطبيعية التي وصفت بها صحراء جوبي التي كانت مستقراً لهم ينتقلون بها وراء الماء والكلأ والمرعى تلك الصحراء التي كانت تعني الجدب والفقر، وقد أملت حياة المغول المجدبة هذه نزعة التقاتل والتنازع فيما بينهم وكانوا ينتقلون من مرج إلى مرج ويتبعون المراعي ويسبون في الأودية ويعيشون في رؤوس الجبال.

٢- جنكيزخان:

لقد استطاع جنكيزخان (اسمه الحقيقي تموجين بن يسوكاي بن برتان بن قبل خان، ولد في منغوليا سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م) بفضل ما تميز به من خبرة في فنون القتال وجرأة وقساوة ومكر ودهاء أن يستعيد نفوذ والده يسكاي الذي كان يتزعم قبيلة فيات، وهي من القبائل المغولية.

فقد عمل على كسب ود رجال قبيلته ووجهائهم وأن يوجههم نحو الحرب والقضاء على أعدائهم من قبائل التتر والكرايت والنايمان. لذلك وبعد هذه الأعمال العسكرية، صار بحدود سنة ٦٠٠هـ / ٦٠٣هـ الزعيم الذي لا ينافسه أحد في القبائل المغولية وانتخب على اثر ذلك إمبراطوراً ومنح لقب جنكيزخان الذي يعني الحاكم الأعظم، فقد تم انتخابه خانا في سنة ٦٠٣هـ/* ١٢٠٦م في اجتماع عقد في شهر ربيع في تلك السنة، وكان الاجتماع يتألف ممن زعماء قبيلته والقبائل الخاضعة لنفوذه في موضع عرف بـ (الفوريلثاي) نسبة إلى نهر يقع على نهر ادنون.

ومنذ الفترة التي صار فيها تموجين الخان الأعظم اخذ على عاتقه وضع سياسة إدارية وعسكرية من اجل تنظيم حياة هذه القبائل الرعوية المتفرقة التي انضوت تحت زعامته. كذلك من أجل تحقيق أطماعه التوسعية فقد وصف تموجين أنه كان رجلاً جباراً عنده مكر ودهاء وحيل عظيمة.

الواقع أن خطط جنكيزخان العسكرية خلال هذه المرحلة التاريخية التي امتدت لتشمل فترة تزيد على عشر سنوات ابتداء من تاريخ تسلمه الخانية على قبائل المغول حتى سنة ٦١٥هـ كانت عبارة عن خطط توسعية موجهة صوب الأراضي التي تجاور مناطق نفوذه من منغوليا أي اتجاه الشرق والشمال

الشرقي والجنوب الشرقي لمملكته، واكتفى بذلــك دون أن يوســع اهتماماتــه وأطماعه في هذه المرحلة والاصطدام بالإمبراطورية الخوارزمية القوية التــي كانت تسيطر على أراضي واسعة وتمتلك جيشاً قوياً محارباً فقد افلح الســلطان خوارزمشاه ومن أعقبه من السلاطين في القضاء على سلاجقة فارس وخراسان والاستحواذ على أملاكهم ومناطق نفوذهم وكان الخوارزميون العامل الأســاس في إزاحة حكم السلاجقة من العراق في سنة ٥٠٩هـــــ/ ١١١٥م. ووصلــت الدولة الخوارزمية أوج توسعاتها زمن السلطان علاء الدين محمد خوارزمشــاه الذي وصف بأنه كان سلطاناً قوياً ذا طموحات واسعة شملت مركــز الخلافــة العباسية أيضاً خلال فترة خلافه الناصر لدين الله (٥٧٥هــ/ ٦٢٢هــ) إذا أنــه صمم على غزو مدينة بغداد والسيطرة عليها وتغيير الخلافة العباســية وجــهز لهذا الغرض حملة عسكرية ضد الخليفة العباسي لإجباره على الرضوخ لسلطته وهيمنته.

إن أطماع علاء الدين ومحاولاته العسكرية العدائيــة ضــد الإمــارات المسلحة والمجاورة لأراضيه كالدولة الغورية ودولة الاتابكة في بــلاد فــارس وأذربيجان قد جاءت بنتائج سلبية إذ تركته يقف بمفرده أمام الزحف المغولي.

وتبدأ المرحلة الثانية في تاريخ المغــول وعلاقاتــهم بــأراضي الدولــة الخوارزمية والإمارات الإسلامية الأخرى في الغــرب وبالخلافــة العباســية والأراضي العراقية في سنة ٦١٥هــ/ ١٢١٨م على وجه التحديد علــى اثــر حادثه (أو كما تسمى مذبحة اترات).

حقيقة أن احتكاكاً عسكرياً بين الجيش المغولي والجيش الخوارزمي قــد وقع فعلاً قبل هذه السنة وفي سنة ٦١٢هــ/ ١٢١٥م بالذات غير أن ذلك كــان

مجرد مناوشات حربية كان السلطان محمد خوارزمشاه هو الذي تعمد على إثارتها وذلك بإعطائه الأوامر لجنده في الهجوم على جند المغول ومع أن تلك المعركة كانت محدودة إذ لم تأت بنتائج عسكرية كبيرة، غير أنه حسبما يبدو أن السلطان الخوارزمي كان يهدف إلى اختيار ردود الفعل العسكرية للمغول لاسيما بعد أن ذاعت أخبار انتصاراتهم واستيلائهم على عاصمة إمبراطورية الصين، وقد وصلت أخبار تلك الانتصارات مسامع السلطان الخوارزمي، ومع ذلك فان حادثة اترار التي اتفق حولها المؤرخون القدامى والمحدثون عدها الحادثة الفاصلة بين مرحلتين مرحلة التوسع المغولي باتجاه الشرق ومرحلة التوسع والغزو المغولي باتجاه الغرب. ورأى المؤرخون أن الآثار والنتائج التي جاءت في أعقاب هذه الحادثة قد جلبت الدمار والخراب للمدن العربية الإسلامية الكبيرة في المشرق وللمراكز الحضرية الأخرى كما أن حادثة اترار هي التي مهدت السبيل أمام أطماع المغول في التقدم غرباً حتى بغداد وبلاد الشام.

وتلخص حادثة اترار (واترار مدينة تقع على الساحل الغربي لنهر سيحون وهي أول مدينة تواجه المسافر باتجاه الغرب وتقع في منطقة نفوذ السلطان علاء الدين خوارزمشاه وكانت مدينة تجارية يمر بها الطريق التجاري البري المعروف بطريق الحرير) في أن الطرفين- جنكيزخان والسلطان الخوارزمي قد توصلا إلى اتفاقية تجارية الهدف منها تأمين طريق التجارة الرئيس الذي يبدأ من أقصى الشرق إلى الغرب من هجوم قطاع الطرق. وتنفيذاً لبنود هذه الاتفاقية فقد وصل عاصمة المغول عدد من التجار الخوارزميين يحملون معهم أصنافاً من التجارات من بينها أنسجة ذهبية، ووصلوا إلى بلاط الخان فابتاع الثياب الثمينة من هؤلاء التجار، وفي مقابل ذلك هيأ الخان قافلة من التجار برفقة عدد من القواد المغول واتباعهم. وتوجه هذا الوفد الذي بلغ

عدد أفراده (٤٥٠) رجلاً بضمنها التجار الذين كانوا يحملـــون أصنافــاً مــن البضائع بينها الأنسجة الحريرية والذهب والفضة والمسك والأحجار الكريمـــة. وحمل جنكيزخان الوفد رسالة إلى السلطان الخوارزمي جاء فيـــها أن التجـــار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين وسيرنا معهم جماعة مـــن غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين".

ووصلت هذه القافلة التجارية المحروسة من الجنود المغول إلـــى مدينـــة اترار على الحدود وكانت المدينة يحكمها أحد أقارب زوجة السلطان ويعـــرف ينال خان أو أنال خان ويبدو أن ينال خان قد طمع في البضائع الثمينة التي كان الوفد يحملها فلم يضيع الفرصة في الهجوم على القافلة وقتل جميـــع أفرادهـــا والاستحواذ على البضائع والتجارات ولم ينج من القافلة سوى تاجر واحد عـــاد إلى جنكيزخان فاخبره بما ألم بهم فغضب جنكيزخان غضباً شديداً علـــى ذلـــك التصرف وبعث رسالة إلى السلطان محمد يطالبه فيها تسليم ينال خـــان حـــاكم اترار للانتقام منه على فعله، فلما رفض السلطان ذلك الطلب وتجاوزه إلى حـــد بجعله يقتل رسل جنكيزخان سنة ٦١٥هـــ بات من الطبيعي حـــدوث مجابهـــة عنيفة قد جرت الويل والمصائب على المتجمع العربي الإسلامي وحضارته.

ومن الممكن إيجاز الأعمال العسكرية التي حققها جنكيزخان ومن أعقبـــه من خانات وما قام به هولاكو من أعمال بشعة ومذابح لا حد لها بالآتي.

١- ابتدأ جنكيزخان حملاته العسكرية ضد الدولة الخوارزميـــة فـــي خريف سنة ٦١٦هـــ/ ١٢١٩م مصطحبا معه جميع أولاده وعساكره وبعض أمراء القبائل المغولية التي خضعت لنفوذه وكـــان هجومـــه

الأول موجهاً ضد بلاد ما وراء النهر فبعث بولديه حفناي واوكتاي برفقة جيش تعداده سبعين ألف مغولي (كان اللفظ المغولي سبعة تومانات والتومان في المغولية الوقت فانه أرسل جيشاً آخر برفقة ابنه الأكبر جوجي لغزو مدينة كند والبلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون أما الجيش الثالث الذي بلغ تعداده خمسة آلاف جندي فأرسله لغزو مدن خجند وبناكت (وقيل خجندة وبناكت وهما من مدن بلاد ما وراء النهر تتاخم خجندة فرغانه وتقع على نهر الشاش وتقع بناكت إلى جوارها) أما جنكيزخان فقد قاد مع ابنه تولوي جيشاً كبيراً متوجهاً لغزو تجارى المشهورة والمناطق الواقعة في أواسط بلاد ما وراء النهر.

وبذلك فقد نجح المغول في الاستيلاء على مدينة اترار بعد أن دافع عنها حاكمها ينال خان دفاعاً مستميتاً ودام قرابة خمسة شهور. وعندما سقطت المدينة في أيدي المغول قبض على حاكمها وأرسل إلى جنكيزخان الذي قتلة قتله مروعة بعد أن عذبه وارتكبت البرابره المغول أثناء دخولهم اترار مذبحة كبيرة جداً ونهبوا ممتلكات الأهالي واخذوا الكثير من الأبرياء اسرى.

٢- نجاح المغول في غزو مدينة كبند وهي إحدى الثغور الإسلامية التي تقع على نهر سيحون وعدد من المدن والحصون وقد حاصر جوبي أبن جنكيزخان مدينة كبند في شهر صفر من سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م. وعند دخول المغول المدينة نفذوا سياستهم الوحشية في قتل الأبرياء ونهب ممتلكاتهم.

٣- ثم استولى المغول على مدن خجند (اوخجنده) وينـــاكث وهمـــا مدينتان تقعان ضمن منطقة فرغانة وبعد أن دافع أهالي هذه المـــدن دفاعاً مريراً يقودهم حاكم خجند تيمور ملك غير أن دفـــاع أهـــالي المدن لم يستمر طويلاً إذ شدد المغول الحصار فسقطت المدينة.

٤- أعقب هذه العمليات العسكرية غزو جنكيزخان مدينـــة بخـــارى المشهورة وكانت بخارى تحتوي على دار الإمـــارة لجميـــع بـــلاد خراسان وهي مدينة كبيرة وقد تقدم إليها الجيش الكبير الـــذي كـــان يقوده جنكيزخان وابنه تولوي وفرض عليها الحصار وقـــد طلـــب أهالي المدينة الأمان من الخان المغولي ففتحوا أبواب المدينـــة فـــي شهر ذي الحجة من سنة ٦١٦هـــ / ١٢١٨م, لكن قلعة المدينة ظلت تقاوم الجند المغولي الأمر الذي دفع بجنكيزخـــان إلـــى أن يصـــدر أوامره بتدمير المدينة ومسجدها الجامع وقصورها وأمر بقتل أهاليها وتخريب معالم المدينة.

٥- وبعدها تقدم جيش جنكيزخان باتجاه مدينة سمرقند التي وصفـــها الجغرافيون بأنها مدينة عظيمة تحتوي على أربعة أبواب وأســـواق كبيرة. وقد استخدم جنكيزخان أثناء تقدمه صوب سمرقند الاســـرى ووضعهم أمام جيشه لإدخال الرعب في قلوب أهالي سمرقند الذيـــن انهارت معنوياتهم حينما سمعوا بالمصير الذي حل بأهـــالي مدينـــة بخارى. دخل جنكيزخان سمرقند في محرم ٦١٧هـــ/ ١٢١٩م.

٦- ثم استولى المغول على جرجانية، عاصمة إقليم خوارزم، علـــى أثر هروب السلطان علاء الدين محمد من العاصمة ولم تفلح والـــدة

السلطان الخوارزمي تركان خانون التي كانت تسيطر إدارياً على إقليم خوارزم من الصمود في قلعة مازندران فسقطت القلعة في أيدي المغول سنة ٦١٧هـ ونال أهالي العاصمة الجرجانية من الجيش المغولي شتى أنواع القتل والذبح والتدمير فلم يبق أحد من أهالي المدينة على قيد الحياة وقام المغول بأسر النساء والأطفال وأصحاب الصنائع والمهن.

٧- استيلاء جنكيزخان على إقليم خراسان فسيطر على مدن ترمذ وبلخ والطالقان ونسا ونيسابور ومرو وبيهق وهراة وعمل المغول في أهالي هذه المدن مثل ما عملوا بأهالي المدن السابقة من ذبح وتقتيل وتدمير وقد امتدت عملية غزو إقليم خراسان حتى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢٠م.

بعد أن حقق جنكيزخان هذه الانتصارات السريعة الواسعة توسعت ممتلكات المغول ومناطق نفوذهم غرباً حتى وصلت إقليم غزنة إذ أخضعت مدينتها باميان إلى السيطرة المغولية عندئذ عاد جنكيزخان إلى بلاده فوصل منغوليا سنة ٦٢٢هـ /١٢٢٤م أي بعد فترة غياب دامت سبع سنوات قضاها في الغزو والتدمير والقتل والسلب والنهب كل ذلك بسبب ملاقاة التجار في مدينة اترار من حاكمها ينال خان.

ثانياً سقوط بغداد ونهاية الخلافة:

كانت فترة ظهور المغول الحقيقي في منغوليا في سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م توافق الفترة التي كان فيها الخليفة الناصر لدين الله خليفة العباسيين في بغداد (امتدت خلافته في سنة ٥٧٥هـ / ٦٢٢هـ / ١١٨٨- ١٢٢٥م)، ولهذا

فإن أهم ما وقع من أحداث تتعلق بتوسعات المغول غرباً، ونقصد منذ حادثة اترار وما أعقب ذلك من أحداث خطيرة كانسياح هؤلاء البرابرة في الأراضي الإسلامية غرباً في عهد جنكيزخان وهم يدمرون المدن ويقتلون الأبرياء ويأسرون الأطفال إلى حين وصولهم إلى إقليم غزنة وما رافق ذلك من انتكاسة للخوارزميين وهروب سلطانهم علاء الدين محمد وتولي ابنه الأكبر جلال الدين السلطنة أن جميع هذه الأحداث والتطورات قد حدثت أثناء وجود الناصر لدين الله خليفة للمسلمين.

ولقد ترددت بعض الإشاعات ووردت بعض الروايات التاريخية عند عدد من المؤرخين العرب القدامى مفادها أن الخليفة الناصر لدين الله كان عاملاً مساعداً في تشجيع جنكيزخان على القضاء على الدولة الخوارزمية، وكان متعاوناً ومتواطئاً مع المغول. والمعروف أن الدولة الخوارزمية كان ينظر إليها من قبل الإمارات الإسلامية بمثابة الحاجز المتين المانع لتقدم الجيوش المغولية، فقد أدلى ابن الأثير في عدة مناسبات برأيه في هذا الموضوع وكان من مؤيدي هذا الاتجاه الذي يوجه الاتهام إلى الخليفة فقد أبان عن موقفه بعد حادثة اترار مشيراً إلى أن أسبابها وعوامل اخرى خفية لا توجد إلا في بطون الدفاتر وقال في مجال آخر متهماً الخليفة الناصر لاسيما بعد أن تعرضت مدن العراق في اربيل والموصل سنة ٦١٨هـ إلى الخطر المغولي دون أن تكون هنالك أي ردود فعل حقيقية من جانب الخليفة في وقت ابتلى فيه العالم الإسلامي بالمصائب والولايات التي سببها الغزو المغولي البربري، وقد أشار إلى تواطئ الخليفة الناصر مع المغول فقال "وكان سبب ما ينسبه العجم إليه للناصر- صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وأرسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم".

إن هذه الاتهامات التي أصدرها ابن الأثير يبدو أن أصولها ومصدرها الأساس كما صرح ابن الأثير بذلك قائلاً (سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً) إلى أقوال عدد من الرواة الحاقدين على الخليفة العباسي. وقد أورد بعض المؤرخين المحدثين حججاً تاريخية تخالف تلك التصريحات التي أوردها ابن الأثير والتي تؤكد أن الاتهامات التي قد وجهت إلى الخليفة الناصر ربما تكون مبالغة. وقد يكون من الصحيح القول بأن الخليفة العباسي قد علق أمالاً كبيرة على مواقف السلطان الخوارزمي العسكرية، إذا أن هذا كان سلطاناً طموحاً ويسوس إمبراطورية واسعة مجاورة لدولة المغول وله جيوش جرارة وقوية لكن من المؤسف أن تخاذل السلطان محمد وهروبه دون أن يواجه المشكلة فيتحدى الغزو المغولي ويحارب جنكيزخان أدى هذا التخاذل إلى أن تتهيأ الفرص أمام المغول بالتقدم والإنسياح في أراضي المملكة الخوارزمية يغزون المدينة تلو الأخرى ويمارسون ابشع الأعمال بحق الأهالي لذلك فأنه من المحتمل أن اللوم أولاً ينبغي أن يوجه إلى ما كان سائداً من حالات تمزق سياسي وتناقص في المواقف في المجتمع العربي الإسلامي لا إلى الخليفة فقط.

فالخليفة الناصر لدين الله قد وجه اهتمامه منذ توليه الخلافة للتخلص من التسلط الأجنبي السلجوقي الذي كان مستحوذاً على مقاليد الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية وان الخليفة وجد في السلطان الخوارزمي خير مساعد ومنجد في تحقيق هذه المهمة وبالفعل قد انتهى دور السلاجقة في العراق خلال أيامه. غير أن من المؤسف بان السلطان الخوارزمي ابتداء من نكش حتى ولاية السلطان محمد كان في حقيقة الأمر طامعاً في الخلافة العباسية كالبويهيين والسلاجقة وان السلطان الخوارزمي وجد في نفسه البديل الشرعي للسلاجقة فقد طالب السلطان نكش مثلاً الخليفة أن يقرأ الخطبة في جوامع بغداد باسمه

وتجاوز السلطان علاء الدين محمد الأمر إلى الحد الذي صمم فيه على غزو بغداد والسيطرة على الخلافة العباسية واستبدال الخليفة بآخر قد اختاره وذلك بحجة أن الخليفة الناصر كان يحتقر السلطان ولا يرغب في الخضوع لسلطته وبأنه كان يتحالف ويشجع القوى السياسية المجاورة للخوارزميين وعلى هذا الأساس قاد حملة عسكرية كبيرة سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م ضد العراق بعد أن كسب عدة معارك مع الأتابك سعد بن زنكي واتابك أذربيجان اوزبك بن البهلوان لقد عمل كل ذلك في الوقت الذي كان فيه المغول قد اشرفوا على حدود مملكته.

يضاف إلى ذلك فان الخليفة الناصر لدين الله ربما كان على خلاف ما قام به بعض الخلفاء العباسين السابقين كالخليفة المقتفي بأمر الله مثلاً (حكم من سنة ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٥م - ١١٦٠م) بأنه لم يعر أهمية إلى الجوانب العسكرية في الوقت الذي دأب فيه المقتفي على تكوين جيش قوي من العامة والجند والأتراك والعناصر الأخرى لكي يكون بمثابة جيش الخليفة ضد جيش السلاجقة. فإن الناصر لدين الله لم يقم بمثل ذلك والتفت إلى الأحوال الداخلية فاهتم ببعض الإصلاحيات الاجتماعية.

ومن المحتمل جداً أن هذا العامل علاوة على العامل الأهم وهو موقف الخوارزميين العدائي من جميع القوى والإمارات الأتابكية والإمارات المجاورة كالغورية والقرخطائية قد أوجد حالات من الحقد ضد السلطان الخوارزمي فلم يقفوا إلى جانبه حينما واجهت جيوشه جيوش جنكيزخان بل تركوه يواجه مصيره بمفرده كذلك فان الإمارات الأيوبية كانت منشغلة في أمورها الداخلية المتمثلة بالانقسامات بين صفوف الأسرة حول السلطة فكان موقفهم وردود فعلهم إزاء التقدم المغولي الذي وصل في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١ حتى أمد

ونصيبين وأرضروم ضعيفاً جداً، وانشغل الأيوبيون بعد وفاة العادل أبو بكر شقيق صلاح الدين الأيوبي في صراعاتهم حول الإمارة بينما كان الخطر المغولي يداهم الأراضي الإسلامية ووصلوا سنة ٦١٨هـ إلى أطراف بلادهم في سنجار وحران في الوقت نفسه واجهت اربيل عدة ضربات وهجمات من المغول أولها سنة ٦١٨هـ على اثر اختفاء دور ابنه جلال الدين أما الموصل وكانت آنذاك تابعه لإمارة بدر الدين لؤلؤ الذي تعرضت مملكته إلى عدة هجمات من المغول في سنوات ٦١٨هـ /٦٢٩هـ، وقد حاول بدر الدين لؤلؤ مساعدة أمير اربيل عندما طلب منه المساعدة كذلك تعرضت الموصل إلى هجوم المغول في سنة ٦٣٣هـ / ٦٣٤هـ ولما كان موقف الإمارات الإسلامية والخلافة العباسية غير قوي ولا يجدي نفعاً اضطر بدر الدين لؤلؤ إلى مصالحة الغول بدفع الأموال سنوياً وصار يجمع لهم السيرة والضرائب من الإمارات الإسلامية المجاورة وان بدر الدين لؤلؤ نظراً لولاته للمغول وخضوعه لهم اضطر إلى أن يسهم مع المغول في حصار مدينة بغداد، وأرسل جيشاً بقيادة ابنه الصالح إسماعيل لتنفيذ هذا الغرض.

لقد انتهت المقاومة الخوارزمية في عهد الخان المغولي اوكناي في سنة ٦٢٤هـ وذلك على اثر نهاية السلطان جلال الدين الذي هرب بعد فشله في مواجهة المغول وقتله في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م وبعد وفاة جلال الدين توجه المغول لغزو ما بقي من الأراضي الإسلامية في ديار بكر وأرضروم وميافارفين ونصيبين وسنجار وأرمينيا وجورجيا والأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية ووصلوا في سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م إلى مدينة سامراء، حينئذ أعلن الخليفة الجهاد فاجتمع له جيش كبير وضع تحت قيادة الدويدار مجاهد

الدين الذي افلح حينذاك في إلحاق الهزيمة بالمغول وقد هجم المغول مرة ثانية على العراق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م ووصلوا إلى خانفين.

غير أن المرحلة الحاسمة التي حددت مصير بغداد كانت زمن الخان منكو (أو منغو) الذي تولى الخانبة للفترة من سنة ٦٤٨هـ / ٦٦٠هـ/ ١٢٥٠/١٢٥٧م ومن جاء بعده. إذ هيأ هذا الخان جيشاً كثيفا وأعطى قيادته إلى أخيه هولاكو وكان جيشاً يختلف عن الجيوش السابقة عدة وعدداً ويذكر أم منكو خان أوصى أخاه هولاكو أثناء توديعه بالوصايا الآتية فقال له: أنك الآن على رأس جيش كبير قوات لا حصر لها فينبغي أن تخترق حدود توران وتذهب إلى إيران وكل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من نهر جيحون حتى أطراف مملكة مصر خصة بلطفك وعطفك أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به وأبدأ بإقليم قجستان في خراسان فخرب القلاع والحصون، وإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق وأزل من طريقك الأكراد فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً أما إذا تكبر وعصى فالحقه بالآخرين من الهالكين".

فالمخطط السياسي الذي رسمه الخان منكو إلى هولاكو يوضح بجلاء الأطماع السياسية للمغول في احتلال الأراضي العربية والإسلامية والوصول إلى مصر، وهم مخطط صريح يبين موقف المغول من الخلافة العباسية وهو خير جواب على الرأي الذي يلمح بان هناك تواطؤا بين الخلافة والمغول.

قاد هولاكو هذا الجيش الجرار سنة ٦٥١هـ / ٦٥١هـ١٢٥٣م وأثناء نقدمه وصلته رسائل وكتب السلاطين والملوك معلنين خضوعهم وإذعانهم.

وبعد أن حقق هدفه في دك حصون الإسماعيليين في وبحدود سنة ٦٥٤هـ/ ٦٥٥هـ لم يبق أمامه لتنفيذ مشروع أخيه الخان سوى أراضي الخلافة العباسية.

كان المستعصم بالله هو الخليفة العباسي آنذاك (امتدت خلافته ممن سنة ٦٤٠هـ حتى ٦٥٦هـ) وقد وصف بأنه كان رجلاً متيناً لين الجانب سهل العريكة سهل الأخلاق ضعيف الوطأة إلا انه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش. وكان أصحابه مستولين عليه وجلهم جهال من أراذل العوام. ونقل عنه أنه لم يأبه بتقدم هولاكو ضده وان هولاكو سوف لن يجرأ على محاربته والواقع أن هولاكو أبتدأ بمراسلة الخليفة العباسي منذ سنة ٦٥٣هـ، إذ طلب منه الإسهام في حملة هولاكو من قلاع الإسماعيلية التي لم يجب عليها الخليفة ثم أرسل إليه هولاكو رسالة أخرى سنة ٦٥٥هـ على اثر انتصاراته على الإسماعيلية وتصفية قلاعهم دعاه فيها إلى هدم حصون مدينة بغداد وأن يسلم العاصمة للمغول.

وأعقب هذه الرسائل رسالة ثالثة تضمنت تهديداً ووعيداً للخليفة يدهوه فيها إلى الاستسلام والخضوع والأفانة أي هولاكو – متوجه إليه في جيش كالنمل والجراد. غير أن استجابة الخليفة العباسي إزاء هذه الرسائل لم تكن استجابة قوية وذلك بوضع خطة إما الهجوم المغولي أو بتهيئة الفرص لملائمة لردع الخطر المغولي.

ومع كل هذا فإن هولاكو في إحدى رسائله حول ضرورة تهديم الحصون المنيعة في بغداد قد تدلل على أن الخليفة كان يفكر في مسألة الدفاع ومواجهة الخطر ولعل من المهم القول بأن حاشيته وبالأخص وزيره مؤيد الدين بن

العلقمي، قد لعبت دور أساسياً سلبياً في تثبيط همة الخليفة وفي عدم التوجه بجدية لمجابهة الغزو المغولي وانه هناك أراء تفيد بأن ابن العلقمي الذيكان على خلاف مستمر مع القائد ابن الدويدار هو الذي أطمع هولاكو في غزو بغداد ومع وجود واقعية لهذا الاحتمال اعتماداً على ما تحقق لابن العلقمي بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ فان هولاكو بعد أن تسلم أجوبة الخليفة العباسي التي تضمنت هي الأخرى تهديداً ووعيداً وبأن جميع ملوك الشرق والغرب سوف يقفون إلى جانبه ضد المغول قد دفعت هولاكو إلى الإسراع بالهجوم دون أخذ نصائح أولئك الذين حاولوا أن يمنعونه. علاوة على ذلك فان هولاكو أراد، إذا ما صحت رواية وصايا الخان، تحقيق مشروع منكوخان في الوصول إلى مصر وفي قتل الخليفة إن رفض إعلان ولائه.

تحركت الجيوش المغولية باتجاه بغداد في عدة اتجاهات فتقدمت جيوشه عبر أربيل والموصل لتفرض حصاراً على العاصمة من الجانب الغربي، ثم تقدم هولاكو برفقة جيش آخر لفرض لحصار من الجانب الشرقي. بينما توجه كتيوبوتا وهو أحد قواد هولاكو المشهورين فقد اتجه بجيشه عبر لورستان والأحواز من الجانب الأيسر وبالإضافة إلى هذه القوات المغولية فقد تلقى هولاكو نجدات عسكرية من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ومن أتابك بلاد فارس.

يبدو أن الخليفة العباسي المستعصم كان إزاء هذه التحركات العسكرية التي تهدف إلى تطويق بغداد وتضييق الحصار عليها مصمماً على الدفاع عن العاصمة ولعله من الصواب القول بأنه ربما كان يتوقع وصول إمدادات ومساعدات عسكرية من الإمارات الإسلامية الشرقية والغربية غير أن مثل تلك الإمدادات لم تصل حينئذ أرسل قائد جيشه مجاهد الدين ايبك بن الدويدار على

رأس قوة عسكرية لمحاولة زحزحة التحشدات المغولية وباءت هذه الخطة أيضاً بالفشل وفي هذه الأثناء شدد هولاكو من حصاره للعاصمة في ١٢ محرم (وقيل ٢٢محرم) من سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، واستمر هذا الحصار الشديد قرابة الأسبوع ولم يستطع أهالي بغداد الصمود اكثر من ذلك فضعفت مقاومة الخليفة واضطر بعض الأهالي على الاستسلام فنجح المغول في فتح حصون المدينة من الجانب الشرقي الأمر الذي صار فيه موقف الخليفة مهزوزاً فاختار حينئذ التفاوض بهدف تجنب تدمير العاصمة ومنع هولاكو والاستيلاء عليها قهراً.

وفي ٤ من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م أعطى الخليفة أوامره إلى الدويدار وسليمان مشاه بان يسلما نفسيهما إلى هولاكو لتخف الوطأة وخرجا وخرج معهما الجنود، فقتلهما هولاكو مع أتباعهما وأرسلت الرؤوس إلى بدر الدين لؤلؤ بعد ذلك خرج الخليفة إلى معسكر هولاكو معلنا استسلامه، لكن هولاكو الذي في البداية قد وعده بالأمان خان وعده وقتله مع أولاده وأقاربه وأباح للمغول أن يعملوا ما يشاءوا بأهالي بغداد من النساء والرجال والأطفال وأن يهدموا معالمها فاستمرت أعمال القتل والنهب والتخريب طيلة الأيام الباقية من شهر صفر.

وبذلك سقط آخر خليفة عباسي وأسدل الستار على تاريخ الأسرة العباسية في بغداد كما سقطت مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومهد الحضارة العربية التي لم تذعن في تاريخها إلى غزو أو تسلط إذ عملت معاول البرابرة المغول في تهديم كل ما فيها من رموز تعكس ماضيها العريف.

المصادر والمراجع:

المصادر:

١- القرآن الكريم

٢- ابن الابار: "الحلة السيراء".

٣- -------: "أعتاب الكتاب".

٤- ابن الأثير: "الكامل فقي التاريخ".

٥- الأزدي: "تاريخ الموصل".

٦- الأشعري: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" - ط٢ - ١٩٦٩.

٧- الاصبهاني: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء".

٨- الاصطخري: "المسالك والممالك".

٩- ابن اعثم: "الفتوح".

١٠- البسوي: "كتاب المعرفة والتاريخ".

١١- البغدادي: عبد القادر - "الفرق بين الفرق".

١٢- البغدادي: عبد القادر - "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب".

١٣- ابن بكار: "الأخبار الموفقيات".

١٤- البلاذري: "انساب الأشراف" القسم الثالث.

١٥- ------: "فتوح البلدان" راجعه وعلق عليه: رضوان محمد رضوان.

١٦- البيروني: " الآثار الباقية عن القرون الخالية".

١٧- البيهقي: "المحاسن والمساوئ".

١٨- الثعالبي: "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب".

١٩- ------- "لطائف المعارف".

٢٠- الجاحظ: "البيان والتبيين" – القاهرة (د.ت) .

٢١- الجهشياري: "الوزراء والكتاب".

٢٢- ابن الجوزي: "صفة الصفوة".

٢٣- ابن حبيب: "المحبر".

٢٤- ابن حجر: شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) " تهذيب التهذيب".

٢٥- ابن أبي الحديد: "شرح نهج البلاغة".

٢٦- ابن حزم: "جمهرة انساب العرب".

٢٧- -------: "الفصل في الملل والأهواء والنحل".

٢٨- الحضرمي: "زهرة الآداب وثمر الألباب" – القاهرة – (د.ت).

٢٩- ابن حوقل: "صورة الأرض" بيروت (د.ت).

٣٠- أبو حيان التوحيدي: "البصائر والذخائر".

٣١- الخطيب البغدادي: "تاريخ بغداد ".

٣٢- ابن خلدون: "مقدمة ابن خلدون" بيروت. (د.ت).

٣٣- -------: العبر وديوان المبتدأ والخبر".

٣٤- ابن خلكان: "وفيات الأعيان وأنباء الزمان".

٣٥- ابن خياط: "تاريخ خليفة بن خياط".

٣٦- ابن دحية: "النبراس في تاريخ بني العباس".

٣٧- الديار بكري: "تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس".

٣٨- الدينوري: "الأخبار الطوال".

٣٩- الذهبي: "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام".

٤٠- --------: "دول الإسلام".

٤١- --------: " سير أعلام النبلاء".

٤٢- الزبيدي: "تاج العروس من جواهر القاموس".

٤٣- ابن سعد: "كتاب الطبقات الكبرى".

٤٤- السيوطي: " تاريخ الخلفاء".

٤٥- الشهر ستاني: "الممل والنحل".

٤٦- الصابي: "رسول دار الخلافة" تحقيق ميخائيل عوار.

٤٧- -------:" الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء".

٤٨- الصولي: "أخبار البحتري".

٤٩- الطبري: "تاريخ الرسل والملوك".

٥٠- ابن الطقطقي : " الفخري في الآداب السلطانية".

٥١- ابن طيفور: "بغداد في عهد الخلافة العباسية".

٥٢- عبد الجبار: "فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة".

٥٣- ابن عبد ربه: "العقد الفريد".

٥٤- ابن العبري: "تاريخ مختصر الدول".

٥٥- ابن عذاري: "البيان المغرب في أخبار المغرب".

٥٦- ابن عساكر: "التاريخ الكبير".

٥٧- ابن العماد الحنبلي: "شذرات الذهب في أخبار من ذهب".

٥٨- أبو الفرج الأصفهاني: "لاغاني".

٥٩- -------: " مقاتل الطالبيين".

٦٠- الفيرزو آبادي: "القاموس المحيط".

٦١- ابن قتيبة: "المعار ف".

٦٢- قدامة: "الخراج وصناعة الكتابة".

٦٣- القزويني: "أثر البلاد وأخبار العباد".

٦٤- القلقشندي: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا".

٦٥- ابن كثير: "البداية والنهاية في التاريخ".

٦٦- الكندي: "ولاية مصر".

٦٧- الماوردي: "الأحكام السلطانية والولايات الدينية".

٦٨- المسعودي: "مروج الذهب ومعادن الجوهر".

٦٩- ------: " التنبيه والإشراف".

٧٠- مسكويه: "تجارب الأمم".

٧١- المقدسي: "البدء والتاريخ".

٧٢- المقريزي: "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار".

٧٣- ابن منظور: "لسان العرب المحيط".

٧٤- ابن النديم: "الفهرست".

٧٥- ابن الوردي: "تاريخ ابن الوردي".

٧٦- وكيع: "أخبار القضاة".

٧٧- ياقوت: "معجم البلدان".

٧٨- اليعقوبي: "تاريخ اليعقوبي".

٧٩- ----: "مشاكلة الناس لزمانهم".

المراجع:

٨٠- أحمد أمين - "ضحى الإسلام" - بيروت - (د.ت).

٨١- أحمد، محمد حلمي - "الخلافة والدولة في العصر العباسي".

٨٢- أرنولد، توزماس - "الخلافة" - ترجمة جميل معلى - دمشق.

٨٣- أمير علي، سيد - "مختصر تاريخ العرب".

٨٤- أمين، حسين- "تاريخ العراق في العصر السلجوقي" - بغداد.

٨٥- برانق، محمد أحمد - "أبو العباس السفاح الشاب الثائر" - القاهرة.

٨٦- بروكلمان، كارل - "تاريخ الشعوب الإسلامية".

٨٧- بليابيف، ي.أ - "العرب والإسلام والخلافة العربية".

٨٨- البنداري، الفتح بن علي - "تاريخ دولة آل سلجوق".

٨٩- الجميلي، رشيد عبد الله - "إمارة الموصل في العصر السلجوقي".

٩٠- الجومرد، عبد الجبار - "داهية العرب أبو جعفر المنصور".

٩١- حسن، حسن إبراهيم-"تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي".

٩٢- حسن، علي إبراهيم - "التاريخ الإسلامي العام" - القاهرة.

٩٣- الخضري، محمد - "محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية".

٩٤- الدوري، العبد العزيز - "دراسات في العصور العباسية المتأخرة".

٩٥- ---- : "العصر العباسي الأول".

٩٦- ---- : "النظم الإسلامية".

٩٧- الراشد، عبد الجليل عبد الرضا - "العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة".

٩٨- الزبيدي، محمد حسين - "العراق في العصر البويهي".

٩٩- زكار، سهيل - "تاريخ العرب والإسلام".

١٠٠- زيدان، جرجي - "التمدن الإسلامي".

١٠١- سالم، السيد عبد العزيز - "العصر العباسي الأول".

١٠٢- السامر، فيصل - "ثورة الزنج".

١٠٣- السامرائي، "الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية".

١٠٤- السرنجاوي، عبد الفتاح - "الخلافة العباسية".

١٠٥- سرور، جمال الدين - "تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق".

١٠٦- شلبي، أحمد - "في قصور الخلفاء العباسيين".

١٠٧- -----: "موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية".

١٠٨- الشيال، جمال الدين - "تاريخ الدولة العباسية".

١٠٩- الصالح صبحي-"النظم الإسلامية نشأتها وتطورها".

١١٠- الصياد، فؤاد عبد المعطي - "المغول في التاريخ".

١١١- العاني ،حسن فاضل زعين - "سياسة المنصور".

١١٢- العبادي، أحمد مختار - "في التاريخ العباسي والأندلسي".

١١٣- العبود، نافع توفيق - "الدولة الخوارزمية".

١١٤- العدوي، إبراهيم أحمد - "الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية".

١١٥- العريني، السيد الباز - "الأيوبيون".

١١٦- عطوان، حسين - "الدعوة العباسي".

١١٧- عمر، فاروق - "طبيعة الدعوة العباسية" - ط١.

١١٨- ------: "العباسيون الأوائل" - الجزء الأول.

١١٩- العميد، طاهر مظفر - "بغداد مدينة المنصور المدورة".

١٢٠- ------: "تخطيط المدن العربية الإسلامية".

١٢١- فلهاوزن، يوليوس - "الدولة العربية وسقوطها".

١٢٢- فهمي، عبد السلام عبد العزيز - "تاريخ الدولة المغولية في إيران".

١٢٣- الفياض، عبد الله - "تاريخ البرامكة".

١٢٤- القزاز، محمد صالح - "الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير".

١٢٥- كب، هاملتون - "دراسات في حضارة الإسلام".

١٢٦- الكبيسي، حمدان - "أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي".

١٢٧- ------: "عصر المقتدر بالله".

١٢٨- ماجد، عبد المنعم - "العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين".

١٢٩- ------: "التاريخ السياسي للدولة العربية" - ج٢.

١٣٠- متز، آدم - "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري".

١٣١- محمود، حسن أحمد وأحمد إبراهيم الشريف - "العالم الإسلامي في العصر العباسي".

١٣٢- مصطفى، شاكر - "في التاريخ العباسي" - ج١.

١٣٣-معروف، نايف محمود - "الخوارج في العصر الأموي".

١٣٤- اليوربكي، توفيق سلطان - "دراسات في النظم الإسلامية".

١٣٥- ----: "الوزارة نشأتها وتطورها.

الفهرس

تم بحمد الله